مجلة إسلامية ثقافية

رسالة النجف

العدد العشرون

حزيران 201 1 - م 2011م

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية — لبنان

محتويات العدد

1	لافتتاحية	التحرير
2	روحية الزكاة في الإسلام	الشيخ سليمان يحفوفي
3	النية	السيد علي السيد حسين مكي
4	المذاهب الأربعة	(مقتطف من كتاب الشيخ أسد حيدر)
5	صبر الإمام علي (ع)	السيد محمد رضا شرف الدين
6	محورية الزهراء (ع)	الشيخ أحمد الدر
7	هل كانت ليلى أم علي الأكبر (ع) في كربلاء	الشيخ حسين عبد الله
8	التربية بين الأسرة والمدرسة	الأستاذ حسن جابر
9	الهجرة الحادة والمهاجرون بين الماضي والحاضر	د. حسن جعفر نور الدين

لافتتاحية

التحرير

الافتتاحية

حين يلقي المرء نظرة على تاريخ البشرية فإنه سرعان ما يلمح إحدى سماته العامة والواضحة، ألا وهي سمة التطور، وهي سمة غدت شديدة التسارع في عصرنا الحاضر، كما أنها طالت مختلف مناحي الحياة المعاصرة، سواء على مستوى العلوم والمعارف، أم على مستوى التطبيق والتقنيات، أم على مستوى الحياة ووسائل العيش.

غير أن الملاحظ هو أن هذا التطبيق وعلى الرغم من تسارعه وشموله، لم يمسّ قضية تعتبر من أهم القضايا في حياة الإنسان، عنيت بها قضية الحقوق، حيث ظلّت هذه القضية تعيش في عزلة ثانية، حتى ظهرت عصيّة على التطور، هذا إذا لم نقل إنها آخذة في التراجع والتقهقر، وأن الذي تطور هو أسلوب الظلم والتعدّي على الحقوق.

ومما لا شك فيه أن هذه المشكلة إنما هي من صنع يد الإنسان وليست مفروضة عليه قهرًا، وهذا ما يدفع المرء إلى التساؤل.

ما دام الناس هم المسؤولون عن تسبيب المشكلة، وما دامت المشكلة ناتجة عن سلوكهم وتصرفاتهم، فلماذا لا ينزعون إلى حلّها يتجفيف منابعها والقضاء على أسبابها، فيتخلصون بذلك من مشكلة تعتبر من أهم بؤر الصراع في المجتمعات الإنسانية؟!

هنا تبرز إحدى المشاكل الكبرى من مشاكل الواقع الإنساني وهي المشكلة التي يصوّرها الإمام علي (عليه السلام) بكلمته الجامعة حيث يقول:[فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف].

إن الناس حين يأخذون في وصف الحق وفي بيان معالمه، فإن لهم في ذلك مجالاً واسعًا، لسهولة الوصف على ألسنتهم، وخفّة مؤونتهم على أنفسهم، فإذا هم وصلوا إلى حيّز الفعل والتنفيذ، وصار عليهم تأدية ما يجب عليهم من حقوق، ضاق عليهم الأمر وثقل الواقع، وبعدوا عن الإنصاف.

لذلك فإن الإنسان ما إن ينتقل من مقام القول و[التواصف] إلى مقام الفعل و[التناصف] حتى يغدو مصداقًا لمعنى الخطاب الذي أرسله الإمام علي (عليه السلام) إلى الزبير يقول له فيه:[عرفتني في الحجاز وأنكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا؟!].

ففي مقام القول يبيّن الإنسان بأحسن بيان ما يجب له وما يجب عليه، بل لعلّه يقدّم في هذا المقام ما يجب عليه على ما يجب له، ولكنه سرعان ما يبتعد عن الإنصاف عندما ينتقل إلى مقام الفعل، فإذا به يبدأ هنا الكيل بمكيالين والوزن بميزانين، ويمسي يرى ما يجب له، وتعشى عيناه عما يجب عليه، حتى كأنه غدا يعتبر نفسه مستثنى من

قاعدة الحقوق العامة التي لا استثناء فيها لأحد من الناس، وهي القاعدة التي يقررها الإمام علي (عليه السلام) بقوله:[لا يجري لأحد إلا ما جرى عليه، ولا يجري عليه إلا ما جرى له].

فلا حق لأحد من الناس إلا وعليه حق مقابل، وليس لأحد على أحد منهم حق إلا وله حق مقابل، ومن غير استثناء لأي إنسان مهما علا مقامه. نعم لو كان ثمة استثناء لأحد فهو استثناء خالص لله تعالى.

يقول الإمام علي (عليه السلام):[ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصًا لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه].

ولكن حتى الله جلّ ثناؤه أبى إلا أن يتفضل على عباده بأن جعل لهم الجزاء مقابل ما يؤدونه من حقوق، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين (عليه السلام):[ولكنه جعل حقه على عباده أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب، تفضلاً منه، وتوسعًا بما هو من المزيد أهله].

فأبى سبحانه إلا التفضل على عباده بأن أوجب الحق على نفسه، وذلك من مزيد نعمته، ولكي يتخلّق الناس بأخلاق الله.

غير أن الناس لم يرتضوا لأنفسهم -في مقام الفعل و[التناصف]- ما رضيه الله لنفسه، فرأوا لأنفسهم حقوقًا لا تقابلها واجبات، ليستمر بذلك وجود الهوّة بين مقام [التواصف] ومقام [التناصف].

فالمشكلة مستمرة، وحلّها مسؤولية إنسانيّة، لذا رأينا من واجبنا فتح صفحات مجلتنا لمحاولات ومعالجتها، فكان لها نصيب من الذكر في عددنا الحالي، كما كان لها نصيب أيضًا في بعض الأعداد السابقة، ونحن ننتظر مساهمات أخرى تعالج المشكلة عينها في أعدادنا اللاحقة.

روحية الزكاة في الإسلام

الشيخ سليمان يحفوفي

اخترنا هذا البحث من كتاب "الضمان الاجتماعي في الإسلام وأثره الوقائي ضد الجريمة] للمقدس الشيخ سليمان يحفوفي، الدار العالمية، ط1 سنة 1402 هـ-1982م.

ونحن نقتصر في المقالة على خصوص الصنف الأول من أصناف المستحقين للزكاة، وعلى البحث حول الفهم الشرعي لمهمة الزكاة، وحول إصلاح بعض المفاهيم الخاطئة حول الزكاة.

(التحرير)

تمهيد

الزكاة لغة: هي النمو والزيادة. قال في لسان العرب: وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح.

والزكاة شرعًا: هي فريضة معيّنة في أصنافٍ معيّنةٍ من الأموال إذا بلغت نصابًا.

وفريضة الزكاة قديمة قِدم التشريع، لأنها منسجمة مع الفطرة التي تحفظ التوازن، وتتماشى مع رسالة الرسل التي جاءت بالبيّنات، وما أنزل معهم من الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

وأهمية الزكاة كبيرة جدًا، حيث تحقّق الضمان الإلزامي لأفراد المجتمع، فيسود الرخاء بينهم، ويعمّ الصلاح، ويقطع دابر الجريمة، وتحقق العدالة الاجتماعية والتكافل والتضامن والتعاطف والتعاون، وتشدّ أواصر الأخوّة بين المؤمنين، وتلحق الطبقات الدنيا بالطبقات العليا في مستوى معيشتها، محقّقة رخاءً ينعم فيه أبناء المجتمع البشري الذي يحافظ على أدائها والقيام بواجباتها، لأنها الركن الرابع من الأركان التي بُني عليها الإسلام.

ولأجل أثرها الكبير، أعطيت دوراً هامًا جداً في حياة المجتمع، حيث أصبحت تمثل العمود الفقري لدى الجسم الإسلامي، واقترنت بعمود الدين -الصلاة- في أكثر الموارد في القرآن الكريم.

* * *

قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[1].

تُصرف الزكاة على ثمانية أصناف وهم المعدودون في الآية الكريمة كالآتي:

1- الفقراء 2- المساكين. 3- العاملون عليها. 4- المؤلفة قلوبهم.

5- الرقاب. 6- الغارمون 7- سبيل الله. 8- ابن السبيل.

1- الفقراء

الفقر آفة فتّاكة في المجتمع، تنخر بنيته السليمة نخرًا، وتتركه أعجاز نخل خاوية، وتسبب له من الأمراض ما يُقوّض بناءه الاجتماعي، ويقضي على هناءة العيش والراحة، ويحيله أنقاضًا.

فالفقير يعيش الموت كل يوم، يستيقظ الموتَ في صباحه، وينامه عند منامه. فحياته موت مجترّ مكرور، اجترار الأغنياء لحياته.

فـ "الفقر الموت الأكبر"[2] "فما جاع فقير إلا بما متع به غني"[3] و"الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت"[4]، "وإن من البلاء الفاقة"[5].

بينما الموت؛ حالة تمرّ على الإنسان مرة واحدة، يكابد مرارتها ويقاسي آلامها، ثم يستريح بعدها في نعيمه الأبدي مُنهيًا ردحًا من المعاناة، وزمنًا من الآلام، وحياة تعيسة كابدها موتًا كل يوم.

فهو يرى الموت سعادة، طالما أن الحياة شقاء، وموت مكرور.

وحتى يستوي هذا العضو في المجتمع سليمًا سويًا، ويتجاوز عقدة النقص والخوف والألم، أولاه الإسلام كامل عنايته، وبالغ اهتمامه.

فضمن له رزقه وكفايته في مرحلة أولى، كما ضمن له غناه في مرحلة ثانية، وأحاطه بكل أشكال الرعاية، لدوره الكبير في بناء المجتمع، وزعزعة كيانه عند تعرضه للحاجة والفقر، وسوء أحواله المعيشية.

فلذلك شدد علي (عليه السلام) في عهده[6] لواليه الأشتر على رفع مستواه:

[ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى.... واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك، وقسمًا من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تُشخص همك عنهم، ولا تصعّر خدك لهم].

فهؤلاء دعائم المجتمع وركائز توازنه الذين لهم حق الرعاية والعناية الفائقة، وقد استحفظ الله أولياءه حقوقهم كما هي محفوظة لهم عنده. فلهم سهم من بيت المال مما يرفع عنهم غائلة الفقر ويدفع الحاجة، ولهم سهم من غلات أرض الغنائم مما يغنيهم ويرفع من شأنهم حتى يلحقوا بغيرهم من أغنياء مجتمعهم.

وتقع مسؤولية هؤلاء على الوالي، باعتباره مستخلَفًا على رزقه وأداء أمانته، وعليه القيام بأداء مهمته، والمحافظة على تنفيذ ما أوكل إليه مع رفض اعتذاره (في حال إهماله) بانشغاله فيما هو أهم من شؤون المسلمين، لأن الاعتناء بهم من أهم المهمات، فإذا حال دونه شيء آخر فعليه أن يفرّغ لهم من يعتني بشأنهم ويرفع إليه أمورهم. قال (عليه السلام):

[فلا تُشخص همك عنهم، ولا تُصعّر خدّك لهم، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتَحقِره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌ فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه].

فهؤلاء بحاجة للعناية الشديدة، حتى يعتدلوا أسوياء بكامل قواهم، ويقوموا بتأدية دورهم الفاعل في الحياة كغيرهم. وعندها يستقيم الفقير، الذي كان يشكّل خطرًا على المجتمع، سويًا نشيطًا يحقق أهداف حياته، وغاية وجوده من استقامة الفطرة، وإبرازها لعالم الوجود، بإقامة الوجه للدين حنيفًا، وتحقيق المجتمع العادل في كل شيء.

فمراعاة حال الفقير تنطلق من زاوية إصلاحية تراعي كل الظروف لأبناء الهدف الواحد، حتى يتمكن كل فرد من تقديم جهده وطاقته لخدمة قضيته في المجالين القريب والبعيد، بدون عوائق تحدُّ من عبقريته أو تحول دون تفجرها.

لأن المجتمع الذي تزداد بين أفراده الفوارق الطبقية، يحمل بين حناياه روح الحقد والانتقام، وبذور التفجير والإفناء، فهو مؤهل ليتحول متفجرًا من أول شرارة تشعل فتيل الفتنة. لا بل الانتقام من المستمتعين بحقوق الفقراء، والمستأثرين بلقمة عيش المحرومين، ولا تهدأ حتى تلتهم في طريقها كل شيء، وتحيل الدنيا خرابًا ويتساقط معمورها ركامًا.

فالوقاية تحول دون الدمار، ومعالجة الأسباب تقتلع بذور الانفجار، وتضييق الشقة بين طبقات المجتمع يخلق روح التعاون والتعاضد بين أفراده للوصول به إلى الصلاح والكمال.

وإزالة الفقر منه تقوية لنقاط الضعف، وإزالة للجانب الواهن وجعله مدماكًا صلدًا في بناء الإنسانية الشامخ.

فمعالجة حالة الفقر أُولى واجبات بناة المجتمع الصالح، ولذا نجد عناية الإسلام الفائقة به.

تحديد مفهوم الفقير شرعًا

الفقير الإسلامي، هو كل من لا يملك مؤونة سنته [اللائقة بحاله له ولعياله] لا فعلاً ولا قوة.

وهذا التحديد يحفظ كرامة الإنسان، وينمي شعوره للارتفاع بنفسه نحو الأفضل، ويشد روابط الأسرة، ويوثق عراها لكونها الأساس المتين لبناء المجتمع الصالح.

ولبيان ذلك يلزمنا البحث في مسائل:

المسألة الأولى: سبب تعيين الفترة بالسنة.

المسألة الثانية: سبب إضافة ضمان عياله له.

المسألة الثالثة: المقدار الذي يعطاه.

المسألة الأولى:

يعالج الإسلام دائمًا قضايا الإنسان من شعوره الداخلي وإحساسه الباطني حتى تستقيم تلك الإحساسات، ويتوازن ذلك الشعور مع تصرفاته الخارجية، فلا يحسّ المرء بتناقض بين إحساسه وعمله.

فهو عندما يحرّك إنسانًا نحو العمل، يحاكي به، أول ما يحاكي، شعوره الداخلي، حتى تتحرك باقي الأعضاء متجاوبة معه، طلبًا للاستقامة، وتحقيقًا للفطرة، ويكون عمله نابعًا منه بمحض اختياره وإرادته، وهذا يحقّق الانسجام بين الموجودات الكونية وبين المرء ونفسه، فيبعد شبح الصراع حتى الباطني.

فكذلك عندما يريد أن يحافظ على ضمان فرد من أفراده ينطلق معه من إحساسه الداخلي بمقدار تقبّله ما يعامله به، وهو يتوافق مع مقتضى الفطرة، ويحفظ التوازن بين ذلك الإحساس والتصرف؛ لأن ميزان الإسلام مع الغير هو نفس الإنسان، "فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها"[7].

وصاحب الحاجة ليس لديه الاستعداد الدائم لبذل نفسه في كل وقت لقضاء حاجته مهما بلغت، ولكنه لا يرى غضاضة بطلب حاجته مرة في السنة، خصوصًا مع شعوره بوجود من يحافظ له على كرامته ورهافة إحساسه، فكانت السّنَة تراعي كل هذه الجوانب. أضف لذلك احتمال استغنائه خلالها وتصنيفه في عداد الموسرين الذين يؤدّون الفريضة لغيرهم.

1- قال أبو بصير: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): الرجل من أصحابنا يستحيي أن يأخذ من الزكاة، فأعطيه من الزكاة ولا أسمّي له أنها من الزكاة؟ فقال (عليه السلام): أعطه، ولا تسمِّ له، ولا تذل المؤمن.

2- عن إسحاق بن عمار قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): يا إسحاق كيف تصنع بزكاة مالك إذا حضرت؟ قال: يأتوني إلى المنزل فأعطيهم، فقال لي: ما أراك يا إسحاق إلا قد أذللت المؤمنين. فإياك إياك! إن الله تعالى يقول: من أذلّ لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة[8].

3- عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): الرجل يكون محتاجًا يُبعث إليه بالصدقة فلا يقبلها. (إلى أن قال): فقال: ما ينبغي له أن يستحيي مما فرض الله له، إنما هي فريضة الله له فلا يستحيي منها.

4- عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: تارك الزكاة وقد وجبت له مثل مانِعِها وقد وجبت عليه[9].

فهذه النصوص الأربعة تعالج الحالة النفسية التي يحملها الفقير المضمون، وترشد إلى أفضل الأساليب الإنسانية الواجبة الاتباع للمحافظة على الحسّ المرهف الذي يحمله هذا الصنف من بناة المجتمع الأساسيين. لكي يكون مجتمعًا صالحًا.

فالرجل الذي يستحيي من أخذ الزكاة، ويشعر بالذلة والمهانة بذلك، يُعطاها بكرامة وعزة وعفة، بدون أن تُسمّى له، حتى لو اعتقد أنها دين أو هدية.

وهذا أسلوب متحضر جدًا، ولو كان عمره أربعة عشر قرنًا، لأنه آتٍ من قِبَل عالِم السر وأخفى. وسنرى نتائجه على الساحة العملية وأثره النفسي على العاملين.

فالمضمون -الفقير- المرهف الحس ينبغي تنمية إحساسه وتربية نفسه على الشعور الدائم بأن كل أبناء مجتمعه يقاسمونه إحساسه، ويحاولون انتشاله مما يعانيه.

فبدلاً من أن نشعره بالمذلة بتسمية ما يعطاه بأنه زكاة ونجرح نفسه العزيزة. نعطيه إياها بتخييل: أنها هدية، أو دين، أو هبة، مما يحفظ له كرامة نفسه وعنفوانه.

وهذا، سينتج منه إنسانًا آخر، غير ما نعهده، لأنه سيحاول قطعًا ردّ الجميل لأهله، ومكافأة الصنيعة، وستلتهب في داخله روح العمل الدؤوب، وتزداد مشاعر الأخوّة والمحبة، لِمَا في الهدية من فعل سحري في ذهاب السخيمة وإيراث المحبة، ولِمَا تذكي من شعلة الإيمان في النفوس، وتثير من غريزة العمل لإيفاء المحسن جزاء إحسانه.

فإعزاز المؤمن، المضمون بهذا الضمان، إنما يتحقّق بقصده والمسير إليه، وتقديم الضمان له بكل تجلّة واحترام، لأن عزّته من عزّة الله، وإذلاله حرب على الله، وما الفريضة له إلا من باب الحفاظ على معنوياته العالية، وليس لامتهان كرامته.

وسؤال الإمام (عليه السلام) إلى إسحاق عن كيفية صنعه بزكاة ماله، يوضّح له خطأ تصرفه في تأدية الفريضة، لأن إتيانه إلى المنزل فيه نحو من التكبر والتعالي، حيث ينتظر المحتاجين ليقصدوه، فتخالج نفسه خطرات الشيطان ووسوسته باحتقار من يأتيه. مع أن الفريضة عبادية لا تقبل إلا بالخشوع والخضوع، وقصد القربة، وهذه صفات تتأتى من باذلها، فعليه أن يسعى بنفسه لتأديتها ليحصل معه القصد.

فإرشاد الإمام (عليه السلام) له: [ما أراك يا إسحاق إلا قد أذللت المؤمنين فإياك إياك] يفهمه بأن عليه أن يسعى هو لإعطائها، لأن القصد -أي القربة في دفع الزكاة- لا يحصل إلا بسعيك لأداء الفريضة بنفسك، أما إتيانهم إليك فإنه يفوت معه الغرض من التذلل والخشوع لله، ويذل المؤمنين الذين أعزهم الله بفرض هذه الضريبة لهم، ورفع من مستواهم بواسطتها.

فتكون النتيجة: أن المستهدف بقلة الاحترام هو الله وأن الحرب تسترصده. لأن إذلال ولي الله استهتار بمقام وليه الذي نصبه هذا المنصب، فهو الذي يتولى الدفاع عنه: "**من أذل لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة**".

كما أنه ينبغي للمضمون أن لا يستحيي من أخذ حقه الذي أعزّه الله به وفرضه له، لأن الحرمان قُرن بالحياء، لربما استعصت على الناس أنفسهم وغلبت عليهم أهواؤهم فوجدوا في التعفف مبررًا وفي الحياء عاذرًا لهم لعدم تأديتهم ما افترض عليهم، كما جاء في حديث محمد بن مسلم: "الرجل يكون محتاجًا يُبعث إليه بالصدقة فلا يقبلها"، فعدم قبوله مع حاجته يساهم في الحرمان وتصديع المجتمع وتحريف الفطرة، مع توفر كل أسباب

التكريم والاحترام، حيث أُرسلت له الفريضة ولم يأتها. فحياؤه من أخذها استهتار بمقام وليه الذي فرضها له، فهو في صف مانعها سواء بسواء: "تارك الزكاة وقد وجبت له مثل مانعها وقد وجبت عليه"، كلاهما كافران بما أنزل الله وفرض لعباده، ومساهمان في تبديل خلق الله.

أما تأديتها كما فرض الله، وأخذها كما أوجب، ففيه صلاح المجتمع ونماؤه، واستواء الأمور بما تحيي من الأنفس وتحرك فيها من الشعور بالمسؤولية وتبعث في النفوس الأخرى المعطاة روح الجد والنشاط. فتكون نامية منمية في آن، لأنه يُفضَّل إعطاء من لا يسأل على الذي يسأل منها.

واعتماد السَّنَة يفرّغ المضمون لممارسة أعماله باطمئنان عسى أن تتفجر عنده روح الإبداع والإنتاج.

عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: يأخذ الزكاة صاحب السبعمائة إذا لم يجد غيره. قلت: فإن صاحب السبعمائة تجب عليه الزكاة؟ قال: زكاته صدقة على عياله، ولا يأخذها إلا أن يكون إذا اعتمد على السبعمائة أنفدها في أقل من سنة، فهذا يأخذها.. الحديث[10].

فـ"السنة" مرحلة استقرار له حتى لو كان عنده ما يجب عليه أن يزكيه ولكنه لا يكفيه لمؤونة سنته إذا اعتمد عليه وحده وأراد أن ينفقه. فزكاة ما عنده صدقة على عياله يوسع بها عليهم حتى يلحقهم بالناس.

المسألة الثانية: سبب إضافة ضمان عياله له

المجتمع في نظر الإسلام متكافل متضامن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، فهو يعتبر كل فرد عضوًا من أعضاء هذا الجسد المتكامل، يتداعى كلّه لتداعي بعضه، فالرعوية عامة بين أعضائه، والمسؤولية مترتبة على كل فرد بمستوى احتماله.

وهذا الشعور بالمسؤولية، ينبغي له أن ينشأ من أصغر مجتمع بشري حتى يتكامل المجتمع بأسره.

والأسرة، هي الخلية الأولى المنتجة فيه، فتعاهدُها -حتى تبقى سليمةً منتجةً- يحتاج للرعاية القصوى والعناية الفائقة، لأنها نواة بناء المجتمع وسيشاد على منوالها؛ فأي عامل يؤثر عليها في دور نموها سيبقى تأثيره مستمرًا حال تكاثرها.

فالعائلة، هي العامل الأساس في سلامة المجتمع ورقيّه وحسن تربيته.

وإحساس الفرد بالرعاية والعناية ضمن الأسرة سيطبعه بهذا الطابع عندما يندمج ضمن المجتمع، وسيبقى إحساسه ملازمًا له في تعامله مع أفراد مجتمعه، ولا يشعر بتجدّد شيء يراه غريبًا عنه.

فالعناية الإسلامية بربّ الأسرة، وجعله ضامنًا لإعالة أفرادها، وَجَعْل المجتمع ضامنًا له ولأسرته؛ نحوٌ من تحضيرهم جميعًا لتحمّل مسؤولية روح التضامن والتكافل والرعاية: "فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[11].

فالعائلة جزء الرجل، والرجل جزء المجتمع. فربطه بجزئه ربط الجزء بالكل حيث لا انفكاك.

المسألة الثالثة: المقدار الذي يُعطى للفقير:

إن ما يسعى إليه الإسلام، هو إيصال جميع أفراده إلى مستوى الغنى، حتى يزيل ما تسببه الفوارق الطبقية من كوارث، وحتى تستقيم الفطرة وتحقق العدالة.

ولكنه يُبقي على المميزات الشخصية التي يتمتع بها بعض الأفراد والإمكانيات الخاصة التي مُنحوها، فمن زاده الله بسطة في الجسم والعقل ينمي الإسلام لديه هذه الإمكانات حتى يسخّرها لصالح مجتمعه ويُبقي له ما حققته مميزاته من فضل في الرزق والجاه ضمن إطاره العام.

والغنى، في مفهومه، هو مستوى المعيشة الذي يكون سائدًا في البلاد. والنصوص واضحة في هذا المعنى، وهذه بعضها:

النص الأول:

عن سعيد بن غزوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته كم يُعطى الرجل من الزكاة؟ قال: أعطه من الزكاة حتى تغنيه [12].

النص الثاني:

عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن موسى (عليه السلام): قال: قلت له: أُعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا؟ قال: نعم وزده. قلت: أعطيه مائة؟ قال: نعم، وأغنه إن قدرت أن تغنيه [13].

النص الثالث:

عن إسحاق بن عمار قال: قلت للإمام جعفر بن محمد (عليه السلام): أعطي الرجل من الزكاة مائة؟ قال: نعم! قلت مائتين؟ قال: نعم! قلت: ثلاثمائة؟ قال: نعم! قلت: أربعمائة؟ قال: نعم! قلت: خمسمائة؟ قال: نعم! حتى تغنيه [14].

النص الرابع:

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إن شيخًا من أصحابنا يقال له عمر، سأل عيسى بن أعين وهو محتاج، فقال له عيسى بن أعين: أما إن عندي من الزكاة، ولكن لا أعطيك منها، فقال له: وَلِمَ؟ فقال: لأني رأيتك اشتريت لحمًا وتمرًا. فقال: إنما ربحت درهمًا، فاشتريت بدانقين لحمًا، وبدانقين تمرًا ثم رجعت بدانقين

لحاجة. قال: فوضع أبو عبد الله (عليه السلام) يده على جبهته ساعة، ثم رفع رأسه ثم قال: إن الله تعالى، نظر في أموال الأغنياء، ثم نظر في الفقراء، فجعل في أموال الأغنياء ما يكتفون به، ولو لم يكفهم لزادهم، بلى فليعطه، ما يأكل ويشرب ويكتسي ويتزوج ويتصدق ويحج[15].

النص الخامس:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) سأله أبو بصير فقال: إن لنا صديقًا وله دار تسوى أربعة آلاف درهم، وله جارية، وله غلام يستقي على الجمل كل يوم ما بين الدرهمين إلى الأربعة سوى علف الجمل، وله عيال، أَلَهُ أَنْ يَأْخذَ مِنْ الزَّكَاة؟ قال: نعم! قال: وله هذه العروض؟ فقال: يا أبا محمد! فتأمرني أن آمره ببيع داره وهي عزّه ومسقط رأسه؟ أو ببيع خادمه الذي يقيه الحر والبرد ويصون وجهه ووجه عياله؟ أو آمره أن يبيع غلامه وجَمَله وهو معيشته وقوته؟ بل يأخذ الزكاة وهي له حلال، ولا يبيع داره ولا غلامه، ولا جمله[16].

النص السادس:

عن أبي الحسن (عليه السلام) سأله بشر بن بشار، قال: ما حدّ المؤمن الذي يُعطى الزكاة؟. قال: يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف. ثم قال: أو عشرة آلاف[17].

هذه بعض النصوص الكثيرة الواردة في تعيين المقدار الذي يُعطى للفقير، ومن دراستها جيدًا، تتضح الغاية من العطاء؛ وهي الغنى، بدون أن تحدد الكمية.

والغنى، مفهوم مرن، يتفاوت بين عصر وعصر، وزمان وآخر، خصوصًا إذا لاحظنا بعض النصوص التي لم نوردها، والقائلة بإعطاء الفقير حتى يلحق من يعول به بالناس؛ فإلحاقهم بالناس هو عيشهم بمستوى المعيشة السائدة في مجتمعهم.

فروح الزكاة الواقعية هي تأدية هذا المفهوم؛ والنهوض بأفراد المجتمع الضعفاء إلى مستوى رفيع، متناسب مع مستويات عامة الناس، وما الفريضة إلا لتحقيق هذا المطلب.

ونفهم ذلك بوضوح من حديث أبي عبد الله (عليه السلام): سأله رجل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعًا! فقال: [أما الظاهرة، ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك][18].

فروح الزكاة، هي ما تبطن من معانٍ يقصد تحقيقها، وهي القضاء على الطبقية والتفاوت بين أفراد المجتمع، فعدم استئثار الفرد على أخيه بما يكون أحوج إليه منه يشيع عدالة رفيعة المستوى، يندر تحقيقها إلا من خلال الإسلام النابع من الداخل؛ والذي يشعر الفرد معه بأن ما في يده يجب أن يسخّره لقضاء حاجة أخيه [لأن الأخوّة أرفع

شأنًا من المال وما جعل إلا صونًا لها]، ويشعر الآخر بأن ما في يد أخيه لقضاء حوائجه، فيكون أدعى في نفسه للحفاظ عليه، وحب ازدياده بين يديه.

ويتحقّق عندها التوازن في المجتمع، وإزالة الفوارق بين الأفراد، فالمال للجميع وبخدمة الجميع.

وما دون هذا المستوى يكون من ظاهر الزكاة -وليس من روحها- وهو ما يصل بالفقير إلى حد الغنى.

فالنصوص الأول والثاني والثالث تؤكد بأن العطاء حتى الغنى؛ باختلاف تعابير السؤال، ووحدة الغاية في الجواب.

فالنص الأول يقول: [أعطه من الزكاة حتى تغنيه]، وهو صريح في المطلوب مباشرة وذلك لأن السائل دخل إلى مطلبه مباشرة، عندما سأل: كم يُعطى الرجل من الزكاة؟.

أما النص الثاني؛ فكذلك صريح بالعطاء حتى الغنى، وفرقه عن الأول أن السائل أخذ يتدرج بالسؤال: [أعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا؟ مئة؟ إلخ...] والجواب بعد موافقة مقتضى السؤال: [أغنه!] وهي الغاية من العطاء.

ونفس الأمر في النص الثالث، مع اختلاف تدرج السائل المتكرر، فاختصر بالجواب الطريق التي ربما تطول، بعدما تكرر متدرجًا خمس مرات، بأن أعطه حتى تغنيه فليس هناك قدر معين يتوقف عنده العطاء، أو رقم محدد، وإنما هو مفهوم يختلف من ظرف لآخر، فعندما يتحقق المفهوم يتوقف العطاء.

أما النص الرابع، ففيه ثورة على المفاهيم المتحجرة التي استقاها بعضهم بطريقته الخاصة.

فهل كانت هذه الفريضة، تخصّ الأموات حتى تجهزهم لدار الآخرة؟ وما حاجة مشرِّعها لإنفاقها في الآخرة -دائرة اختصاصه سبحانه وحده-؟ وما حاجة المشرَّعة لهم، في مكان يتعذر على منفقها إيصالها لهم وانتفاعهم بها؟.

فمن أين تسربت مفاهيم حرمان من يشتري اللحم والتمر من الزكاة؟ وهل شرعت لشراء الأكفان، فلا يستحقها إلا من أصبح على حافة قبره؟ إنه فهم يستدعي الألم، والأسى، والتفكّر الطويل، وهو مداعاة لوضع اليد على الجبهة والحزن العميق، [فوضع أبو عبد الله (عليه السلام) يده على جبهته ساعة].

ثم يستدعي رفع الرأس: لإفهامها كلمة صريحة وواضحة لجميع الناس، إنها فريضة المواساة، إنعاش الفقير، رفع مستواه، كفايته، لا بل غناه، [فجعل في أموال الأغنياء ما يكتفون به]، [بلى فليعطه، ما يأكل ويشرب، ويكتسي ويتزوج، ويتصدق ويحج].

فالعطاء منها لا يتوقف عند أكل اللحم والتمر، بل يتجاوزه لكل ما لذ وطاب، من أكل وشراب، ويزيد عنه بالاكتساء والتزويج، وهذا ما يضمن كل متطلبات الفرد للحياة والاستقرار، لأنها شرّعت لإزالة الفوارق الطبقية، وإيجاد التوازن الاجتماعي، فلا تتوقّف عند هذا الحد، بل هي ثورة عارمة على الامتيازات والطبقية، وقوة ضاغطة في

اتجاهين متعاكسين للتقارب بين كل الفئات في المجتمع، فتفرض في أموال الأغنياء ما يرفع الفقراء إلى مرتبة الغنى.

فيُعطى الفقير منها [فوق الكفاية] ما يتصدّق به ويحجّ مما يجعله في صف الأغنياء المتصدقين.

وشتان ما بين مفهوم الحرمان، بسبب دانقين لشراء اللحم، وبين الأخذ منها، للحج والتصدق.

وسيزيد الفرق وضوحًا بخصوص هذه الناحية فيما تبقّى من النصوص. وخصوصًا النص السادس الصادر بنفس خصوصيات الزمان والمكان والذي يقول: [يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف ثم قال: أو عشرة آلاف].

فبين الحرمان بسبب درهم واحد يُشترى بثلثيه لحمًا وتمرًا، وبين إعطائه عشرة آلاف ضعف يبطل القياس، وتتعطل المفاهيم، ويُحتاج معه إلى وقفة تأمل وتدبر جديدتين لاستيعاب ما تعنيه هذه الفريضة على الصعيد العملي، وما ترمز إليه على الصعيد الروحي.

والنصّ الخامس يوضح الناحيتين العملية والروحية. ويعالج قضية واقعية:

رجل صديق:

- عنده دار تسوى أربعة آلاف درهم.

- وله جارية تسوى من المائتين إلى الألف درهم.

- له غلام عامل يسوى من المائتين فصاعدًا.

- له جمل يعمل عليه الغلام ويدر عليه يوميًا أربعة دراهم صافية - بعد مصاريف العمل - ويسوى الجمل من المائة درهم فصاعدًا.

- وله عيال.

- فهل يأخذ من الزكاة؟

فكان الجواب: نعم!

فكان تعجب السائل شديدًا! كيف يأخذ من الزكاة وله كل هذه العروض؟.

لنفهم أولاً ما هو مقدار مالية الرجل في هذه المسألة، لنعرف سبب تعجب السائل وروحية الزكاة من التحليل:

ففي السؤال يملك صديقه العروض المتقدمة، وهي تعادل تقريبًا بين الخمسة والستة آلاف درهم.

وبمعدل عملتنا المتعارفة هذه الأيام تكون ملكية الشخص ستمائة نعجة، لأن ثمن النعجة عشرة دراهم حسب النص الآتي:

عن أبي جعفر (عليه السلام) -في حديث زكاة الإبل- قال: وكل من وجبت عليه جذعة ولم تكن عنده، وكانت عنده حقّة دفعها، ودفع معها شاتين أو عشرين درهمًا (...) ومن وجبت عليه ابنة لبون ولم تكن عنده وكانت عنده حقّة دفعها، وأعطاه المصدّق شاتين بعشرين درهمًا[19].

فنجد أن الشاتين بعشرين درهمًا أخذًا أو عطاءً.

وستمائة شاة تعادل في زماننا مستوى جيدًا في أي نوع من العملات قدّرناها، فلذلك استدعى الاستهجان من السائل لأنها عروض كثيرة فكيف يأخذ بعدها من الزكاة؟

أضف إلى ذلك بأن رؤية الناس بأن مشتري اللحم بدانقين -أي ثلث درهم- لا يستحق الزكاة، فكيف من يملك مئات بل آلاف الأضعاف من أمثاله؟

2- الفهم الشرعي لمهمة الزكاة

يختلف الفهم الشرعي لمهمة الزكاة عن فهم المتشرّعة: فهي في اعتبار الشارع تقوم بأداء دور المساواة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وجعل البشر طبقة واحدة في مستوى المعيشة، لا يفضل أحدهم على الآخر إلا بالمميزات الشخصية، الموهوبة له تكوينيًا لا تشريعيًا، بما يعقبها من فضل بالرزق.

أما روح الزكاة، فهي الفريضة التي يُجبر على تأديتها المستخلف، عند تخلفه عن تأدية مهمة الاستخلاف، وتحقيق غايتها [وهي عدم الاستئثار على الأخ بما هو أحوج إليه]، فتقوم الفريضة بتأدية هذا الدور في الحدود الممكنة، لأن المال مال الله جعل خواتيمه في الأرض لصالح عباده، فلا فضل لمجتنيه إلا فضل الوسيط في إيصال ما اؤتمن عليه.

[فالزكاة هي مال الفقير يتصرف بها كيف يشاء في طريق الغنى والتوسعة على نفسه بدون معارض أو منتقد].

عن سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إذا أخذ الرجل الزكاة فهي كماله يصنع بها ما يشاء (...) فقلت: يتزوج بها ويحج منها؟ فقال: نعم. هي ماله. قلت: فهل يؤجر الفقير إذا حج من الزكاة، كما يؤجر الغني صاحب المال؟ قال: نعم[20].

فالمهمة الواقعية، والروح الحقيقية للزكاة، هي إزالة الطبقية والإثرة المالية، من المجتمع والنهوض بالفقير إلى أعلى المستويات المعيشية ليتصرف عن غنى، بالتزوج والحج والتصدق وكل المميزات التي يتمتع بها أثرياء المجتمع وله نفس أجرهم فيما يعطي ويهب.

ومن هذه الناحية رأينا أن جواب الإمام كان على المسائل الثلاث الأُوَل، بنعم. وأردفها (عليه السلام) بـ"أغْنِهِ" أو "حتى تغنيه"، واستنكر على من استعظم إعطاء الزكاة (لمن يملك دارًا وجارية وغلامًا وجملاً) في النص الخامس عندما قال السائل "وله هذه العروض" استهجانًا لإعطائه؟.

فأجابه الإمام بأعظم من استهجانه وبأشد ما يكون بقوله: "يا أبا محمد! فتأمرني".

بالغًا بإجابته ذروة الأدب والكمال -في تكنيته- وغاية الاستهجان في استنكاره لمقولته: بقوله "فتأمرني" وموضحًا له بُعيد ذلك حكمة وعلة إنكاره عليه ما صدر عنه، ومفهمًا إياه كنه الزكاة وعلة التشريع.

فتفسير قولك: "وله هذه العروض" بأنه ينبغي له أن يستغني عنها أو بعضها ويعتاش بأثمانها، فعماذا يستغني؟ "فتأمرني أن آمره ببيع داره؟" وهي عزّه ومسقط رأسه ولله العزّة وللمؤمنين. وقد مرّ معنا: من أذلّ لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة.

والزكاة ليست لإنقاذ الإنسان من الموت إنما هي النماء، والنماء والتنمية: الانتقال دائمًا إلى الأحسن والأفضل. فأين هذا من بيع داره؟!.

أم يستغني عن خادمه؟ فآمره ببيعه! وهذا يقوم بشؤونه، ويصون وجهه، ويحفظ عياله، ويقيه الحر والبرد. فهل من الإحسان إليه ونماء حاله تجريده منه حتى يعتاش ويتدنّى مستواه وتزيد الفوارق وتتوسع الطبقية وتتفاوت المستويات في المجتمع؟

أم آمره ببيع غلامه وجمله، وأطلب إليه الاستغناء عنهما، وفيهما معيشته وقُوْتُه اليومي. فإذا فقدهما جلس يتكفّف الناس، وهبطنا بمستواه إلى الصفر، وجعلناه كَلاًّ على المجتمع الذي نريد إنعاشه وإزالة جميع الظواهر المرضية من صفوفه.

والزكاة مسخرة في هذا الاتجاه، ومفروضة لإيجاد هذا المناخ في حياة البشر، ولرفع مستوى المعيشة إلى أسمى المراتب، فيأخذ منها، وهي له حلال، ولا يبيع شيئًا من عروضه.

بل حقيقتها، أكبر مما في أفكار المتشرّعة بكثير، كما جاء في النص السادس: قال (عليه السلام): "يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف أو عشرة آلاف".

فالإعطاء غير المحدود والمردّد بين الثلاثة آلاف وأكثر من ثلاثة أضعافها -دفعة واحدة-، وخصوصًا مع مقارنتها بأسئلة المتشرعة "أعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا" وهو يستكثرها، والآخر يستكثر عليه بثلث درهم لحمًا. ويقفز الرقم فجأة إلى عشرة آلاف ضعف عما في أذهانهم ولا يتوقف عندها، مما يدل على الروحية التي أعدت الزكاة لإنمائها، والمستوى الذي يراد من تداولها تحقيقه.

والرقم قد يقفز فجأة إلى ثلاثة أضعافه مرة أخرى وأخرى حسبما يكون مستوى المعيشة والأشخاص. فتركه حرًا، وارتفاعه دفعة بهذه المضاعفة، دليل على مرونته لاستيعاب كل الحالات مهما كانت مستعصية.

ولو وقفنا عنده في زمن صدوره لهالنا ما يشتمل عليه، فعشرة آلاف درهم عبارة عن ألف نعجة، تُعطى دفعة واحدة لشخص واحد ولمدة سنة. فماذا تعني؟ تعني: غنى الدهر. الذي يريده الإسلام أن يسود مجتمعه.

فنماؤها هي الزكاة الحقيقية والتي تفي بحاجيات متلقيها، وهي الزكاة الواقعية، والمفهوم الحقيقي لمعناها -أي النمو- وهكذا ينمو المجتمع الإسلامي في مستوى من الرفاهية والغنى، والتكافل والتضامن.

(تعليق)

سمعت مساء اليوم الخميس 20 آب 1981 توجيهًا من السلطات المغربية إلى الشعب المغربي بتوفير استهلاك اللحوم في عيد الأضحى المبارك القادم، حيث يضحي الشعب المغربي بما يزيد على ثلاثة ملايين رأس غنم تبلغ قيمتها ثلاثمائة مليون دولارٍ أميركي.

وذلك بسبب الجفاف الذي أصاب المغرب هذه السّنَة وأنقص الثروة الحيوانية مما سيضطر السلطات -إذا مارس الشعب عادته بالأضحية كالسابق- إلى استيراد اللحوم من الخارج لانتهاء السنة الحالية.

وهذا يعطي فكرة عن الممارسات الإسلامية لو طبقت كما أراد لها الشارع بوجهتها الصحيحة، فإن مبلغ ثلاثمائة مليون دولار، تنفق في يوم واحد على الأضحية المستحبة ولإطعام الفقير بالخصوص، لو أنفقت في سبيله لإيجاد مورد ثابت له لكان نتاجها يرفع الفقير إلى مستوى الأغنياء، ولحلّ أزمة كبيرة مما يعانيه الفقراء من حرمان وتشرّد.

3- إصلاح مفاهيم خاطئة عن الزكاة

من مجموع النصوص المتقدمة (وما لم نذكره) عن الزكاة قد يستفاد أن الفهم العرفي عنها، هو رفع الحاجة الملحّة عن الفقير، وبعبارة أخرى هو إنقاذه من الموت فقط.

وهذا ينافي مفهومها الحقيقي، وما تضمنته النصوص عنها، فإن لفظها معناه النماء، فأين التنمية من إنقاذ الإنسان من الموت؟

ولعل ذلك تأتّى من دعوة الشريعة للزهد في الدنيا، فطبّقت الأمور في غير مواردها، وأعطيت عكس مفاهيمها.

فالزهد في الدنيا، أن لا تملكك وتصبح أسيراً لديها، وليس الزهد أن لا تملك الدنيا.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}[21] فزينة الله أخرجها لعبادة ليتزينوا بها لا ليُحرَموها.

والطيبات من الرزق، أخرجها لهم ليأكلوها، ويستمتعوا بها، لا ليخلفوها. فزينة الله والطيبات من الرزق، خالصة للذين آمنوا في الدنيا، لأنهم أحقّ بها، فإذا حرموها بمنع مانع أو تعدي متعدٍ، بعدم تأديتها، فهي خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم بها غيرهم.

فليس من شأن الله، أن يحرم عباده المؤمنين خير ما أخرج لهم من زينة وطيبات، فهو سبحانه سخّرها لهم امتحانًا ليضعوها مواضعها، ويصرفوها في مصارفها، فمن تعدى حدود الله كان هلاكه عن بينة.

فالدنيا إذا أقبلت، كان أحقّ الناس بها أخيارها لا فجارها، لأنهم يقيمون وجوههم للدين حنيفًا، ويحقّقون الفطرة.

نعم ربما -أو كثيراً- ما يبتلي الله المؤمن بالفقر، ليمتحن صبره ويجزيه عليه، ولكن الفقر ليس من صفات المؤمن الملازمة له، فهو أعزّ وأكرم على الله من ذلك، ويظهر فضله وكرامته بصبره على امتحان من يحب، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه.

وقد يحلو لدعاة التحلل، أن يصوّروا الفقر ملازمًا للإيمان، ليبعدوا ضعفاء الفكر عنه.

وبإعطائنا نظرة عن ملك سليمان بن داود (عليه السلام)، يظهر لنا ما للمؤمنين عند ربهم في الدنيا والآخرة.

فأول الأشياء التي كان يتمتع بها سليمان (عليه السلام)، الإيمان القوي والعلم الذي فاق إيمان وعلم كثير من المؤمنين: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }**[22].

وثانيها: هداية العلم له ليؤوب إلى ربه ويعود إليه في كل حالاته: **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[23].

خصوصًا في حالات السعادة والخير، التي ينسى الناس بها ربهم، بينما هو يعود إليه، ليطلب منه المزيد، ويؤدي شكر الموجود. فيقول: **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}**[24].

فيستجيب له ربه لقدرته على كل شيء.

وثالثها: جريان الريح بأمره في كل حالاتها فلا فرق عنده في إنجاز مهمته بين حسن الأحوال الجوية ورداءتها، فالريح العاصفة بأمره والرخوة رهن إشارته: **{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ}**[25]؛ **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ}**[26]؛ **{غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}**[27].

ففي كل يوم يقطع بها مسافة شهرين من المسير.

ورابعها: كان يتميّز ويتمتع بما سخّر الله له: **{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}**[28].

فكل أنواع الشياطين، تعمل تحت إمرته على اختلاف اختصاصاتهم ومهاراتهم، مما يعجز عنه البشر، فمنهم البنّاؤون الذي يجيدون فن الهندسة والعمران، ومنهم الغواصون الذين يستخرجون اللآلىء والحلي والكنوز، -وأفضل ما يتزيّن به الإنسان في بنائه وصدره-، ومنهم مقرنون بالأصفاد يعملون الأعمال الشاقة ويؤدون المهمات الصعبة.

وخامسها: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ}**[29] فمنطق الطير كان يعرفه، وكانت الطيور بإمرته، تكتشف له ما يطلبه منها، لأن لها خبرات لم تكن لغيرها، فكانت تضعها تحت تصرفه، فكان يصرفها متى يريد ويجمعها متى شاء.

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ}[30].

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[31].

فمنَّ واختار أفضل الخيارين، ففاز بأبقى الدارين.

{وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[32].

لقد وصل سليمان عليه أفضل الصلاة والسلام، إلى منيته، وبلغ غايته فيما دعا به ربه، من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم نعلم منذ يومه بل منذ خلق البشرية وحتى يومنا هذا، أحداً تمكن من بلوغ ملكه. ومعه بلغ أعلى المراتب في القرب من الله، والتنعم بالآخرة، وتميّز بالإيمان في الدنيا.

فظهر أن الإيمان يجتمع مع الغنى. فملك نصاب من كل صنف من أصناف الزكاة لا يخرج المالك عن الفقر بالمفهوم الإسلامي، طالما أنه لم يتوصل إلى حد الكفاية، لأنها الحد الفاصل بين الفقر والغنى، أي بين الاستحقاق للزكاة وعدمه. وإن كان المفهوم العرفي أو مفهوم المتشرعة يختلف عن ذلك.

([1]) التوبة 60.

النيّة*

السيد علي السيد حسين مكي

النيّة في اللغة: القصد والعزم. يقال "نوى السفر" أي قصد السفر وعزم عليه.

والنيّة بالنسبة للعمل جوهره وأساسه، إذ بدونها لا يتحقق العمل ولا يتعيّن الهدف. ولذلك قيل: إنه من الصعب أن يكون عمل بلا نيّة، وإلا كان حاله حال الساهي والنائم.

والنيّة مما يستقل العقل بها وبضرورتها في كل الأعمال، لأن الإنسان ذو هدف وغاية.

والنيّة في العبادة أمر لازم وواجب، وهو الذي عليه الفقهاء عامة، وإلا فسدت العبادة، بمعنى أن النية في العبادة جزء من العمل، وهي توجب سقوط التكليف، ويخرج المكلف بها عن عهدته.

وقد حُدّد معنى النية شرعًا: أن يقصد المكلف الإتيان بالعمل امتثالاً لأمره تعالى.

ويدل على ذلك الإجماع المُحَصَّل والمنقول[34]، وحكمُ العقل بضرورتها. وأما الأدلة اللفظية من الآيات الكريمة والأخبار الشريفة، فدلالتها على ذلك محل كلام ومناقشات طويلة، ومحل البحث في هذا الموضوع "الفقه" و"الأصول"، فراجع ذلك في مبحث "التعبدي والتوصلي" في الأصول، وفي مبحث "النية في الوضوء" في الفقه.

النية جوهر الأعمال

والنية مقامها عظيم، وأثرها كبير، فهي روح العمل وثمرته، إذ هي التي تُبلور العمل وتظهره على حقيقته من حيث كونه عَمَلَ خيرٍ أو عمَلَ شرٍّ، ومن حيث كونه ذا هدف أو بلا هدف.

وقد أشارت لهذا الأمر الأخبار الشريفة:

ورد عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليه السلام)، قال: [لا عمل إلا بنية][35].

وورد في الحديث: قال أبو عبد الله (عليه السلام): [إنما خُلّد أهل النار في النار، لأن نياتهم كانت في الدنيا أنْ لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبدًا، وإنما خلّد أهل الجنة في الجنة لأنَّ نياتهم كانت في الدنيا أنْ لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدًا. فبالنيات خلّد هؤلاء وهؤلاء. ثم تلا قوله تعالى: **{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}**[36]][37].

وبالنية يستحق الإنسان الثواب والعقاب، ويفوز بالسعادة الأبدية أو الشقاء الأبدي، ويحصل له الخير الواسع أو الشرّ الجامع.

ورد في الحديث عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام)، قال:

[إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه، فيكون هو الذي يلي حسابه، فيُعْرَض عليه عمله، فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته، فيتغير لذلك لونه، وترتعش فرائصه، وتفزع نفسه. ثم يرى حسناته فتقرّ عينه وتسرّ نفسه، وتفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه. ثم يقول الله للملائكة: هلمّوا الصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها. قال: فيقرؤونها فيقولون: وعزتك، إنك لتعلم أنا لم نعمل منها شيئًا، فيقول: صدقتم، نويتموها فكتبناها لكم، ثم يثابون عليها][38].

وفي حديث آخر، أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما خرج إلى غزوة تبوك قال:

[إن بالمدينة أقوامًا، ما قطعنا واديًا، ولا وطأنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ فقال (صلى الله عليه وآله): حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية][39].

وأيضًا ورد في الحديث عن موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام):

[أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أغزى عليًا في سرية، وأمر المسلمين أن ينتدبوا معه في سريته، فقال رجل من الأنصار لأخٍ له: أُغزُ بنا في سرية عليٍّ، لعلنا نصيب خادمًا أو دابة أو شيئًا نتبلّغ به. فبلغ النبي (صلى الله عليه وآله) قوله، فقال: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله عز وجل فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى][40].

والروايات بهذا المضمون متعددة.

وحيث اتضح أنه لا بدّ من النية، وأنها جوهر الأعمال، كان لا بدّ أن تكون النية والمقصد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه منتهى الغايات والآمال، والمقصد التام.

كما ورد على لسان سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال:

[ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك][41].

وكذلك ما ورد عن سيد الساجدين وزين العابدين، الإمام علي بن الحسين (صلى الله عليه وآله)، قال: [إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه، فأكون كالعبد الطّمع المطمع، إن طمع عَمِلَ، وإلا لم يعمل، وأكره أن لا أعبده إلا لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء، إن لم يخف لم يعمل. قيل: فَلِمَ تعبُدُه؟ قال: لما هو أهله، بأياديه عليّ وإنعامه][42].

وحصر النية بهذا الشكل -بأن يكون الله وحده في القلب والخاطر- يجعل الإنسان في مقام الطاعة المطلقة والعبودية المطلقة والمعرفة التامة، وبهذا يمتاز العبد في رحلته إلى الله عز وجل، فإن الشعور والإحساس بالعبودية لله سبحانه علامة التكامل في الإنسانية.

العبادة بقصد الثواب أو خوف العقاب

الناس في عبادتهم لله على ثلاثة أصناف، كما أشار الإمام الصادق (عليه السلام) لذلك، قال (عليه السلام): [إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحُرَصاء، وهو الطمع. وآخرون يعبدونه فَرَقًا من النار، فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكني أعبده حبًا له عز وجل، فتلك عبادة الكرام، وهو

الأمن، لقوله عز وجل **{وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}**[43]، ولقوله **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}**[44][45].

فالقسم الثالث هو أرقى أنواع العبادة، وإن كانت الأقسام الأخرى ترتقي بالإنسان إلى مقام الطاعة والانقياد، وإلى القرب من الله سبحانه.

إن الإنسان في مسيرته الأخلاقية والعرفانية يمكن أن يسير إلى أبعد من آفاقه وحدوده، لأن الله سبحانه وتعالى جعل فيه القوى المتعددة والإمكانات الكثيرة التي يصل بها إلى آفاق المعرفة والكمال.

إن المطلوب من الإنسان أن يتحرك نحو المعرفة ويسير بكمالاتها ليتمكن من خدمة الله سبحانه ويوفّق إليها، فيكون مهيّئًا دائمًا وأبدًا لدعوة الحق واستجابة الدعوة.

إن العيش في كنف الله وخدمة الله هو غاية ما يتأمله الإنسان ويتوقّعه -إنْ وفّق لذلك-، فهو غاية الغايات. ومعنى هذا هو أن لا يرى في الوجود شيئًا سوى الله سبحانه وتعالى، وعلى أساسه تتمحض علاقته بالله وتقوى وتتفرّد.

وأهم أنواع هذه الخدمة والعلاقة هو [العبادة]. والعبادة أنواع متعددة، فالصلاة عبادة، والذكر عبادة، والتفكّر عبادة، وقراءة القرآن عبادة، والتسبيح والتهليل والصلاة على النبي وآله عبادة.

والمهم في كل هذا أن يستشعر العبد المؤمن أن وجوده لم يكن عبثًا، وإنما كما قال الله سبحانه وتعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}**[46].

وهذه العبادة يمكن أن تكون في كل شأن من شؤون الإنسان، وفي كل حركة وسكنة يمكنه من خلالها أن يتقرّب إلى الله سبحانه ويكون متوجهًا إليه سبحانه وتعالى ويكون في خدمته دائمًا وأبدًا.

وقد يُسأل: إن العبد إذا عبد ربه خوفًا من ناره أو طمعًا في جنته هل يمكن أن يحصل على الثواب الذي أعده الله للعابدين والمتقربين أم لا؟

والجواب: أن هذا "القصد" إذا كان هو الدافع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله هو الربّ الذي يُعبَد فلا يُخِلُّ هذا القصد بالإيمان، وإن كان لا يصل به إلى مرتبة الأوصياء والأولياء الخلّص، لأن مرتبة أولئك إنما هي لتمحُّضهم لله وانقطاعهم الكلي إليه سبحانه بحيث لا يوجد إلا الله في عقولهم ونفوسهم وقلوبهم. أما نحن فمرتبتنا دون ذلك بكثير، ولذلك فثوابنا على مقدار توجّهنا وانقطاعنا إلى الله سبحانه.

ويؤكّد هذا ما ورد في الصلاة من أن الثواب في الصلاة يكون على مقدار التوجّه بها والانقطاع بها إلى الله، وإلا فقد تُلفّ الصلاة كما يلفّ الثوب ويُضرب بها وجه المصلي، لأن قلبه منشغل بأمور أخرى[47]. نعم يسقط بها التكليف أي لا تجب إعادتها، لأن الثواب شيء متعلق بالتوجه والانقطاع بها إلى الله، والتكليف متعلق بالأداء، فإذا أدّاها

وقلبه مشغول يسقط بها التكليف فقط، اللهم إلا أن يكون انشغال المصلي في أثناء صلاته بحيث لا يَعْرِفُ أولها من آخرها وكيف هي، فهذه تكون باطلة!

فحالنا غير حال الأوصياء والأولياء، إنهم دائمًا في خدمة الله، وإذا انقطعوا بشرب الماء مثلاً عن خدمة الله عَدُّوا ذلك ذنبًا واستغفروا منه، وعلى هذا المعنى يُحمل ما ورد في دعاء كميل الذي علّمه أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد: **(اللهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوْبَ الَّتِي تَهْتِكُ العِصَمَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوْبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ.. إلخ)**. وإلا كيف يصح القول بالعصمة مع أنه يفعل الذنوب؟!

ومن هنا نقول للبعض الذي فسّر دعاء كميل بقوله: "ألا تشعر: أن عليا (ع) لا يزال خائفا، ولا سيما أن الذنوب والخطايا التي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفرها له، هي من الذنوب الكبيرة التي يكفي ذنب واحد لينقصم الظهر منها": يا ويلك من هذا القول، وساعد الله الإمام من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين لا يفهمون واقع العصمة ولا الإمامة، وهل من المعقول القول بالعصمة للإمام ثم القول بأنه يفعل الذنوب؟!

والتوجيه الصحيح ما ذكرناه: من أنهم (عليهم السلام) لما كانوا دائمًا وأبدًا في خدمة الله، فإنهم يعتبرون انشغالهم بمثل الأكل والشرب من المباحات ذنبًا، لانقطاعهم في هذه اللحظات عن خدمة الله.

كما نقول للأشخاص الذين لم يفهموا ولم يعرفوا مقام علي (عليه السلام) ومكانته عند الله وعند رسوله (صلى الله عليه وآله): إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) لم يجعله الله سبحانه وتعالى نفسَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث قال جلّ وعلا: **{فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**[48]، إلا لأن عليًا (عليه السلام) بلغ المنزلة الرفيعة في كل الأمور، وأعطاه الله كل ما للنبي (صلى الله عليه وآله) ما عدا النبوة، كما قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله):

>يا علي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي<[49].

فأنّى لهؤلاء وغيرهم أن يفهموا عليًا (عليه السلام)؟![50].

وأعود للقول: بأن العبادة لله هي الانقطاع الكامل لله سبحانه، والتوجه إليه توجّهًا ينفي من قلبه كل العلائق والأفكار المنافية، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن ينفي كل شيء فإن في المحاولة إلى أن يكون كذلك موجبًا للارتقاء إلى مراتب الكرامة والوصول إلى خدمة الله بما يليق بشأنه ومقامه.

ومن هنا كانت مراتب الأولياء والعُبّاد تختلف باختلاف السلوك والمجاهدات، فإن المجاهدة للنفس تعني ترويضها على الالتزام بالطاعة وعلى الابتعاد عن الأهواء والشهوات على اختلاف أنواعها. لأن النفس عندما يطلق لها العنان في أهوائها وميولها ونوازعها تبتعد عن الحق وعن الواقع وتتكاسل في الطاعة والالتزام الذي يرتقي بها إلى

الكمال والفضائل. لأن الكمالات أشبه ما تكون بالقيود والحواجز التي تقيّد النفس وتحجزها عن الانطلاق في مجالاتها التي كلُّها لهو وعبث وغفلة، ولذلك تصاب بالضيق والحزن إذا ابتعدت عما تميل إليه في سبيل كمالها ورقيّها وصفائها.

إن الكمال الإنساني وإن كانت له مقومات عديدة، من العقل، والعقلانيات، والمعرفة، والعلم، والالتزام بالأحكام والأخلاق والآداب، والعمل الدائم الدائب في مختلف الشؤون التي يتوصل بها الإنسان إلى سدّ الفراغ الذي يؤثّر عليه، إلا أن الواقع أن "الكمال" هدف أساسي ينبغي أن يُطلب ويُرتقى به إلى الإنسانية الحقة التي هي الغاية، وما فوقها غاية.

فمجاهدة الأولياء لأنفسهم ليست عن الأكل والشرب فقط، وإنما مجاهداتهم ترتقي إلى تكميل أنفسهم وتسخيرها دائمًا وأبدًا في خدمة الله سبحانه، فيبعدونها عن الأهواء؛ أما المحرمات فلا يقربونها أبدًا، وأما الأهواء المحلَّلة فهذه أيضًا لا يتوسلون إليها إلا بالمقدار الذي يتوجب عليهم مراعاته لأنفسهم أو لغيرهم -وإن كانت عبادة وطاعة من جهة أخرى كما لا يخفى-، وما تبقّى فهم دائمًا في خدمة الله سبحانه بشكل مطلق.

فالمجاهدة عندهم: هي الارتقاء في تهذيب النفس وتكميلها والسير بها إلى آفاق الكرامة والعزّة التي تجعلهم دائمًا في قرب من الله سبحانه وتجعلهم دائمًا وأبدًا يستشعرون العبودية المطلقة لله. فإن أول الواجبات والأساس في عملية تقويم [النفس] وتهذيبها وإن كان هو أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات.. إلا أن الارتقاء بها في مراتب الكمال يحتاج إلى ترويض عال للنفس، لا بترك المحرم وفعل الواجب فحسب، بل بمحاربة الهوى والإعراض عما يجعل نفسه أسيرةَ الرغبة وحبيسةَ الشهوة وقرينةَ الهوى، اللهم إلا ما يوصل إلى الله سبحانه من طرق الطاعات والمستحبات، وبذلك يكبح جماح "النفس" من أن تنخرط في عالم الأهواء والرغبات والشهوات.

إن هذه المعاني حين تملأ آفاق النفس والعقل والروح، يشعر المرء بأنه قد تجرّد عن عوالم المادة، وسار في طريق الهدى والإيمان بنحو لا يرى غير الله سبحانه.

هذا المعنى ليس بالأمر السهل، ولكنه ليس من المستحيلات في عالم الإنسان.

فالحاصل: أنه بعد مرحلة العبادة، تأتي مرحلة ترويض النفس وتأديبها، وذلك يكون -كما أشرنا إليه- بجعل النفس مبتعدةً عن الأهواء والشهوات والميول التي تشغلها عن التوجّه إلى الله وذكره، ومنصرفةً إلى الطاعات وموجبات الخير والرحمة والأنس بالله سبحانه وبما عنده وبما يوجب القرب منه تعالى: من الدعاء، والذكر، والمناجاة، والاستغفار، والتسبيح، والتهليل، والتعظيم، وقراءة القرآن، والابتهال إليه، والتفرّغ لخدمته، والعيش في آفاق رحمته وإحسانه وعفوه وخدمته.

إن مجاهدة النفس عمليّة شاقّة، لأن النفس كلما منعتَها عن هواها وعن رغباتها تزداد تعلّقًا بما تهوى، وتزداد تعنتًا نحو ما تريده، بل قد توجد لها الأعذار والموجبات بترك ما ينفعها وما يصل بها إلى دار الكرامة والرضا والقبول من الله سبحانه.

إن كمال النية إنما يكون بإزاحة العلل والموجبات التي تؤثر فيها من الأهواء والشهوات والرغبات غير الراجحة، أو التي تزيد في التعلق بالأهواء وتوجب الانصراف عن الحق وخدمته وعن التوجه إلى الله سبحانه.

وقد ورد في دعاء كميل: [واجعلني من أوفر عبادك نصيبًا عندك]، أي أكثرهم.

فعلى الإنسان أن يكون دائمًا صحيح النية سليمها، يهذبها بالصفاء والنقاء وبالطاعات والمستحبات ودوام الذكر، والاستمرار على أن يكون دائمًا في خدمة الله سبحانه، ومتنبهًا لما يُخشى من تأثيرها على مسيرته الحقّة من المحرمات والشبهات، وما يحيط بالإنسان من عوامل داخليّة تنبع من داخل نفسه، وخارجيّة مما يراه ويشاهده من الأعمال غير اللائقة بالإنسان.

محوريَّةُ الزهراء (ع) في قانون السماء

الشيخ أحمد الدر

ثلّةٌ قليلةٌ هم الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم على الخلق أجمعين، ليكونوا محورًا في دستوره السماوي، وقطبًا تدور عليه رحى المعارف والطاعات، والمصالح والغايات، فوهب لكلٍ صلاحيَّاتٍ واختصّه بقُدُراتٍ، بحسب رتبتِهِ التي رتَّبه الله فيها.

ومعرفة محوريَّة هؤلاء، ثم ترتيبهم بحسب مراتبهم الواقعية، لا سبيل إليها إلا عن طريق لسان الوحي، سواءٌ أكان نصًّا قرآنيًّا أم حديثًا معصوميًّا، لأنَّ المقامات الجعلية تابعةٌ لجاعلها، وحيث إنَّ الجاعل هو الله تعالى، فهو -ومن ينطق عنه- المرجعُ في هذا الباب.

ولو تتبَّعنا النُّصوص القرآنية والروائية، بُغية التعرُّف على الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا أدلاَّء عليه، ووجوهًا يُتوجَّه بها إليه، فسنجدُ أن المتربِّع على قمَّة ذلك العالم هو النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وعلى ذلك إجماع عقلاء المسلمين[51] على اختلافِ مذاهبهم وتباينِ اعتقاداتهم.

ثم يتلوه في الرتبة من نصَّ القرآن على كونه نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ووليّ الذين آمنوا، والمطاع بعد طاعة الله بطاعة رسوله (صلى الله عليه وآله)؛ الذي زيَّنته يد السماء بأبهى حُلَل المجد والثناء، وتوَّجته بتاج الخلافة الإلهية فكان خاتم الأوصياء، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ويتلوه في الرتبة والمحورية الحوراء الأنسيّة، التي سادت نساء العالمين، بل كلّ العالمين بعد أبيها وبعلها صلوات الله عليهم أجمعين، فاحتارت الألباب في فهم معناها، وانقطعت الأسباب دون علاها، وخرَّ العقلُ معترفًا بقصور إدراكه عندما تلا لسان الوحي: [إن الله يرضى لرضاها][52].

وفيه قلتُ:

قِيلَ امْدَحِ الزَّهرَاءَ قُلتُ: كَفَاهَا	فَضْلاً بِأنَّ رِضى الإلهِ رِضَاها
قِدِّيسةٌ قدْ حَارَ في أوصَافِها	أهلُ العَوالِمِ أرضِها وسَماها
سَجَدَ الزَّمانُ عَلى تُرابِ نِعالِها	لِينَالَ فخرَ تَعَفُّرٍ بِثراهَا
هيَ سِرُّ سِرِّ النُّورِ نُورِ محمَّدٍ	هيَ غيبُ علِمِ الغَيبِ دَعْ معناهَا
فُطِمَ الخلائِقُ عَنْ تلمُّسِ ذاتِها	ولِذا الإلهُ بِفاطِمٍ سمَّاها[53]

وهنا نلوي العنان ونحط الرحال، لكون الغاية من هذا البحث هي محورية الزهراء (عليها السلام) في قانون السماء.

اهتمام السماء بالزهراء (عليها السلام)

أولت العنايةُ الإلهية اهتمامًا بالغًا -لا أقول قلَّ نظيره بل انقطع نظيره- بتكوين الزهراء (عليها السلام) ونشأتها ورعايتها منذ الولادة إلى الشهادة بل إلى ما بعد الشهادة.

ولا مجال الآن لرسم المخطط الكامل لتلك العناية بتفاصيله بل ولا على نحو الإجمال، ولكن نكتفي بذكر نماذج يثبت بها العنوان، وتبرِّد غلَّة الظمآن.

عالم الأنوار: أولُ وجودٍ لسيدة النساء (عليها السلام) كان عالم الأنوار، وبلغ من اهتمام السماء بها، ورعايتها لها، أن كان نورُها النورَ الثالث في أول عوالم الخلق، عالم الأنوار، مشتقًّا من نور محمَّد وعلي (صلى الله عليهما وآلهما)[54].

عالم الدنيا: خلافًا لكل القوانين السابقة على ولادتها، بل والتالية لها، تمّت عمليَّةُ نقلِ نطفتها الطاهرة!!

فبدل أن تتنقل في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة إلى أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، تدخَّلت العناية الإلهية، فقنَّنت قانونًا لا ينطبق على أحدٍ غيرها من النِّساء، ميَّزها عن كل أنثى بلا استثناء، إذ كان انتقالُ نطفتها من الملكوت الأعلى إلى صلب من دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، حالُها نظيرُ حالِ بقيَّة المعصومين الأربعةَ عشر، ولذلك سُمِّيَت بالحوراء الإنسيَّة.

فلقد كثرت الروايات عن النبي وآله (صلى الله عليه وآله) في حديثه عن رحلة معراجه أنه أكل ثمرةً مخصوصةً من ثِمارِ الجنة، فتحوّلت نطفةً في صلبه، وكانت فاطمة (عليها السلام)[55].

زواجها: في عقدِ قرانها كان لله تعالى شأنٌ لم يُعرف قبلها ولا بعدها لأحد أبدًا، إذ تولَّى الله تعالى تزويجها لأمير المؤمنين عليٍّ (عليهما السلام) في الجنة، بحضور سكّان ملكوته، ثم أمر نبيَّه محمَّدًا (صلى الله عليه وآله) أنْ يُجريَ العقد على الأرض، فكان زواجًا لم يُسبق ولم يُلحق، وفي طيّاته انطوت أسرار تحار بها الأفهام والأفكار.

وفي ذلك قلتُ مخاطبًا أميرَ المؤمنين (عليه السلام):

وَيَا كُفْأَ البَتُولِ وَذَاكَ شَأنٌ	لِغيرِكُما مَحَالٌ أن يُوفَّى
سَيحْسِبُ جَاهِلٌ أنِّي مُغَالٍ	إذا أبدَيتُهُ فَالكَفُّ أكْفَى [56]

الذريَّة: هنا يُعذرُ إنْ لَكِنَ اللسان، وقصُر البيان، ولا يسعني سوى القولُ أنها (عليها السلام) أنجبت خيرَ من خلقَ الله تعالى، وصفوةَ من أوجد، لولا جدُّهم وأبوهم وأمُّهم، أحدَ عشرَ إمامًا، بهم عُرف الله، وعليهم دارت رحى رضاه، وإليهم يتوجُه من ابتغى لقاه، وعنهم يصدر هديُهُ وهُداه، صلوات الله عليهم أجمعين.

المهمة الأخيرة: ما كانت العناية الإلهية -التي رافقت سيِّدة النساء (عليها السلام) في كل أدوار وجودها- لتتخلى عنها في الفصل الأخير من قصة حياتها، بل أولَتها أعلى مستويات الرعاية والعناية، فكانت مهمَّتها الأخيرة تقديم كلِّ كيانها قربانًا لله، لتمضي شهيدةَ الوفاء لخط النبوة، والفداء لنهج الإمامة، فأسدت للدين والمتديِّنين خدمةً لا يُقدِّرُ ثمنَها إلا الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قلتُ:

لا تعجبنْ لعظيمِ ما خُصَّت به	أمُّ الخلودِ من المقام الأمجدِ
جُلْ في رياضِ التضحياتِ لكي ترى	أنَّ الذي ضحَّت به لم يُعهدِ
ضحَّتْ بكلِّ وجودِها لإلهها	بجَنانها بالقولِ حتَّى باليَدِ
أتظُنُّها مذ طالبت بحقوقِها	طَمِعت بمالٍ؟! ذلك الظنُّ الردي
ما طالبت إلا لتثبتَ واقعًا	أنَّ الذي غصبَ الخلافةَ معتدي
ويُقالُ كسرُ الضِّلعِ أمرٌ عابرٌ	حدَثٌ مضى! كلا وربِّ المسجدِ
سأقولُ قولاً لا يروقُ لناصبٍ	الدِّينُ لولا ضلعُها لم يصمُدِ [57]

إلى غير ذلك من العنايات الإلهية الخاصَّة بها، والتي تضيق القراطيس بتسطير إجمالها فضلاً عن تفصيلها.

المحورية الفاطمية

إطلالة سريعة على التراث المقدس من القرآن والعترة تكفي لزرع اليقين في القلوب السليمة بأن الزهراء (عليها السلام) كانت محورًا ربَّانيًّا في أكثر من بُعد من أبعاد حياتها، بل في كلِّ أبعاد حياتها.

وها نحن نشير إشارات سريعة لجملة من هذه الأبعاد المحورية، بحسب ما يقتضيه المقام من الإيجاز والاختصار.

الأول: المحورية في رضا الله تعالى وغضبه، فلقد اتفق المسلمون جميعًا، على رواية الحديث الصحيح عند الكلّ، وهو قول النبي (صلى الله عليه وآله): [إنَّ الربَّ يغضبُ لغضب فاطمة ويرضى لرضاها][58].

الثاني: المحورية في قيام القرون الأولى، وقد أشار إلى هذا البعد بل نصَّ عليه قول الصادق (عليه السلام): [...وعلى معرفتها دارت القرون الأولى][59].

وإليه أشرتُ بقولي:

شدَّ العلى نحو المدينة ركبَهُ	وسرى حثيثًا نحو منزل أحمدِ
أوليسَ (لولاها لما خُلِقَ الورى)	شأنٌ لها يرضاه كلُّ موَحِّدِ
لا غرو إن (دارت على عرفانها	أولى القرونِ) ففيه كل المقصدِ
من يعرِفِ الزهراءَ يعرفْ ربَّهُ	قلها ولا تعبأ بعذلِ الملحِدِ[60]

الثالث: المحورية في كون إيذائها مستوجبًا للعنة الإلهية في الدنيا والآخرة، فلقد تسالمت كلمات علماء المسلمين، وفقًا للروايات الكثيرة الصحيحة، على أن من آذى فاطمة (عليها السلام) فقد آذى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن آذى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد آذى الله تعالى، ولقد قال الله في محكم كتابه: {إن الذين يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَهُ لَعَنَهُم اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذابًا مُهينًا}[61].

وفي هذا المعنى أقول:

يا لائمَ الشِّيعيِّ في لَعنِ الأُلى	قد جرَّعوا الزَّهراءَ كأسَ أسَاها
أتقُولُ بالتَّحريفِ في القُرآنِ أَمْ	لا تفقَهُ الآياتِ مَا معناهَا؟!
أوَمَا قرأتَ بِسورةِ الأحزابِ أنَّ	اللهَ يلعَنُ مَنْ يُؤاذِي طَهَ؟!
أوَلَمْ يَرِدْ بصحاحِكُم قَولُ النَّبيِّ	لِفاطِمٍ يؤذيهِ مَنْ آذاهَا
مَنْ يُغضِبِ الزَّهراءَ يُغضِبْ أحمَدًا	الكُلُّ حتَّى النَّاصبيُّ رَوَاها
مَا بالُكُم؟ هلْ دِينُكُم قَولٌ بِلا	عَمَلٍ؟ ألا تخشَوْنَ يَومَ جَزَاها[62]

الرابع: محوريتها في كونها هي والأربعة من أهل الكساء العلةَ الغائيَّة من خلق الخلائق أجمعين، وعلى ذلك الروايات القطعية الصدور، ويكفي شاهدًا في المقام حكمُ صدوق الطائفة (رحمه الله) في كتاب الإعتقادات بوجوب الاعتقاد بأنَّه: [لولاهم لما خلق الله السماء والأرض، ولا الجنّة ولا النار، ولا آدم ولا حواء، ولا الملائكة ولا شيئًا مما خلق، صلوات الله عليهم أجمعين][63].

دفعُ توهَّم

توهَّمَ بعضهم أو حاول إيهام الآخرين بأنَّ حديث الكساء غير معتبر، رفضًا منه لمضمونه الذي لا يتناسب مع خلفيَّاته التقصيرية في درك مقامات أولياء الله تعالى.

وقد انقسمت هذه الشرذمة إلى طائفتين، طائفة أنكرت متن الحديث متذرِّعةً بضعف السند، وأسخفُ هؤلاء من نسب الضعف إلى السَّند بناءًا على عدم ذكر السَّند في مفاتيح الجنان!! كاشفًا بذلك عن سذاجة فهمه وخبث سريرته، فمتى كان عدم ذكرِ السند كاشفًا عن عدم وجوده؟! خصوصًا وأنَّ الكتاب لعالمٍ معاصرٍ، جمع كتابه ليكون منهاجًا للمؤمنين في الأعمال العبادية التي يتقرب بها إلى الله تعالى، مما يقتضي حذف الأسانيد كما لا يخفى.

وطائفة صرَّحت بأن مضمون الحديث لا يتوافق مع اعتقاداتها فكشفت عن مكنون أفكارها، لتعيدَ للذاكرة أخبار أقوامٍ مردوا على الشقاق.

ولسنا في صدد توسيع البحث حول هذه المسألة، ولكن نشير سريعًا إلى سرابيَّة هذه الدعاوي ووهنها.

الطائفة الأولى:

فالكلام فيها يقع في جهتين (تارة من حيث اتصال السند وصحته، وأخرى من حيث القطع بصدوره):

الجهة الأولى: أن حديث الكساء مروي بسند صحيح متصل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري، ذكره المحدِّث الثقة الشيخ عبد الله البحراني رضوان الله عليه في حاشية كتابه عوالم العلوم ج2 ص930، وسلسلة السند مشايخ أجلاَّء، ومحدِّثون فقهاء، فليراجع كلامه.

الجهة الثانية: إنَّ عدَّ الاعتقاد بمضمون حديث الكساء من اعتقادات الإمامية، بل وجوب الاعتقاد بذلك كما نصَّ عليه الشيخ الصدوق رضوان الله عليه، يكشف كشفًا يقينيًّا عن صدوره عن لسان الوحي، كما لا يخفى على أهل الفهم والمعرفة.

فمن يتكلف -بعد ذلك- البحث عن سند هذا المضمون محاولاً التشكيك في صدوره إنَّما ينادي بمناهضته لخطِّ آل محمَّدٍ صلوات الله عليهم، ومخالفته لاعتقادات الإمامية أعلى الله كلمتهم.

الطائفة الثانية:

وأما المنكرون لمعنى الحديث، الطاعنون في مضمونه، بغض النظر عن سنده، مدَّعين أنَّ الاعتقاد بعليَّةِ أهل الكساء الغائية لوجود المخلوقات ضربٌ من الغلو!!

فإمَّا أن يلتزموا بالسفسطة والتحكُّم، لأنَّه لا شبهة لدى أي عاقلٍ أن خلق الخلق كان لغاية ومصلحة، وأنَّ هذه الغاية والمصلحة لا تعود على الله تعالى لكونه الغنيّ المطلق، فأي محذورٍ لديهم أن تكون الغايةُ هي المخلوق الأكمل والتجلي الأتمّ الذي تدور عليه رحى الكمال والجمال؟!

وإمَّا أن يعلنوا للملأ عن خفايا نفوسهم وخبايا صدورهم من حسدٍ للناس الذين شرَّف الله تعالى بهم جميع مخلوقاته، {أَمْ يَحْسِدون النَّاسَ عَلَى ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ}[64].

ومن كان حاله كحال هؤلاء، يلائمه قولي في قصيدة (آفة التَّجديد):

يا سيِّدي! أشكو إليْكَ زمانَنَا	أنتَ العليمُ بكلِّ أمرٍ جَارِ
زمنًا بِهِ المعروفُ أصبحَ منكرًا	واستُبدِلَ الأخيارُ بالأشرارِ
زمنًا بهِ التَّجديدُ أضحى سِلعةً	راجَت بسُوقِ تجارةِ الأفكارِ
أفٍّ لتجديدٍ رَضوْهُ فَلَم ينَلْ	غيرَ الذي قدْ صحَّ في الأخبَارِ
أعني مناقِبَ آلِ بيتِ محمَّدٍ	ومثالبَ الأوثانِ أهْلِ النَّار[65]

الخامس: محوريتها في مذهب أهل البيت عليها وعليهم السلام، وهو ما يحتاج لعقد بحث مستقلٍ لبيانه، وكشف الغطاء عن أسراره ومعانيه، علمًا بأنني لم أرَ فيما رأيت من تصانيف علمائنا مَن تعرَّض لهذا المقام من مقاماتها روحي فداها، ولعلَّه لوضوح معناه عندهم، غير أنَّنا اليوم في أمسِّ الحاجة للوقوف على حقيقة هذا المحور، والتدبُّر في عظمته، وجلالة دلالاته.

وهذا ما أتركه لبحث مستقلٍّ، لكي يعطى الموضوع حقَّه، ونكتفي بهذا المقدار، ونترك الغوص في بحور المعاني واستخراج أسرارها لأهلها، ويعجبني أن يكون مسك الختام روضةٌ من رباعيات المديح لهذه السيدة العظيمة صلوات الله عليها، مُقرًّا بأنَّ المدحَ ممدوحٌ بمدحهم!!

حِرْتُ بِمَعْنَاكِ

لَمَّا رأتْ حُبَّ البتولِ شِعاري	فاحَتْ بِمِسكِ عبيرِها أشعاري

* * *

هيَ فاطِمٌ وَصِفاتُها تأبى العِدادْ	العقلُ طافَ بِها وَبِالإقْرارِ عادْ
عِرْفانُها مِنْ دونِهِ خَرْطُ القتادْ	هي سِرُّ نورٍ لُفَّ بالأسرارِ

* * *

يا بنتَ طه حِرْتُ في معناكِ أنا لا أُبالي ما اسمُ مَنْ آذاكِ	وَعَلِمتُ أنَّ العقلَ دونَ عُلاكِ لَكِنْ عليهِ لعنَةُ القهَّارِ

* * *

قلبي لِمَنْ والاكِ كانَ مُوَالِيَا سَيَظَلُّ في مَرِّ الزَّمانِ ندائِيَا	وَلِمَنْ جَفَاكِ مَدَى الدُّهورِ مُجَافِيا كُسِرتْ أضالِعُ بَضْعةِ المُختارِ

* * *

يَكْفيكِ فَخْرًا مُشرِقًا يَكْفيكِ سُمِّيتِ تَشريفًا بِأُمِّ أبيكِ	اللهُ يَرضى كُلَّ ما يُرضيكِ صلَّتْ عليكِ ملائِكُ الأسحارِ

* * *

طوبى لعبدٍ نال صكَّ رضاها كالطَّير تلتقطُ الذي والاها	سيرى بيوم الحشرِ فضلَ عُلاها وتسيرُ يتبعُها لنعم الدَّارِ

* * *

يا من أتى عن حبِّها ينهاني سأراكَ في يومِ الجزا وتراني	حبُّ البتولِ غدًا صراطُ أمانِ من في الجنان؟ ومن وَقودُ النَّارِ[66]

هل كانت السيدة ليلى زوجة الحسين (ع) في كربلاء؟

الشيخ حسين عبد الله عبد الله

تمهيد

كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول الكثير من وقائع نهضة كربلاء مع اشتهارها وتناقلها، فأنكر البعض الكثير منها، ووضعها في صف المجعولات التي لا أساس لها مع ما في ذلك من اتّهام للناقلين لتلك الأحداث بالاختلاق والوضع دون مراعاة لقواعد البحث العلمي في رفضه لها، وكان إنكاره ذلك مستندًا إلى عدم وجدان ما يشير إليها في كتب التاريخ حسب ما بحثه وحققه هو بنفسه..

ونلاحظ على هذه الدعوى عدة أمور:

أولاً: إن العبرة عند هؤلاء البعض هو ما قرأه بنفسه، مع أنه لا يمكن لأحد أن يدّعي الغوص في كتب التاريخ والاطلاع على كل مضامينها وإشاراتها، فكأن هذا البعض قد أسّس قاعدة تخالف بديهيات العقل مفادها أن عدم الوجدان "منه" يدل على عدم الوجود، مع أن العقل يحكم بأن عدم الوجدان منه أو من غيره لا يدل على عدم الوجود، إذ لعل من نقلها قد وجدها في كتاب لم يصل إلينا، أو وصل ولكن لم يقرأه ذلك المنكر، أو لم يلتفت إلى إشارة فيه تدل على ذلك، فلرُبّ باحث عن عين ماء في مكان ولا يجدها مع أنه يقطع بوجودها في ذلك المكان.

وثانيًا: إن الكثير من الكتب التاريخية قد ضاعت علينا كما حدث في مكتبة بغداد أو مكتبة بعلبك أو مكتبة بني عمار في طرابلس أو مكتبات العامليين التي نهبها الجزار وغير ذلك من مكتبات كانت تضم نفائس الكتب، والتي كانت تشتمل على الكثير من الأحداث التاريخية التي خفيت علينا حتى صرنا نعتمد في نقلها على الكتب التي نقلت عنها.

ثالثًا: إن كثرة وجودها وتناقلها في كتب المتأخرين والمقاتل قد يكون كاشفًا عن أخذها من مصادر تاريخية معتمدة خفيت علينا، فهي أقرب ما تكون إلى القضايا المقبولة (التي يُعتقد بها نتيجة لأخذها من الغير الموثوق بقوله، نتيجة لحسن الظن بهم من أفاضل السلف والعلماء حسب تصنيف علماء المنطق)، وعليه فعلى من ينكر حادثة تاريخية بضرس قاطع أن يكون لديه الدليل القاطع على إنكاره، ولا يكفي عدم اقتناعه ما لم يستند إلى الدليل النافي.

ومن جملة هذه الوقائع والأحداث التي كثر الحديث عنها، قضية حضور السيدة ليلى أمّ علي الأكبر (عليه السلام) في كربلاء، فقد شكك بعضهم في ذلك مدعيًا أنها توفيت قبل حادثة كربلاء، وبناء على هذه النتيجة طعن بكل من يذكر حضورها في كربلاء بأنه إنما يذكر ذلك من أجل إثارة العاطفة عند الناس وإدرار الدمعة على الحسين (عليه السلام) وعيالاته، لأنه يفتقد لعامل التأثير، والناس قد كُررت عليها مصيبة علي الأكبر ولم تعد تتأثر بها فيحتاج الأمر إلى شيء جديد.

وتنحل هذه الدعوى إلى ثلاث دعاوى، وهي:

الأولى: أن أمّ علي الأكبر لم تحضر كربلاء ولا يوجد مصدر تاريخي يذكر ذلك.

الثانية: أنها توفيت قبل واقعة كربلاء.

الثالثة: أن قضية حضورها اخترعت من أساسها من أجل إدرار الدمعة.

ونحن سنناقش الأمور الثلاثة من الثالث إلى الأول تباعًا.

أما الأمر الأول: دعوى أن قضية حضورها في كربلاء مخترعة:

فيرد عليه:

أولاً: إن واقعة كربلاء لم تؤثر في النفوس فقط لكونها حادثة مؤلمة ووقائعها محزنة، ويلاحظ ذلك من خلال عرض وقائع أخرى تاريخية مؤلمة فنراها لا تأخذ المأخذ الذي نراه لكربلاء.

فليست الفاجعة وحدها هي سبب الحزن والدمعة، ويلاحظ أيضًا هذا المعنى في حال لو مات عزيز وكان الألم عليه كبيرًا جدًا، فإنه يُذكر عامًا أو اثنين أو خمسة، ولكن لا يعود ذلك الألم كما كان بل يصغر ليخفّ تدريجيًا.

فالسرّ في كربلاء هو سرّ إلهي لأننا نبكي على كلمة [يا حسين] أو على حادثة ولادته (عليه السلام) كأننا نعيش الأحداث في حاضرنا، فالسرّ هو تلك الحرارة التي أودعت فيها [إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدًا] [67] فهل نحتاج بعدها لاختراع ألم جديد مع هذه الحرارة؟!.

ثانيًا: نلاحظ أننا كلما كُررت علينا السيرة الحسينية وما جرى في كربلاء كان لها أثر مغاير في النفس عن باقي السنين، حتى أن الفرد منا يشعر وكأنه لم يسمع هذه السيرة من قبل ويزداد الألم ولا يقلّ حتى نحتاج إلى اختراعٍ لتأجيج العواطف.

ثالثًا: لو كانت هناك حاجة للاختراع لأن الناس قد كُرر عليها ذكر الواقعة وحفظتها ونتيجة لذلك لم تعد تتأثر بها، لاحتاج الأمر إلى اختراعات مرة بعد أخرى، لأن الاختراع الجديد سوف يفقد تأثيره العاطفي بمرور الزمان -حسب دعواه-.

رابعًا: هل خصوص مأساة علي الأكبر (عليه السلام) تحتاج إلى اختراع؟

نلاحظ أن في واقعة علي الأكبر (عليه السلام) الكثير من الأحداث والمواقف التي تملأ بطون كتب التاريخ، والتي يكفي تصويرها لتتأثر النفس أكثر من الكثير من الوقائع العاشورائية، نذكر بعض هذه الأحداث فقط لإلفات النظر:

1- موقف الاستئذان من أبيه الحسين (عليه السلام)، ونظر الحسين (عليه السلام) له نظرة آيسٍ منه وإرخائه عينيه وبكائه [68].

2- دعاء الحسين (عليه السلام) على عمر بن سعد [يا ابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي] [69].

3- لما برز علي الأكبر أرخى الحسين عينيه بالدموع وقال: [اللهم كن أنت الشهيد عليهم...]، فجعل يشدّ ويرجع ويقول: [يا أبه العطش]، فيقول له الحسين (عليه السلام): [اصبر حبيبي، فإنك لا تُمسي حتى يسقيك رسول الله بكأسه] [70].

4- طلبه الماء من الحسين (عليه السلام) [71].

5- اعتوار الناس له وتقطيعه بأسيافهم، وطعن مرة بن منقذ العبدي له في ظهره[72]، وسلامه على الحسين (عليه السلام) بعد ذلك[73].

6- رميه بسهم أصاب حلقه فخرقه[74].

7- لما رأى الحسين (عليه السلام) ولده الشهيد قال: [يا ثمرة فؤاداه ويا قرة عيناه][75].

8- رميه بنفسه على ولده ووضع خده على خدّ ولده[76].

9- أخذ الحسين له وضمه إليه، وهو يقول: [يا أبه، هذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لي: [عجل القدوم علينا]، ولم يزل كذلك على صدره حتى مات، فلما نظر إليه (عليه السلام) ميتًا قال: [ولدي علي على الدنيا بعدك العفا][77].

10- نداء الحسين (عليه السلام): [قتل الله قومًا قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول]، ثم قال: [على الدنيا بعدك العفا][78].

11- ما ورد من أن الحسين (عليه السلام) وضع ولده في حجره، وجعل يمسح الدم عن ثناياه وجعل يلثمه ويقول: [يا ولدي أما أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمها...][79].

12- عندما جاء إليه صاح (عليه السلام) بأعلى صوته بعدما فرَّق القوم عنه فتصارخت النساء[80].

13-... وأهملت عيناه (أي الحسين عند مقتل ولده علي) (عليهما السلام) بالدموع وصرخن النساء، فسكتهن وقال لهن: [اسكتن فإن البكاء أمامكن][81].

14- خروج زينب (عليها السلام)، ورميها بجسدها على علي الأكبر، وإرجاع الحسين (عليه السلام) لها[82].

ونكتفي بهذا العدد المبارك لأنه عدد المعصومين الأربعة عشر (عليهم السلام).

إلى غيرها من المواقف التي يكفي تصويرها فقط وتقريب الحدث للأذهان بلغة قريبة من الناس ومألوفة لديهم.. فأين الحاجة والداعي للاختراع!!

الأمر الثاني: هل توفيت السيدة ليلى قبل واقعة كربلاء؟

أولاً: لم نعثر على نصٍّ تأريخي واحد -لا نحن ولا من أدعى- يشير إلى أنها توفيت قبل واقعة كربلاء.

وثانيًا: هناك نصّ تأريخي يثبت حياة السيدة ليلى بعد واقعة كربلاء، وهو في كامل الزيارات لابن قولويه المتوفى سنة 367هـ في باب نَوح الجن على الحسين (عليه السلام) (ص192) يقول: [حدثني حكيم بن داود عن سلمة قال: حدثني أيوب بن سليمان بن أيوب الفزاري عن علي بن الحزور، قال: سمعت ليلى وهي تقول: سمعت نوح الجن على الحسين بن علي (عليه السلام) وهي تقول:

يا عين جودي بالدموعِ فإنما	يبكي الحزينُ بحرقةٍ وتفجعِ
يا عين ألهاك الرقاد بطيبه	من ذكرِ آل محمد وتوجعِ
باتت ثلاثًا بالصعيد جسومهم	بين الوحوش وكلهم في مصرعِ

الأمر الثالث: هل حضرت السيدة ليلى كربلاء؟ وهل يوجد نص تأريخي في ذلك؟

أولاً: هناك نصوص عامّة تشير إلى أن الحسين (عليه السلام) عندما خرج من المدينة أو مكة أخرج معه جميع عيالاته وأطفاله ونسائه، ولم يترك في المدينة إلا فردًا أو فردين منهم، ولم يُذكر أنه ترك السيدة ليلى أُمّ علي الأكبر (عليه السلام) في مكة أو المدينة، والمفروض بعد القول بحياتها أنه لا داعي للتوقف في أنها خرجت معه أو لم تخرج.

ثانيًا: ما ورد في مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المتوفى سنة 588هـ في معرض حديثه عن بروز علي الأكبر [فطعنه مرّة بن منقذ العبدي على ظهره غدرًا فضربوه بالسيوف فقال الحسين (عليه السلام): [على الدنيا بعدك العفا] وضمّه على صدره، وأتى به إلى باب الفسطاط، فصارت أمه شهربانويه ولهى تنظر إليه ولا تتكلم][83].

وقد توقف البعض عند هذا النص نظرًا إلى أنه يذكر أن اسم أمه هي "شهربانويه" وأن هذا هو اسم أم الإمام زين العابدين (عليه السلام). فذهب إلى أن الذي برز هو الإمام زين العابدين (عليه السلام) وجرح في المعركة وهذه المرأة هي أمه وليست ليلى.

ولنا عليه أمور:

أ- أن النص صريح في أن الخارج هو علي الأكبر، ويوافق المشهور من أن (الأكبر) لقب للمقتول في كربلاء، ولا نريد الخوض في تفاصيل اللقب هنا مراعاة للاختصار.

ب- أن مرّة بن منقذ هو الذي طعن عليًا المقتول بكربلاء والناس قد احتوشته بالسيوف.

ج- نداء الحسين (عليه السلام) [على الدنيا بعدك العفا] هو على ابنه علي المقتول يوم كربلاء.

د- وهو الأهم أنه من أعجب الأمور أن يقول القائل بموت السيدة ليلى قبل كربلاء، ويتمسك بحياة أم الإمام زين العابدين "شهربانويه" وحضورها في كربلاء، وذلك للنص على أن "شهربانويه" قد توفيت وهي نفساء بالإمام زين العابدين (عليه السلام)، أي قبل واقعة كربلاء بسنين، وقد ورد ذلك في كتاب عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (رحمه الله) المتوفى سنة 381هـ، قال: حدثنا الحاكم أبو علي الحسين بن أحمد البيهقي، قال حدثني محمد بن يحيى الصولي، قال حدثنا عون بن الكندي، قال حدثنا سهل بن القاسم التوشجاني، قال: قال لي الرضا(عليه السلام) بخراسان: أن بيننا وبينكم نسبًا. قلت: وما هو أيها الأمير؟ قال: إن عبد الله بن عامر بن كريز لما افتتح خراسان أصاب ابنتين ليزدجرد بن شهريار ملك الأعاجم فبعث بهما إلى عثمان بن عفان فوهب إحداهما للحسن والأخرى للحسين (عليهما السلام)، فماتتا عندهما نفساوين وكانت صاحبة الحسين (عليه السلام) نفست بعلي بن الحسين (عليهما السلام)، فكفل عليًا (عليه السلام) بعضُ أمهات ولد أبيه، فنشأ وهو لا يعرف أمًا غيرها، ثم علم أنها كانت مولاته فكان الناس إلخ...] [84].

وهذا نص صريح في أنها توفيت قبل كربلاء، فلا داعي لحمل النص على أم الإمام زين العابدين (عليه السلام)، بل يتضح أنه يوجد سهو قلم أو اشتباه من الراوي في ذكر هذا الاسم.

ثالثًا: ما ذكره صاحب كتاب نور العين في مشهد الحسين (عليه السلام) للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني المتوفى سنة 418هـ في معرض ذكر علي الأكبر (عليه السلام) قال: [قال: -يعني الحسين (عليه السلام)- [يا بني يعزّ عليّ فراقك]، وحمله عند القتلى، وصارت أمه سهرانة ولهانة، وهي تنظر إليه وتبكي، وزينب (عليها السلام) تنادي: [واحبيباه وابن أخاه]، ثم أخذهما الحسين (عليه السلام) وردهما إلى الخيمة] [85].

وأعتقد أنه لا حاجة للتأمل فيه كثيرًا، بل هو نص تأريخي قديم موجود بين أيدينا، ولا أعتقد أنه لو نقله الناقل وتعرض إليه سوف يكون مخترعًا أو مؤلفًا لأمر غير موجود، ولا يكون ذلك من باب الافتراء والكذب.

ونؤكد ذلك بسؤال وُجّه إلى السيد الخوئي (قدس سره): هل يجوز للخطيب الحسيني أن ينقل القضايا التي لم يثبت وقوعها بعنوان أنها واقعة، كزواج القاسم بن الحسن عليه السلام من سكينة بنت الحسين عليهما السلام أم لا بد من التثبت في نقل ما أثبته العلماء وطرح ما طرحوه؟

فأجاب (قدس سره): لا يجوز النقل بعنوان الورود وأما بعنوان الحكاية عن كتاب أو شخص فلا بأس به [86].

وعلى ضوء ذلك النص التاريخي المتقدم يمكن التوفيق بين نصوص أخرى كانت محل تأمل عند الكثيرين في كيفية الجمع بينها، مثل ما ذكر في كتب عديدة، منها مقتل الخوارزمي والبحار: [قال حميد بن مسلم: فكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة، تنادي بالويل والثبور وتقول: [يا حبيباه يا ثمرة فؤاداه يا نور عيناه] [87].

وما ذكر في كتاب منتخب الطريحي المتوفى قبل صاحب البحار: [قال من شهد الوقعة: كأني أنظر إلى امرأة خرجت من فسطاط الحسين وهي كالشمس الزاهرة تنادي: [واولداه واقرّة عيناه] فقلت: من هذه؟ قال: زينب بن علي][88].

مع ملاحظة أنه من القريب جدًا أن لا يكون المسؤول بأعرف من السائل، إذ من الذي كان يعرف السيدة زينب (عليها السلام) بشخصها قبل السبي حتى يُسأل فيجيب بأنها هي؟!، فاحتمال وقوع الخطأ في كون هذه المرأة هي السيدة زينب (عليها السلام) أو السيدة ليلى كبيرٌ جدًا.

ويوجد في النصين كلمات تحتاج إلى تأمل في نسبتها إلى مولاتنا زينب (عليها السلام) [واثمرة فؤاداه، واقرّة عيناه، واولداه، يا نور عيناه] فكيف يمكن الجمع بين هذين النصين وأشباههما وبين النص الآتي وأشباهه.

ما ورد في مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356هـ [قال حميد بن مسلم: وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي: [يا حبيباه يا ابن أخاه]، فسألت عنها فقالوا: هذه زينب بنت علي (عليهما السلام) ثم جاءت حتى انكبت عليه فجاءها الحسين فأخذها بيدها إلى الفسطاط، وأقبل إلى ابنه وأقبل فتيانه إليه، فقال: [احملوا أخاكم]، فحملوه من مصرعه ذلك، ثم جاء به حتى وضعه بين يدي فسطاطه][89].

فيمكن أن يقال في عملية الجمع بينهما أن التي خرجت ليست امرأة واحدة بل امرأتان إحداهما زينب (عليها السلام) والأخرى هي أمه، وكلٌّ منهما لها نداء خاص بها، وهذا يدل على وجودها في كربلاء. وأيضًا ما ورد في نصّ نور العين من كون الحسين (عليه السلام) ردّهما إلى الخيمة.

ويصلح هذا النص أيضًا ليكون ردًا على نسبة الافتراء التي ألصقها البعض بالخطباء الذين يقولون [بأن ليلى احتضنت ولدها في ساح الوغى]. حيث إن النص المتقدم دلّ على وجودها بمكان قريب من ساح الوغى وعند القتلى، فهل نحتاج بعد ذلك إلى نص يصرح بأنها رمت بنفسها عليه؟ (أم نكتفي بأنها نظرت إليه وعادت وكأن شيئًا لم يكن؟!!!)، وقد يجد الباحث في كتب التاريخ ما يدل عليه صريحًا.

ونلاحظ أيضًا أن النصوص هنا ذكرت بأن الحسين (عليه السلام) نقل ولده عليًا عند فسطاطه، ويمكن الإلفات إلى الكثير من الفوائد التي يمكن اكتسابها من هذه النصوص، منها: احتمال كون علي الأكبر نُقل أولاً عند القتلى، ثم نُقل ثانيًا إلى فسطاط الحسين (عليه السلام) لأجل أن تودعه أمه وزينب ونساء الحسين.

وهذا أيضًا ما يستفاد من نص نور العين مع ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية من أنه خرجت جارية تنادي يا أخياه ويا ابن أخاه، فإذا هي زينب، يقول: [فجاء الحسين ((عليه السلام)) فأخذ بيدها فأدخلها الفسطاط، وأمر به الحسين فحوِّل من هناك إلى بين يديه عند فسطاطه][90].

كلمة أخيرة: إن هذه المقالة إنما نتجت عن المطالعة التي تمّت لنزر يسير من الكتب المطبوعة التي بين أيدينا، ولو أردنا أن نستقصي جميع الكتب المطبوعة والمخطوطة التي تملأ المكتبات فلربما نكتشف الكثير؟؟!!

وبناءً على كل ما تقدّم يمكن القول بأنه يصح للخطيب الحسيني أن يعتمد على مثل هذه النصوص ولكن من دون الجزم بحصول هذا الأمر، بل هو مجرد ناقل، ولا يجوز لأحد أن يعترض عليه ويتهمه بالاختراع أو الوضع، وقد مرّ في طيات البحث جوابُ استفتاء للسيد الخوئي (قدس سره) صريحٌ في جواز ذلك.

التربية بين الأسرة والمدرسة

الأستاذ حسن جابر

توطئة

للتربية التي نخوض غمارَ سبقها، والولوج في مطاوي علومها، نرصفُ اللبنات الأولى، لميولٍ ومداركَ تحقق أغراضها وغاية وجودها.

ولأنه الإنسان سمة الوجود، وعلّة التشريع، وسبيل التقرّب إلى الله تعالى، الذي كان بعضَ إبداعه وخليفته لإعمار كونه.

ولأجل توطئةٍ مُثلى، على طريق ذات الشوكة، في تربةٍ مباركةٍ تُعِدُّ لمجتمعٍ طيب، يصقل المواهب الخيّرة، ليكون دافع الإنسان نحو إنسانيته، ليرقى متقدّمًا على ما عداه وسواه، وتلك كانت أهداف الرسالات وساحة عمل الأنبياء (عليهم السلام)، حيث أنتجت صفوة النُّخب في فجر انطلاقتها بقوةٍ واقتدار، وعزمٍ في الأداء لا يلين... وبذات القوة، ومن أجل تثبيت النهج التربوي الرسالي الهادف ولكل من نصّب نفسه إمامًا للناس يقتدون به ويقتفون أثره للنّهل من معين عطائه الزاكي بصبرٍ وأناة:

الله الله في تزكية النفس وتطهيرها من دنس الكِبَر والغرور والأحقاد.

الله الله في قلوبكم... عرش الله، ولْتبقَ معمورة بالعطف والحنان، وبالمشاعر الممتلئة حبًا لناشِئتنا، لتغدوَ على صورة المَثَلَ الذي أراده الله أن يُحتذى.

فبالتربية نبني ونقوّم.. ونعطي الحياة معناها الأسمى، بصورتها الأنقى، ونضع البذرة في أرضٍ خصبةٍ تؤتي أكلها بإذن ربها {... وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ}[91]، ولأجل هذا كان بحثنا التربوي -المتواضع هذا- المتمّم لبحثنا السابق الذي أوردناه في العدد السابع

عشر لمجلتنا المباركة تحت عنوان (التربية بين التقليد والتجديد)، من أجل دراسةٍ موجزة عن المتغيرات التربوية، وكيفية محاكاتها للثقافة المجتمعيّة بأبعادها الثلاثة (العموميات - الخصوصيات - المتغيرات)، ثم لإفراد عناوين دور كلٍّ من الأسرة والمدرسة، والتناغم الآيل لتربية إيمانية قويمة، تكمل فيه المدرسة الدور، وتملأ فراغًا قد يطرأ، عبر معلّمٍ مختص يؤدي الرسالة، ويؤتمن على الأفراد، تمامًا كما فعل الأنبياء (عليهم السلام) والصالحون، في سبيل النهضة التربوية الرائدة لبناء الشخصيّة الملتزمة الواعية المؤمنة، كوافدة على المستقبل تحملُ مشعلَ الخلاص للأمة بقوة واقتدار.

1- التربية والتغيير

لعبت التربية -ولا زالت- دورًا رائدًا على مسرح المجتمعات البشرية، ولازمت المتغيرات التي طاولت النظام الاجتماعي برمّته.

وقد برزت بلحاظ تلك المتغيرات الثقافية التربوية كلاعبٍ رئيسٍ في إدراك الواقع والظروف المحيطة، ولتُحَدَّدَ على أثرها المواقف ولتصاغ صورة المجتمعات على ضوء نتائج الديناميكيا التربوية الجديدة لحراك مقصود.

وعلى عكس هذا فإن مبدأ الحشو وإكساب الخبرات، بعيدًا عن المطابقة الحيّة لواقع الحياة، قد جعلت همَّ المدارس في إنجاز المقررات والمناهج، وبالمقابل كان همُّ التلامذة التفوّق للحصول على النتائج الأفضل، والترفّع إلى مرحلة جديدة.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن معظم من تفوّق في ميدان الدراسة قد فشل في الميدان الاجتماعي في أول امتحان له، لغياب التربية الهادفة، الملازمة للتحصيل العلمي في سنيّ الدراسة.

فالمتعلم لم يَعُدْ تلك الوجهة الصالحة المقصودة في بني قومه، ولا ذاك المتكيّف بذوقه وعواطفه وسلوكه بحسب الواقعية المتوخّاة.

وأدهى من كل هذا ترى من يقود عملية التربية مسكونًا بآراء غربيّة، في المنهج والفكر والاقتصاد والفلسفة، ويعمل على بثّها بين ناشئتنا وأجيالنا من حيث يدري أو لا يدري، لإشاعة أفكار غربية هدّامة تنفذ إلى مجتمعاتنا تحت مسمّى العلم والنهضة لمحاربة التقوقع والتزمّت.

ومؤدّى ذلك هو حمل المتعلمين على الانبهار بالمستعمر والاندماج بأفكاره.

وقد صرّح بهذه الظاهرة الكاتب الإنجليزي -ميكالي- عندما كان رئيسًا للجنة التعليمية عام 1835م التي قرّرت جعل اللغة الإنجليزية أداة لتعليم الهنود بدلاً من لغتهم، فقال:

[... يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانًا بيننا وبين الملايين من رعيّتنا، وستكون هذه الجماعة هنديّة في اللون والدم، إنجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير...] (2).

إن آراء ميكالي وأمثاله يجب أن تدفعنا وتحفّزنا على مجابهة تلك الأفكار الوافدة بهدف إقصائنا عن مسرح التأثير في الحياة، لخلق جيلٍ واعٍ يستنير بنور الإسلام، ويتبنّى عقيدته ونظامه ومنهاجه، باعتباره دينًا وثّابًا له أيديولوجيته الفطرية والإنسانية ودستورًا متكاملاً في كل شيء.

2- الثقافة والتربية في المجتمع

تتأثّر التربية لدى الأطفال بعدة عوامل بيئية، تعمل على تلقين مفرداتها للناشئة.

فمن الثقافة التي تُبنى من خلال الطبيعة ومظاهرها، إلى ثقافة مكتسبة من الناس والجماعات، حيث يُعتبران معًا مجموعة الظروف المحيطة بالفرد والتي تكسبه طابعه الخاص وتؤثر فيه. فالطفل يولد في أسرته، التي تعتبر مؤسسته الاجتماعية الأولى، وتليها المدرسة، ثم المجتمع الأكبر، حيث تشترك جميعها في العمل على أنسنة هذا المخلوق.

كيف لا؟ فالثقافة التربوية لديها إمكانية الاكتساب، والانتقال من جيل لآخَر عبر كفاح الإنسان ونشاطه، ولهذا اعتبرت التربية عاملاً رئيسًا من عوامل الثقافة المجتمعية، وقديمًا قيل: [لا ثقافة بدون تربية، ولا تربية بدون ثقافة].

وبناءً عليه، فقد بُنيَ موقف التربية من الثقافة وفق مستوياتٍ ثلاثة:

أ - على مستوى العموميات:

ونعني بها [... جميع العناصر الثقافية التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، كالأفكار والعادات والتقاليد وأنماط السلوك واللغة] [92]. وبدورها تعمل على شدّ أواصر المجتمع، وبنائه مستقرًّا متضامنًا.

وقد أكسبت التربية هذه المفاهيم القيم والسلوك السويين، وصولاً للمحتوى الأخلاقي الذي يبدأ بإلزاميةِ مجانيةِ التعليم، لتتقارب مستويات المجتمع وتردم الهوّة القائمة بين طبقاته.

ب - على مستوى الخصوصيات

ونقصد بها طرائق التفكير، والعادات والمصطلحات والمعتقدات التي تحكم سلوك الأفراد، وهنا يأتي دور التربية ليهذّب تلكم الطرائق والعادات لتتحوّل العقيدة الإيمانية إلى سلوك جماعي، كمثل الجسد الواحد ويمثّل الإنسان فيه بعدًا أرضيًا للإيمان بالله والتقرّب إليه، (أحبهم إليه أنفعهم لعياله) [93].

ج- على مستوى المتغيّرات

حيث يمارس الفرد هنا قناعاته، في خضم عالم متغيّر، يُثري عاداته بإضافات جديدة، له حق الاختيار فيها.

وهنا تبرز عقدة اصطدام تلك المتغيرات بما أَلِفَه الإنسان واعتاد عليه، ليأتي دور التربية الموجّه لحسن الاختيار القويم، حيث المصلحة العليا للفرد والمجتمع والأمة، حتى تغدو تلك المفردات الجديدة جزءًا من ثقافة ذاك المجتمع، أو قل ربّما تحلّ محل عناصر قديمة، وتصبح جزءًا من ثقافة الأمة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى خطورة ما تُحدثه تلك الثقافات الدخيلة -وفي أغلب الأحيان- من هزّة واضطراب، وصراع بين الأجيال، فتختلّ العلاقات الاجتماعية ويضطرب السلوك.

والحاجة هنا ماسّة لإعادة التكامل والتوازن، وهضم المتغيّرات بما ينسجم مع أعراف وتقاليد المجتمع.

مثال على ذلك: رفض فكرة التلفزيون لأول مرّة، وما يتضّمنه من ممارسات غير مقبولة ومخالفةٍ لثقافة المجتمع، مما يحتّم تدخّل التربية في تهذيب ذاك الطارئ على المجتمع بإيجابيةِ وجه الانتفاع به.

3- دورُ كلٌّ من الأسرة والمجتمع في تربية الطفل

أ- دور الأسرة:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه"[94].

عن الإمام علي (عليه السلام): "حُسْنُ الأخلاق برهان كرم الأعراق"[95].

وعن دور الأب: ".. أبتاه كان عليك أن تقول لي لا أحيانًا لتأديبي وتدريبي، حتى لو كنتَ مستطيعًا، كان يجب في بعض المرّات أن تحرمني لأعتاد على واقع الحياة..."[96].

وعن تأثير الأم في الولد، فعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: ".. أطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر، فإن ولدها يكون حليمًا تقيًا"[97].

ب-طهارة المولد:

((إن القرآن الكريم يعبّر عن رجلين من هؤلاء العظماء بطهارة المولد والسلام يوم الولادة، وهما يحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم.

يقول في حق يحيى (عليه السلام): {سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ}[98]. ويقول على لسان المسيح (عليه السلام): {وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ}[99]، والسلام هنا بمعنى: عموم العافية، أي الطهارة الكاملة للبدن والروح. وهذه الحقيقة -أي طهارة المولد- متساوية في جميع الرسل والأنبياء. والنكتة الأخرى التي يجب التنبّه لها هي: أن القرآن عبّر عن السلامة

في دور الرحم بسلامة يوم الولادة، وذلك لأن السلامة في تمام ذلك الدور لا تعرف إلا بعد ولادة الطفل سالمًا، واجتيازه تلك المراحل كلها بنجاح حيث تنقطع صلته تمامًا برحم أمه... ولا ريب فلسلامة المولد قيمتها باعتبارها السبب الأول في نشوء جيل مستوٍ وخلقِ مجتمع فاضل تنتشر فيه روح السعادة والإنسانية والصفاء))[100].

... وهذا لقمان الحكيم (عليه السلام) يرشد ولده ويقوّم سلوكه كدليل على دور الأب الريادي في ميدان الإعداد والتوجيه، وقد خلّد القرآن الكريم هذه الإرشادات "الوصايا" لما لها من عظيم الشأن، وبالغ الأثر على النفس الإنسانية، قال (عليه السلام):

{يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[101].

وقد دلّت الآيات الكريمة على لسان لقمان الحكيم (عليه السلام)، على الدور التربوي الذي يجب أن يضطلع به الأب لرعاية ولده والقيام بتربيته لضمان سعادته في الدارين "الدنيا والآخرة".

فأراد تجنيبه لأعظم المعاصي، وإحدى أهم الكبائر "الشرك بالله" وحثّه على شكر الوالدين كمقدمة لشكر المولى عز وجلّ، وذلك من خلال تقدير فضل الأم في حمله وتربيته ورضاعته، مُنذرًا إياه بأن المرجع إلى الله تعالى، وعليك التهيؤ للحساب.

وبعد، فقد أنكر عليه طاعة الوالدين عند إلحاحهما عليه بالشرك بالله، وزوّده بأسلوب تربوي فريد عند رفضه لهذا النوع من الأوامر، وذلك من خلال الرفق واللين دون جفاء أو خشونة، وذكّره بأن الأعمال معروضة على الله يوم القيامة، ثم دعاه لإقام الصلاة والأمر بالمعروف، إلى أن نهاه عن التكبّر، وعدم الإعراض عن الناس بتصعير الخدّ، وألزمه التواضع في المشي وعدم المبالغة برفع الصوت التي هي من صنيع الحمير.

هذه هي مدرسة القرآن، ومنهج السماء في عملية الإعداد والتربية لأنصار الرسالة وأتباعها ليكونوا طلائع السير بين الناس إلى الله... يصدعون بالحق كروّاد، ودعاة أمر حكيم، وعمالقة أخلاق وجمال أسلوب.

ج - دور المدرسة في التربية

وهناك اتجاه يقول بأن تُترَك مهمة التربية للمدرسة، وآخر يقول أن المدرسة يبدأ عملها بعد عمل الأسرة.

ونقول: مما لا شك فيه أن التناغم الكبير والمحاكاة المطلوبة في عملية البناء التربوي تفرض التكامل بينهما، بحيث يتوجّب على الأهلين القيام بالإشراف المباشر على تربية الطفل، والقيام بما يصلحه، من أجل مستقبل أفضل.

والمدرسة هي الأخرى متممة لدور الأهل، ومن خلال المتابعة البنّاءة بينهما لشؤون الطفل وشجونه إذ لا يجب الفصل بين الدورين "الأسرة والمدرسة" باعتبارهما مسرح تواجد الطفل في سنيه الأولى، ومرتع انفعالاته ومواهبه واستخراج إبداعاته وقدراته بشكل إيجابي مدروس.

نعم قد يتمّيز دور المدرسة استثنائيًا حال تفكّك بعض الأسر، مما يعوق قيامها بوظيفتها التربوية، ولا يخفى ما لدور مجالس الأهل والمعلمين في تلك المتابعة التي يجب أن تتّسم بالفاعلية، باعتبارها مسؤولية مشتركة متعاونة للوصول إلى تنشئة صحيحة وسليمة، حيث تسهم -وإلى حدّ كبير- في فهم عالم الطفل ونموّه ومتطلباته المشتركة.

لكن الخطر المحدق يبرز عند خروج المرأة للعمل، فتفقد أصالة دورها التربوي باعتبارها العمود الفقري للتربية، فيجعلها على خلاف ذلك. وظروف العمل هذه تنعكس بالسلب على طريقة تربية الأم لأبنائها، فلا تجد ما يخفّف عنها أعباء دورها كزوجة، وأم راعية.

4 - خصائص وميزات المعلم الناجح

وبما أن الحديث عن المدرسة التي قوامها حسن اختيار المعلم، والمرشد، والموجّه في آن، والمؤتمن على فلذات أكبادنا، فلا بد -والحال هذه- من انتقاء المعلم الأنجح، والمربي المميّز، بحيث يستحق أن يكون رسول محبة وخير، ويجب أن يكون:

- مؤمنًا ملتزمًا بتعاليم الدين القويم، وأمينًا على إيصالها إلى الناشئة.

- ذا تقوى عالية، يشعر بالرقابة الإلهية عند أدائه لدوره.

- متفقّهًا بأحكام الدين الحنيف، ليتمكّن من القيام بدوره كآمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر.

ولذا يجب عليه:

- إيقاظ الشعور الديني في نفوس تلامذته.

- التركيز على الشخصيات الرسالية التي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ الإسلام، ليتحقق لهم حسن القدوة والأسوة.

- حيازة مؤهلات علمية متميّزة في مجال اختصاصه وعطائه.

- الخضوع وبشكل دوري لإعادة تأهيل وتدريب في الاختصاص من ناحية، والإحاطة بعالم الولد من ناحية أخرى في ظل متغيرات متسارعة.

- الإخلاص في العطاء، والرغبة في أداء دوره كرسالي لا كموظف.

- الإحاطة بعادات وتقاليد مجتمعه.

- الهدوء، والصبر وسعة الصدر، والقدرة على تجاوز الأخطاء، وحلّ المشكلات.

- المحافظة على كرامة التلميذ، وتجنّب التقريع وأسلوب السخرية.

- تجنّب المساءلة والمبالغة بها، وخاصة بما لا يعنيه، تجنبًا لخدش كرامة الناس مهما قلّت.

- عدم التقدّم لمكان أو على قوم فيهم مَن هم أفضل منه.

- المداومة على المطالعة والكتابة، والتواصل الاجتماعي.

- التمتع بدقة الملاحظة وسرعة البديهة، والقدرة على أخذ الموقف المناسب بالسرعة الممكنة ودون تسرّع.

- تجنب الصراخ ورفع الصوت، والمحافظة على رباطة الجأش، وعدم إظهار العصبية، وأن لا يجري على لسانه أيّ استهزاء اتجاه الولد.

جِراحاتُ السنانِ لها التئامُ	ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

- فتح آفاق الطلاب على خطط المستعمرين، وأساليبهم، وتحصينهم بالأساليب والقدرات الفكرية الكفيلة لمواجهتها، وتنبيههم دائمًا على الأخطار المحدقة بأمتهم.

- الإقدام على محاسبة نفسه يوميًا، ما إذا كان راضيًا عمّا قدّمه لتلامذته، وهل قام بدوره كاملاً وكأنه يربي ويشرف، ويدرس ولده وفلذة كبده.

5 - الخاتمة

وبعد، فإن الحديث عن التربية شاق وطويل، والولوج في مطاوي أهدافه، أو مكامن أبعاده في إطار متكامل نحو مشروع لنهضة الأمة ليس بالأمر السهل، والمتصدي للعمل التربوي يستثير الواقع بإلحاح وقوّة بصيرة، لقيادة عملية اجتياز تفاعلية للبيئة المحلية والأممية أيضًا، بعيدًا عن دوامة التداخل الثقافي المستجدة، لصياغة الشخصية الرسالية، وفق ممر إلزامي يتوّج العلاقة بين الأسرة والمدرسة والمجتمع.

وهنا تتناغم قدرات كل مرحلة، ومهارات الطفل المكتسبة لاحقًا لتتحوّل وفق منطق تطويري تدريجي، لمعارف صاغتها التجربة ثم راجت كنتائج فاعلة، ضمن استراتيجية آيلة لمستلزمات النهوض.

من هنا كانت المقاربة لمراحل التربية الثلاث "الأسرة -المدرسة- المجتمع" وتفعيل آلياتها، لكي تصل إلى حالة اندماج تربوي رائد يرقى بالفرد، مرورًا بالمجتمع، وصولاً لأمة تأخذ موقعها تحت الشمس بقوة الحق السليم، الناتج عن تطبيق برامج السماء، ومناهج الله لعباده.

ولا يمكن لذلك أن يتم أو يحصل إلا بالمعلّم المخلص، العالم بقضايا أمّته، المرتبط بقيم الشريعة السمحاء، وواقع الحياة، ومتغيراتها، وأن لا يحيد عن سبيل الحق كعالم ربّاني مداده أفضل من دماء الشهداء.

الهجرة الحادة والمهاجرون بين الماضي والحاضر

أسباب ونتائج

د. حسن جعفر نور الدين

مضى على الناس زمن وهم يهاجرون، يتركون أوطانهم وتاريخهم وعوائلهم ويرحلون، لا حبًا بالهجرة، إذ ليست -في الإطار الذي نقصده من الهجرة- فرصة للاستجمام والسياحة في جانب منها، وليست للراحة والتنزه والبحبوحة، إنما هي هجرة للجسد أكثر منها هجرة للروح، وهجرة للمستقبل لا من الماضي أو تنكرًا له وهروبًا منه. في الهجرة القسرية التي أعنيها في حديثي، تبقى الذكريات سِفرًا يتصفَّحه المهاجر باستمرار، فيقرأ فيه ذكرياته مع الأهل والأصدقاء، مع الحجر والمدر، يتلمّس فيه عبق أصابعه وهي تلامس التراب فيحيي فيه الحياة.

لو جمعت الدموع التي أهرقها المهاجرون منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم على سلالم البواخر ونوافذ القطارات وكوى الطائرات لبلغت بحورًا، دموع الصدق التي تهاجر من الأحداق، لتنزرع في الأرض التي يغادرون صكوك محبة وعهد بالعودة الظافرة.

إنهم يغادرون وفي قلوبهم أمل العودة إلى دم الوطن، يهاجرون ليبنوه ويصنعوه من هناك، من الأقاصي النائية وراء البحار، بعد أن تعذّر عليهم البقاء فيه وخدمته وبنائه بحريّة ومحبة دون إرهاب وتنكيل.

ذهبوا يفتشون عن الحرية التي افتقدوها، والخبز الذي حرموه، والكرامة التي ديست بأعقاب بنادق المحتلين، وسياط زبانيتهم وأعوانهم الذين باعوا ضمائرهم خدمة للمستعمرين.

ذهبوا لينتشلوا عوائلهم من العَوَز الذي نهش ضلوعهم، والفقر الذي أدمى مشاعرهم وأعدم أطفالهم، فَأَنِفوا من التسوّل، وعزّ عليهم أن يتركوا أرضهم دون حراثة، أن يتركوا الغيوم في سمائهم دون أن يستدرّوا منها المطر الحنون، والشمس فوق دورهم دون أن ينعموا بإشعاعاتها الذهبية، ذهبوا تاركين نسيم السفوح العليل وثلج الجبال البلوري ليسيل دون أن تتلقفه أيديهم الحانية، وثغورهم الداعية، وقلوبهم الآملة بعودة ميمونة، وهم يحملون إلى الأرض التي ربتهم والتي شهدوا أول نور على ترابها النفيس، يحملون ميلاد وطن جديد، عَرِقوا لأجله، وجهدوا في سبيل سعادته، وحفوا وعروا ليلبسوا فيه ثياب العافية، ومات بعضهم هناك ليحيا هو بما أسلفوه وما أرسلوه وبذلوه.

لبسوا المسوح البالية ليلبسوا في وطنهم ثياب العزّ والمجد، وشربوا الماء العكر، لينهلوا في وطنهم ماء القوة والعنفوان، وشراب الحياة.

لقد عمرت بهم بلاد المهاجر، وذاع صيتهم في كل مكان.

حملوا (الكشّة) -وهي صندوق مليء بالأزرار والأمشاط والدبابيس والأقمشة- رمز النضال والكفاح حتى عرفوا بها، ونعتوا بكلمات مسيئة كـ"الجياع" و"اللاجئين" و"توركو" (نسبة إلى الأتراك الذين كانوا يحكمون بلادنا) وسمّوا أيضًا بـ"كلّو بعشرين" وهو نداء باعة (الكشة) المتجولّين، أو لقب "أكلة الحشيش" إشارة إلى اعتيادهم أكل الخضار في بيئة طعامها اللحوم، ولم تتبدّل هذه الألقاب وتُمْحَ إلا عندما ظهرت مواهب العرب عامة واللبنانيين خاصة في الشعر والمعرفة والفن.

لقد أفلح كثيرون، فانتقلوا من حَمَلة (الكشة) إلى رؤساء جمهوريات، أو وزراء أو نواب أو أعضاء في مجالس الشيوخ، هناك في أميركا الشمالية والجنوبية، وفي أوروبا وإفريقيا، فاللبناني جريء مغامر لا يهاب الصعاب ويتحمّل في سبيل أحلامه الأهوال والمشقات.

لقد انتشر اللبنانيون في فجاج الأرض حاملين معهم فقرهم وجوعهم وتشرّدهم وشوقهم، وأغلالاً من الظلم والقهر التي زرعها المستعمرون الأتراك والفرنسيون والإنكليز، حاملين معهم أيضًا عبقريتهم وأدبهم المرهف، على حد قول الشاعر المهجري جورج صيدح:

نحن الحفاة السائرون على الحصى	نحدو السراة الراكبين خيولا
للمجد نحملهم على أكتافنا	ولربما حمل الخفيف ثقيلا
حتى إذا عثر الأديب تفرقوا	عنه فلا يجد الأديب مقيلا
طرقوا المَهاجر فاتحين وليتهم	فتحوا قلوبًا مثلنا وعقولا

نعم، حملوا (الكشة)، ومنها صنعوا وطنهم المؤقت الجديد، ولم يخجلوا بصغائر الأعمال ليقينهم أنهم أصحاب نفوس كبار، تصنع من الضعف قوة ومن القليل الكثير ومن الصمود والصبر النصر والنجاح.

كان بينهم وبين الوطن سلك دقيق لكن متين لا ينفصم، هو سلك المحبة والحنان والإخلاص، وتعصف بهم اللهفة إلى العودة التي خذلت البعض لأنهم ماتوا حيث كانوا، أو يئسوا من تحسّن الحال، فعزّ عليهم أن يعودوا إلى الوطن منكسرين خاليي الوفاض، وهم وعدوه أن يجعلوا فيه التراب ذهبًا، والماء عسلاً، والصحارى جنائن مزهرة، أو لأن بعضهم كما قلنا وصل إلى سدة المسؤولية في دولة ليست في الأساس وطنًا طبيعيًا لهم، إلا أنهم من خلال ما هم فيه خدموا وطنهم ودعموه في المحافل الدولية والمراكز الأممية.

ذهبوا إلى المهاجر، فساهموا في إحياء مواتها وازدهار عمرانها ونشاط حركتها، تشهد لهم تلك الدول بذيوع الصيت والشهرة والعبقرية والعطاء.

ومات الكثير منهم، ليحيوا هناك بأولادهم بعدهم، وارثي الهم والمعاناة والحاجة، أو وارثي الثروة والشهرة، يتابعون مسيرة الحياة التي فرضت عليهم واختاروها مُكرَهين.

إن وطننا لبنان مدين لهم اليوم وقبل اليوم وغدًا وبعد غد، بما قدّموه وفعلوه لنا في أوقات الشدة والمخاض، ربما كانوا يعطشون لنشرب، ويعرون لنلبس، ويتعبون لنرتاح، ويتحمّلون شظف العيش وغبار المصانع ودخان المعامل، وينامون على الخشن، لنحيا في بحبوحة من العيش ورخاء وسعادة.

غادروا بعد أن سُدّت في وجوههم أبواب الرزق الحلال، وبعد أن عانوا ويلات الجوع والعوز، بعد أن عزّ عليهم أن يجدوا أطفالهم أسيري المرض والفاقة، يموتون جوعًا، والاستعمار الغاشم ينقضّ عليهم فلا يترك لهم بابًا من أبواب الرزق إلا سدّه، إذ إنهم ذاقوا ويلات الحكم العثماني الغاشم، والاستعمار الفرنسي البغيض والإنكليزي الجشع، وعانوا من العملاء المحليين الذين باعوا ضمائرهم إلى الشيطان، فعُلّقت أعواد المشانق، وصودرت غلال البيادر، ومحاصيل الحقول، وسلبت الحقوق والمكتسبات، وأقفلت المطابع وصودرت الصحف، وأحرقت المكاتب ودور العبادة، وشُنق من شنق، وسجن من سجن، وهاجر معظم من بقي من الرجال والشباب هائمين على وجوههم، ممتطين البواخر والزوارق والقطارات، هاربين من جحيم لم ترحمهم نارها، ولم يخمد أوارها، منذ أكثر من مائة وعشرين عامًا وقوافل المهاجرين لم تتوقف يومًا من الأيام.

إن لبنان ذا الخمسة ملايين نسمة، يُقدر سكانه في المهاجر بعشرين مليون إنسان منتشرين وراء البحار وفي شتى دول العالم، إنه لبنان المغترب المسافر المهاجر في عيون الغمام وأذرعة السحب.

كانت الهجرة وما زالت ذات حدين، يكمل أحدهما الآخر، أناس هاجروا من أجسادهم وملذاتهم وباعوا أنفسهم لله وللوطن، مؤثرين الدفاع عنه والنضال في سبيله، ليستعيد حريته وأرضه المغتصبة، هاجروا من المنازل إلى الكهوف والمغاور والجبال والهضاب، هاجرت عيونهم من أحداقها لترصد الدخيل والمحتل، وتبقى له بالمرصاد، وتلك لعمري من أعظم الهجرات.

ومهاجرون إلى خارج الوطن، مغامرون يبنون بسواعدهم ما عجزوا عن القيام به في الوطن الأم للأسباب التي ذكرناها، والذين لازموا الوطن، رجال صنعوا الوطن على قدر ظروفهم وإمكاناتهم، متحمّلين أذى المحتل الغاصب، وسمّ الغلاء ومرارة الفقر والحرمان، محافظين على التواصل مع مهاجرينا في الخارج، ليكتمل العقد، عقد حلف النضال بينهما.

إنّ حديثي عن الهجرات الحادة، ليس له علاقة بالهجرات الأخرى الداخلية والخارجية، والتي تختلف ظروفها كليًا عن تلك التي أتحدث عنها، وسنفرد لها حديثًا مستقلاً إن شاء الله.

بين الماضي والحاضر

بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، مساحة زمنية لافتة، أكثر من مائة وثلاثين عامًا تفصل بين طرفي المرحلتين، وفيهما حصلت تطورات واختراعات واكتشافات وتحوّلات مختلفة، انعكست على الهجرة الحادة وطورّت من أطرها ووسائلها وغيّرت من أساليبها، فما كان سنة 1880م مثلاً لم يعد موجودًا على الأغلب في القرن الحادي والعشرين، إذ تطورت الحضارة الإنسانية بشكل سريع، وانفتحت الحياة على آفاق جديدة طبعت المجتمعات بسمات جديدة، فأصبحت وسائل العيش أكثر يسرًا مما عزّز من وتيرة السفر، فاقتربت المسافات البعيدة، وتحققت إنجازات هائلة على صعيد التكنولوجيا ووسائل الاتصال المختلفة، إذ بعد أن كانت الرسائل تنتظر أشهرًا لتصل إلى المحبّين من المغترب وإليه، أصبحت الآن تصل في أيام أو ساعات أو حتى دقائق، فلم يعد المهاجر يشعر بلوعة البعد ومرارة الفراق اللتين كانتا تصيبانه، بل أصبح بفعل التكنولوجيا الحديثة وأنظمة الانترنت والكمبيوتر والفاكس والبرقيات السريعة أكثر اطمئنانًا وأقلّ مرارة ووحشة، فالأهل يستطيعون مشاهدة أبنائهم في أية لحظة وهم قابعون في أماكنهم، فيرونهم ويحادثونهم ويطمئنون إلى أحوالهم، مما ينعكس إيجابًا على نفسية المغتربين وأقربائهم في الوطن ويهدّئ من لوعة الفراق والشوق، وهذا الهدوء النفسي ينعكس هدوءًا وراحة ونموًّا على عمل المغتربين ونتاجهم المادي والمعنوي والأدبي والفكري، على عكس ما كان يعانيه مهاجرونا الأوائل في بلاد الاغتراب.

ورغم مشقات السفر ومتاعبه وألم الهجرة التي ازدادت في الوقت الراهن نتيجة الغلاء الفاحش، وندرة وسائل العمل، وأولاً وقبل كل شيء نتيجة الاعتداءات الصهيونية المتكررة منذ أربعين عامًا وحتى اليوم، حتى أصبحت مدينة كبنت جبيل تحديدًا تعدّ الآن ستة آلاف نسمة بعد أن كانت تحصي ستةً وثلاثين ألف مواطن، رغم كل ما

ذكرنا فإن متاعب السفر في عصرنا الحالي لا توازي ما كان يعانيه أجدادنا وآباؤنا في الماضي، وسأورد بعض الأمثلة الحية دليلاً على ما أشرت إليه.

في مرحلة الحكم العثماني كانت الهجرة اشدّ مرارة من البقاء في الوطن، علمًا أنها كانت محظورة رسميًا ومباحة بواسطة المهربين.

كانت تضج في أعماق الفقراء والمسحوقين نزعتان: الوطن أو الهجرة، وفي كلتيهما كأنهم يتجرّعون السم الزعاف.

كان المهاجرون يُعاملون كصعاليك منبوذين مخلوعين، وكانت البواخر الصغيرة حالما ترابط في ميناء بيروت، يوفد سماسرة من ذوي الحناجر القوية إلى أسواق المدن والقرى لإذاعة نبأ وصولها وموعد سفرها، فيهرع القرويون إلى استدانة المال للسفر من المرابين، بِرهنِ كل ما يملكون من عقار وأثاث، وتبدأ عملية التهريب، السمسار يسلّم المهاجر إلى العسكري المتولّي مراقبة الشواطئ، والعسكري يصعد به من وراء الجمرك إلى ماعونة محمّلة بالبضائع، وقائد الماعونة يدخله في الباخرة بصفة حمال، وفي الباخرة يتسلّمه القهوجي ويضعه في أحد المستودعات، وبهذا الوضع يصل المسافر إلى مرسيليا في فرنسا ومنها يتسلمه سمسار جديد وينزله في خان قذر، ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أميركا، إلا حينما يفرغ جيبه من الفلس الأخير، هناك في الباخرة يلتقي بأمثاله المهاجرين، ويعيش معهم عيشة القطيع الذي تطارده الذئاب، إن صعدوا إلى ظهر الباخرة تعرّضوا للحر والبرد والأمطار والرياح، وإن احتشدوا في الطوابق السفلى كادوا يختنقون، وكم من مرة سلّط عليهم البحارة أنابيب الماء الساخن لمنعهم من الاحتجاج على سوء المعاملة، وكم من مرة حملتهم الباخرة إلى حيث لا يقصدون، وأنزلتهم البلد الذي يوافق مصلحتها. السعيد منهم من يجد على المرفأ إنسانًا في انتظاره، أو يعرف عنوانًا لنسيب أو صديق، أو من يحمل كتاب توصية يؤمّن الطعام والمأوى في الليلة الأولى.

هكذا تبدأ حياة الأديب أو أيّ مهاجر إلى الغربة، تبدأ بالتفتيش عن لقمة العيش في غربة قاسية لا يعرف فيها المهاجر أحدًا.

مغامرات قاسية خاضها المهاجرون الأوائل، يذكر الشاعر إلياس فرحات شيئًا منها من معاناته هو، حيث تنقَّل في أعمال لم تُجدِه نفعًا، فمن تربية الماشية، إلى التنضيد في مطبعة، إلى تربية الحملان في مزرعة حيوانات، إلى التجوّل لبيع (مساطر) المحلات التجارية، وهو يختم قصيدة له تحكي عن هذه المعاناة ببيت يحمل فيه كل المعاني:

أغرّب خلف الرزق وهو مشرّق	وأقسم لو شرّقت راح يغرّب

وتذكّرني معاناة فرحات بما قرأته عن معاناة زميله وصديقه في الشعر والهجرة، الشاعر القروي رشيد سليم الخوري، الذي لم يرتقِ في دنياه من شاعر متجوّل إلى صاحب متجر مقيم، يقول في قصيدة تنضح أسىً ويأسًا وخيبة قاتلة:

حنانيك ربي حنانيك ربي	لقد قصمت ظهري القاصمة
بعيد المزار غريب الديار	وحيد وها أنا في عاصمة
أيا ربي فاتحتي هكذا	فهل لك أن تحسن الخاتمة

ويذكر سليمان البستاني مترجم الإلياذة شيئًا من هذا في كتابه "عبرة وذكرى" إذ يقول: [كان المهاجر يتعرّض للاستغلال على أيدي السماسرة في مرفأ بيروت، وأنه لو حوكم ولاة بيروت على ما كانوا يؤلمون به أولئك المهاجرين البؤساء وما يبتزونه من أموال يوم سفرهم أو يوم عودتهم، لحكم عليهم بالسجن المؤبد].

وقد روت جريدة البشير أن المهاجرين عند نزولهم من الباخرة في مرسيليا كانوا يقادون كالأغنام لمحل وجد للسلب والنهب ومن امتنع عن الانقياد عولج بالضرب والتهديد، وأشارت إلى أن من رأى العائد إلى بيروت على الباخرة "برنسلين" انفطر قلبه حسرة وانتفض لاعنًا مسببي الهجرة، كما كانت الحكومة الفرنسية تقوم بطرد المهاجرين الفقراء المتوجهين إلى أميركا عبر أراضيها.

هذا قليل من كثير مما كان يحصل للمهاجرين المتعبين من قهر وإهانة وظلم.

هذه نبذ عن حياة المهاجرين في بلاد الاغتراب، وسيكون لنا بإذن الله أبحاث أخرى تكشف عن حقائق وأسرار الحياة المهجرية والأدب المهجري في الماضي والحاضر.

مصادر البحث ومراجعه

- محمد عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، مكتبة السائح، طرابلس.
- هيثم جمعة: الهجرة اللبنانية - واقع وآفاق، دون دار نشر.
- حسن جعفر نور الدين: الصعلكة والشعراء الصعاليك، ج1، دار رشاد برس، بيروت.

السنة السابعة / العدد العشرون/ كانون أول: 2011 - محرم: 1433هـ

الهوامش

1 الإجماع المحصل: أن يطلع بنفسه على أقوال العلماء وفتاواهم فيثبت عنده إجماعهم. والمنقول: هو إخبار بعض الفقهاء عن ثبوت الإجماع عنده (التحرير).

2 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص41 رقم163.

3 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص78 رقم328.

4 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص76 رقم319.

5 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص93 رقم388.

6 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج3 ص100-101 رقم 53، من عهد له (عليه السلام) إلى مالك الأشتر.

7 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج3 ص45 رقم30، من وصيته للحسن (عليه السلام).

8 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص315 ب58 ح1 و3.

9 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص313 ب57 ح1 وح2.

10 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص231 ب8 ح1.

11 مسند أحمد بن حنبل ج2 ص55.

12 وسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص179 ب24 ح5.

13 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص259 ب24 ح3.

14 وسائل الشيعة (الإسلامية) ج6 ص180 ب24 ح7.

15 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص289-290 ب41 ح2.

16 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص236 ب9 ح3.

17 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص249 ب17 ح2.

18 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص50 ب7 ح9.

19 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص128 ب13 من أبواب زكاة الأنعام ح1.

20 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص289 ب41 ح1.

21 الأعراف 32.

22 النمل 15.

23 ص 30.

24 ص 35.

25 ص 36.

26 الأنبياء 81.

27 سبأ 12.

28 ص 37- 38.

29 النمل 16.

30 النمل 17.

31 ص 39.

32 ص 40.

*) هذا المقال انتخب من كتاب لسماحته معدّ للطبع [تأملات في شرح دعاء مكارم الأخلاق].

34 أمالي الشيخ الصدوق ص467 ح622/1، الاعتقادات في دين الإمامية ص105، دلائل الامامة للطبري ص146 ح53/53، وغيرها من مصادر الخاصّة. والمستدرك للحاكم النيسابوري ج3 ص154، منصِّصًا على صحته، وراجع غيره من مصادر العامة.

35 الكافي ج2 ص84 ح1.

36 الإسراء: من الآية 84.

37 الكافي ج2 ص85؛ وعنه بحار الأنوار ج67 ص201 ح5.

38 بحار الأنوار ج67 ص204 ح12، رواه عن تفسير علي بن إبراهيم.

39 جامع السعادات ج3 ص89؛ وهو مروي في مسند أحمد ج3 ص160، عن أنس بن مالك: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سِرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حسبهم العذر).

40 بحار الأنوار ج67 ص212 ح38، رواه عن أمالي الشيخ الطوسي.

41 عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي ج2 ص11.

42 بحار الأنوار ج67 ص210 ح33، رواه عن تفسير الإمام العسكري (عليه السلام).

43 النمل: من الآية 89.

44 آل عمران: من الآية 31.

45 بحار الأنوار ج67 ص197-198، رواه عن الشيخ الصدوق.

46 الذاريات: 56.

47 انظر: بحار الأنوار ج81 ص260 ح59، عن النبي (ص): [إن من الصلاة لما يقبل نصفها، وثلثها، وربعها، وخمسها، إلى العشر، وإن منها لما يلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك].

48 آل عمران: من الآية 61.

49 وهو مروي في كتب الفريقين، راجع: بحار الأنوار ج8 ص1. وصحيح البخاري، باب غزوة تبوك ج5 ص129؛ وصحيح مسلم ج7 ص120؛ ومسند أحمد بن حنبل ج3 ص32؛ وغيرها.

50 عقدنا بحثًا في كتابنا (تأملات في دعاء كميل) في أنه ماذا يعني إقرار المعصوم بالذنوب وطلبه المغفرة؟! الطبعة الأولى، ص23، فراجع.

51 فبالرغم من كونِ أفضليَّته (ص) على جميع الخلق أمرًا ضروريًا من ضروريَّات الدين، نجدُ أن بعض المسلمين قد أنكر هذه الأفضليَّة، مدَّعيًا أنّ الملائكة أفضل منه (ص) -راجع تفسير الرازي ج2 ص216-، وقد وفَّى علماؤنا البحث حقَّه في ردِّ هذه الدعوى وغيرها، أمثال الشريف المرتضى في شافيه وشيخ الطائفة في تلخيصه وغيرهما رضوان الله عليهم أجمعين. وآخر نسبَ إلى النبيِّ (ص) أنه قال: (ولا أقول إنّ أحدًا أفضل من يونس بن متى) المسمى: صحيح البخاري ج4 ص 133، وفيه أيضًا: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) ج5 ص185!! فاقرأ وتعجَّب!! وانظر إلى شرّاحه كيف تخبَّطوا في محاولات تبرئته من هذه الكبوة المشينة.

52 اللهوف في قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس ص67.

53 ديوان مرآة الشعور ص119 من قصيدة: قطب الوجود.

54 دلائل الامامة للطبري الشيعي ص448، ومقتضب الأثر لابن عياش ص6، وغيرهما.

55 علل الشرائع للشيخ الصدوق ج1 ص184، ومناقب الإمام أمير المؤمنين (ع) للكوفي ج2 ص206، وغيرها الكثير من مصادر الخاصة. والمستدرك للحاكم النيسابوري ج3 ص156، ومجمع الزوائد للهيثمي ج9 ص202، وغيرها من مصادر العامة.

56 ديوان مرآة الشعور ص71 من قصيدة: شممتُ هواك...

57 من قصيدة: أمّ العلى، نظمتُها ليلةَ ميلادها (ع) 20 جمادى الآخرة 1432 هجرية، بجوار سَمِيَّتها أختِ الرِّضا (ع).

58 مرَّ تخريجه.

59 الأمالي للشيخ الطوسي ص668 حديث1399/6.

60 من قصيدة: أمُّ العلى، نظمتُها بعد طباعة الدِّيوان.

61 الأحزاب 57.

62 ديوان مرآة الشُّعور ص122 من قصيدة: قطب الوجود.

63 الاعتقادات في دين الإمامية للشيخ الصدوق ص93.

64 النساء من الآية 54.

65 ديوان مرآة الشُّعور ص328.

66 ديوان مرآة الشُّعور ص124.

67 مستدرك الوسائل، الميرزا النووي ج10 ص318 باب استحباب البكاء على الحسين (ع) ح13.

68 باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، ص133، دار التعارف للمطبوعات، 1983.

69 اللهوف في قتلى الطفوف ص67. وفي بحار الأنوار ج45 ص43.

70 مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (ت356هـ)، ص77

71 بحار الأنوار ج45 ص43.

72 راجع مقاتل الطالبيين ص76، وغيره.

73 مقاتل الطالبيين، الأصفهاني ص77، قال: (حتى رمي بسهم فوقع في حلقه وأقبل ينقلب في دمه ثم نادى: يا أبتاه عليك السلام هذا جدي.. الخ).

74 مقاتل الطالبيين ص77، وشرح الأخبار ج3 (ت363هـ) ج3 ص153.

75 موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص558 عن ناسخ التواريخ ج2 ص355.

76 اللهوف في قتلى الطفوف ص68.

77 شرح الأخبار للقاضي النعمان ج3 ص153.

78 مقاتل الطالبيين ص76.

79 موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص558 عن البهبهاني عن أبي مخنف.

80 منتخب الطريحي ج2 ص 213.

81 ينابيع المودة ج3 ص78، ناسخ التواريخ ج2 ص355، ومنتخب الطريحي ج2 ص 213.

82 قال حميد بن مسلم: [وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة، تنادي: يا حبيباه، يا ابن أخاه، فسألت عنها فقالوا: هذه زينب بنت علي بن أبي طالب]. راجع: مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ص77، مثير الأحزان لابن نما الحلي ص 51، واللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس ص68.

83 مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج3 ص257.

84 عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (ره) ج1 ص136.

85 نور العين في مشهد الحسين (ع) لأبي إسحاق الإسفراييني ص44.

86 صراط النجاة، فتاوى السيد الخوئي والميرزا جواد التبريزي قدس سرهما، ج1 ص440 سؤال رقم 1211.

87 مقتل الحسين للخوارزمي ص35.

88 منتخب الطريحي ج2 ص213.

89 مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ص77.

90 راجع البداية والنهاية لابن كثير ص201.

91 الأعراف: 58.

92 أبو طالب محمد سعيد ود. رشراش عبد الخالق، عوامل التربية (2)، ص62 دار النهضة العربية، ط1، 2001.

93 قرب الإسناد، الحميري القمي، ص120 ح421.

94 بحار الأنوار، ج3 ص281، ط2، 1983، مؤسسة الوفاء، بيروت-لبنان.

95 غرر الحكم ودرر الكلم،الآمدي، ص167، دار الثقافة في النجف الأشرف.

96 أبتاه، سامي خضرا، ص18، دار الهادي، 1997م.

97 مكارم الأخلاق ص86.

98 مريم: 15.

99 مريم: 33.

100 الطفل بين الوراثة والتربية، محمد تقي فلسفي، ص90-91، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

101 لقمان: 13-19.

روحية الزكاة في الإسلام

الشيخ سليمان يحفوفي

الشيخ سليمان يحفوفي

اخترنا هذا البحث من كتاب "الضمان الاجتماعي في الإسلام وأثره الوقائي ضد الجريمة] للمقدس الشيخ سليمان يحفوفي، الدار العالمية، ط1 سنة 1402 هـ -1982م.

ونحن نقتصر في المقالة على خصوص الصنف الأول من أصناف المستحقين للزكاة، وعلى البحث حول الفهم الشرعي لمهمة الزكاة، وحول إصلاح بعض المفاهيم الخاطئة حول الزكاة.

(التحرير)

تمهيد

الزكاة لغة: هي النمو والزيادة. قال في لسان العرب: وأصل الزكاة في اللغة الطهارة والنماء والبركة والمدح.

والزكاة شرعًا: هي فريضة معيّنة في أصنافٍ معيّنةٍ من الأموال إذا بلغت نصابًا.

وفريضة الزكاة قديمة قِدم التشريع، لأنها منسجمة مع الفطرة التي تحفظ التوازن، وتتماشى مع رسالة الرسل التي جاءت بالبيّنات، وما أنزل معهم من الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

وأهمية الزكاة كبيرة جدًا، حيث تحقّق الضمان الإلزامي لأفراد المجتمع، فيسود الرخاء بينهم، ويعمّ الصلاح، ويقطع دابر الجريمة، وتحقق العدالة الاجتماعية والتكافل والتضامن والتعاطف والتعاون، وتشدّ أواصر الأخوّة بين المؤمنين، وتلحق الطبقات الدنيا بالطبقات العليا في مستوى معيشتها، محقّقة رخاءً ينعم فيه أبناء المجتمع البشري الذي يحافظ على أدائها والقيام بواجباتها، لأنها الركن الرابع من الأركان التي بُني عليها الإسلام.

ولأجل أثرها الكبير، أعطيت دوراً هامًا جداً في حياة المجتمع، حيث أصبحت تمثل العمود الفقري لدى الجسم الإسلامي، واقترنت بعمود الدين -الصلاة- في أكثر الموارد في القرآن الكريم.

* * *

قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[1].

تُصرف الزكاة على ثمانية أصناف وهم المعدودون في الآية الكريمة كالآتي:

1- الفقراء 2- المساكين. 3- العاملون عليها. 4- المؤلفة قلوبهم.

5- الرقاب. 6- الغارمون 7- سبيل الله. 8- ابن السبيل.

1- الفقراء

الفقر آفة فتّاكة في المجتمع، تنخر بنيته السليمة نخرًا، وتتركه أعجاز نخل خاوية، وتسبب له من الأمراض ما يُقوّض بناءه الاجتماعي، ويقضي على هناءة العيش والراحة، ويحيله أنقاضًا.

فالفقير يعيش الموت كل يوم، يستيقظ الموتَ في صباحه، وينامه عند منامه. فحياته موت مجترّ مكرور، اجترار الأغنياء لحياته.

فـ "الفقر الموت الأكبر"[2] "فما جاع فقير إلا بما متع به غني"[3] و"الفقر منقصة للدين، مدهشة للعقل، داعية للمقت"[4]، "وإن من البلاء الفاقة"[5].

بينما الموت؛ حالة تمرّ على الإنسان مرة واحدة، يكابد مرارتها ويقاسي آلامها، ثم يستريح بعدها في نعيمه الأبدي مُنهيًا ردحًا من المعاناة، وزمنًا من الآلام، وحياة تعيسة كابدها موتًا كل يوم.

فهو يرى الموت سعادة، طالما أن الحياة شقاء، وموت مكرور.

وحتى يستوي هذا العضو في المجتمع سليمًا سويًا، ويتجاوز عقدة النقص والخوف والألم، أولاه الإسلام كامل عنايته، وبالغ اهتمامه.

فضمن له رزقه وكفايته في مرحلة أولى، كما ضمن له غناه في مرحلة ثانية، وأحاطه بكل أشكال الرعاية، لدوره الكبير في بناء المجتمع، وزعزعة كيانه عند تعرضه للحاجة والفقر، وسوء أحواله المعيشية.

فلذلك شدد علي (عليه السلام) في عهده[6] لواليه الأشتر على رفع مستواه:

[ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم، والمساكين والمحتاجين، وأهل البؤسى والزمنى.... واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لهم قسمًا من بيت مالك، وقسمًا من غلات صوافي الإسلام في كل بلد، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى، وكلٌّ قد استرعيت حقه، فلا يشغلنك عنهم بطر، فإنك لا تعذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم، فلا تُشخص همك عنهم، ولا تصعّر خدك لهم].

فهؤلاء دعائم المجتمع وركائز توازنه الذين لهم حق الرعاية والعناية الفائقة، وقد استحفظ الله أولياءه حقوقهم كما هي محفوظة لهم عنده. فلهم سهم من بيت المال مما يرفع عنهم غائلة الفقر ويدفع الحاجة، ولهم سهم من غلات أرض الغنائم مما يغنيهم ويرفع من شأنهم حتى يلحقوا بغيرهم من أغنياء مجتمعهم.

وتقع مسؤولية هؤلاء على الوالي، باعتباره مستخلَفًا على رزقه وأداء أمانته، وعليه القيام بأداء مهمته، والمحافظة على تنفيذ ما أوكل إليه مع رفض اعتذاره (في حال إهماله) بانشغاله فيما هو أهم من شؤون المسلمين، لأن الاعتناء بهم من أهم المهمات، فإذا حال دونه شيء آخر فعليه أن يفرّغ لهم من يعتني بشأنهم ويرفع إليه أمورهم. قال (عليه السلام):

[فلا تُشخص همك عنهم، ولا تُصعّر خدّك لهم، وتفقّد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون وتَحقِره الرجال، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع، فليرفع إليك أمورهم، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله يوم تلقاه، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم. وكلٌ فأعذر إلى الله في تأدية حقه إليه].

فهؤلاء بحاجة للعناية الشديدة، حتى يعتدلوا أسوياء بكامل قواهم، ويقوموا بتأدية دورهم الفاعل في الحياة كغيرهم. وعندها يستقيم الفقير، الذي كان يشكّل خطرًا على المجتمع، سويًا نشيطًا يحقق أهداف حياته، وغاية وجوده من استقامة الفطرة، وإبرازها لعالم الوجود، بإقامة الوجه للدين حنيفًا، وتحقيق المجتمع العادل في كل شيء.

فمراعاة حال الفقير تنطلق من زاوية إصلاحية تراعي كل الظروف لأبناء الهدف الواحد، حتى يتمكن كل فرد من تقديم جهده وطاقته لخدمة قضيته في المجالين القريب والبعيد، بدون عوائق تحدُّ من عبقريته أو تحول دون تفجرها.

لأن المجتمع الذي تزداد بين أفراده الفوارق الطبقية، يحمل بين حناياه روح الحقد والانتقام، وبذور التفجير والإفناء، فهو مؤهل ليتحول متفجرًا من أول شرارة تشعل فتيل الفتنة. لا بل الانتقام من المستمتعين بحقوق الفقراء، والمستأثرين بلقمة عيش المحرومين، ولا تهدأ حتى تلتهم في طريقها كل شيء، وتحيل الدنيا خرابًا ويتساقط معمورها ركامًا.

فالوقاية تحول دون الدمار، ومعالجة الأسباب تقتلع بذور الانفجار، وتضييق الشقة بين طبقات المجتمع يخلق روح التعاون والتعاضد بين أفراده للوصول به إلى الصلاح والكمال.

وإزالة الفقر منه تقوية لنقاط الضعف، وإزالة للجانب الواهن وجعله مدماكًا صلدًا في بناء الإنسانية الشامخ.

فمعالجة حالة الفقر أُولى واجبات بناة المجتمع الصالح، ولذا نجد عناية الإسلام الفائقة به.

تحديد مفهوم الفقير شرعًا

الفقير الإسلامي، هو كل من لا يملك مؤونة سنته [اللائقة بحاله له ولعياله] لا فعلاً ولا قوة.

وهذا التحديد يحفظ كرامة الإنسان، وينمي شعوره للارتفاع بنفسه نحو الأفضل، ويشد روابط الأسرة، ويوثق عراها لكونها الأساس المتين لبناء المجتمع الصالح.

ولبيان ذلك يلزمنا البحث في مسائل:

المسألة الأولى: سبب تعيين الفترة بالسنة.

المسألة الثانية: سبب إضافة ضمان عياله له.

المسألة الثالثة: المقدار الذي يعطاه.

المسألة الأولى:

يعالج الإسلام دائمًا قضايا الإنسان من شعوره الداخلي وإحساسه الباطني حتى تستقيم تلك الإحساسات، ويتوازن ذلك الشعور مع تصرفاته الخارجية، فلا يحسّ المرء بتناقض بين إحساسه وعمله.

فهو عندما يحرّك إنسانًا نحو العمل، يحاكي به، أول ما يحاكي، شعوره الداخلي، حتى تتحرك باقي الأعضاء متجاوبة معه، طلبًا للاستقامة، وتحقيقًا للفطرة، ويكون عمله نابعًا منه بمحض اختياره وإرادته، وهذا يحقّق الانسجام بين الموجودات الكونية وبين المرء ونفسه، فيبعد شبح الصراع حتى الباطني.

فكذلك عندما يريد أن يحافظ على ضمان فرد من أفراده ينطلق معه من إحساسه الداخلي بمقدار تقبّله ما يعامله به، وهو يتوافق مع مقتضى الفطرة، ويحفظ التوازن بين ذلك الإحساس والتصرف؛ لأن ميزان الإسلام مع الغير هو نفس الإنسان، "فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، واكره له ما تكره لها"[7].

وصاحب الحاجة ليس لديه الاستعداد الدائم لبذل نفسه في كل وقت لقضاء حاجته مهما بلغت، ولكنه لا يرى غضاضة بطلب حاجته مرة في السنة، خصوصًا مع شعوره بوجود من يحافظ له على كرامته ورهافة إحساسه، فكانت السّنَة تراعي كل هذه الجوانب. أضف لذلك احتمال استغنائه خلالها وتصنيفه في عداد الموسرين الذين يؤدّون الفريضة لغيرهم.

1- قال أبو بصير: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): الرجل من أصحابنا يستحيي أن يأخذ من الزكاة، فأعطيه من الزكاة ولا أسمّي له أنها من الزكاة؟ فقال (عليه السلام): أعطه، ولا تسمِّ له، ولا تذل المؤمن.

2- عن إسحاق بن عمار قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): يا إسحاق كيف تصنع بزكاة مالك إذا حضرت؟ قال: يأتوني إلى المنزل فأعطيهم، فقال لي: ما أراك يا إسحاق إلا قد أذللت المؤمنين. فإياك إياك! إن الله تعالى يقول: من أذلّ لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة[8].

3- عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي جعفر (عليه السلام): الرجل يكون محتاجًا يُبعث إليه بالصدقة فلا يقبلها. (إلى أن قال): فقال: ما ينبغي له أن يستحيي مما فرض الله له، إنما هي فريضة الله له فلا يستحيي منها.

4- عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: تارك الزكاة وقد وجبت له مثل مانعِها وقد وجبت عليه[9].

فهذه النصوص الأربعة تعالج الحالة النفسية التي يحملها الفقير المضمون، وترشد إلى أفضل الأساليب الإنسانية الواجبة الاتباع للمحافظة على الحسّ المرهف الذي يحمله هذا الصنف من بناة المجتمع الأساسيين. لكي يكون مجتمعًا صالحًا.

فالرجل الذي يستحيي من أخذ الزكاة، ويشعر بالذلة والمهانة بذلك، يُعطاها بكرامة وعزة وعفة، بدون أن تُسمّى له، حتى لو اعتقد أنها دين أو هدية.

وهذا أسلوب متحضر جدًا، ولو كان عمره أربعة عشر قرنًا، لأنه آتٍ من قِبَل عالِم السر وأخفى. وسنرى نتائجه على الساحة العملية وأثره النفسي على العاملين.

فالمضمون -الفقير- المرهف الحس ينبغي تنمية إحساسه وتربية نفسه على الشعور الدائم بأن كل أبناء مجتمعه يقاسمونه إحساسه، ويحاولون انتشاله مما يعانيه.

فبدلاً من أن نشعره بالمذلة بتسمية ما يعطاه بأنه زكاة ونجرح نفسه العزيزة. نعطيه إياها بتخييل: أنها هدية، أو دين، أو هبة، مما يحفظ له كرامة نفسه وعنفوانه.

وهذا، سينتج منه إنسانًا آخر، غير ما نعهده، لأنه سيحاول قطعًا ردّ الجميل لأهله، ومكافأة الصنيعة، وستلتهب في داخله روح العمل الدؤوب، وتزداد مشاعر الأخوّة والمحبة، لِمَا في الهدية من فعل سحري في ذهاب السخيمة وإيراث المحبة، ولِمَا تذكي من شعلة الإيمان في النفوس، وتثير من غريزة العمل لإيفاء المحسن جزاء إحسانه.

فإعزاز المؤمن، المضمون بهذا الضمان، إنما يتحقّق بقصده والمسير إليه، وتقديم الضمان له بكل تجلّة واحترام، لأن عزّته من عزّة الله، وإذلاله حرب على الله، وما الفريضة له إلا من باب الحفاظ على معنوياته العالية، وليس لامتهان كرامته.

وسؤال الإمام (عليه السلام) إلى إسحاق عن كيفية صنعه بزكاة ماله، يوضّح له خطأ تصرفه في تأدية الفريضة، لأن إتيانه إلى المنزل فيه نحو من التكبر والتعالي، حيث ينتظر المحتاجين ليقصدوه، فتخالج نفسه خطرات الشيطان ووسوسته باحتقار من يأتيه. مع أن الفريضة عبادية لا تقبل إلا بالخشوع والخضوع، وقصد القربة، وهذه صفات تتأتى من باذلها، فعليه أن يسعى بنفسه لتأديتها ليحصل معه القصد.

فإرشاد الإمام (عليه السلام) له: [ما أراك يا إسحاق إلا قد أذللت المؤمنين فإياك إياك] يفهمه بأن عليه أن يسعى هو لإعطائها، لأن القصد -أي القربة في دفع الزكاة- لا يحصل إلا بسعيك لأداء الفريضة بنفسك، أما إتيانهم إليك فإنه يفوت معه الغرض من التذلل والخشوع لله، ويذل المؤمنين الذين أعزهم الله بفرض هذه الضريبة لهم، ورفع من مستواهم بواسطتها.

فتكون النتيجة: أن المستهدف بقلة الاحترام هو الله وأن الحرب تسترصده. لأن إذلال ولي الله استهتار بمقام وليه الذي نصبه هذا المنصب، فهو الذي يتولى الدفاع عنه: **"من أذل لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة"**.

كما أنه ينبغي للمضمون أن لا يستحيي من أخذ حقه الذي أعزّه الله به وفرضه له، لأن الحرمان قُرن بالحياء، لربما استعصت على الناس أنفسهم وغلبت عليهم أهواؤهم فوجدوا في التعفف مبررًا وفي الحياء عاذرًا لهم لعدم تأديتهم ما افترض عليهم، كما جاء في حديث محمد بن مسلم: "الرجل يكون محتاجًا يُبعث إليه بالصدقة فلا يقبلها"، فعدم قبوله مع حاجته يساهم في الحرمان وتصديع المجتمع وتحريف الفطرة، مع توفر كل أسباب التكريم والاحترام، حيث أُرسلت له الفريضة ولم يأتها. فحياؤه من أخذها استهتار بمقام وليه الذي فرضها له، فهو في صف مانعها سواء بسواء: "تارك الزكاة وقد وجبت له مثل مانعها وقد وجبت عليه"، كلاهما كافران بما أنزل الله وفرض لعباده، ومساهمان في تبديل خلق الله.

أما تأديتها كما فرض الله، وأخذها كما أوجب، ففيه صلاح المجتمع ونماؤه، واستواء الأمور بما تحيي من الأنفس وتحرك فيها من الشعور بالمسؤولية وتبعث في النفوس الأخرى المعطاة روح الجد والنشاط. فتكون نامية منمية في آن، لأنه يُفضَّل إعطاء من لا يسأل على الذي يسأل منها.

واعتماد السَّنَة يفرّغ المضمون لممارسة أعماله باطمئنان عسى أن تتفجر عنده روح الإبداع والإنتاج.

عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: يأخذ الزكاة صاحب السبعمائة إذا لم يجد غيره. قلت: فإن صاحب السبعمائة تجب عليه الزكاة؟ قال: زكاته صدقة على عياله، ولا يأخذها إلا أن يكون إذا اعتمد على السبعمائة أنفدها في أقل من سنة، فهذا يأخذها.. الحديث[10].

فـ"السنة" مرحلة استقرار له حتى لو كان عنده ما يجب عليه أن يزكيه ولكنه لا يكفيه لمؤونة سنته إذا اعتمد عليه وحده وأراد أن ينفقه. فزكاة ما عنده صدقة على عياله يوسع بها عليهم حتى يلحقهم بالناس.

المسألة الثانية: سبب إضافة ضمان عياله له

المجتمع في نظر الإسلام متكافل متضامن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، فهو يعتبر كل فرد عضوًا من أعضاء هذا الجسد المتكامل، يتداعى كلّه لتداعي بعضه، فالرعوية عامة بين أعضائه، والمسؤولية مترتبة على كل فرد بمستوى احتماله.

وهذا الشعور بالمسؤولية، ينبغي له أن ينشأ من أصغر مجتمع بشري حتى يتكامل المجتمع بأسره.

والأسرة، هي الخلية الأولى المنتجة فيه، فتعاهدُها -حتى تبقى سليمةً منتجةً- يحتاج للرعاية القصوى والعناية الفائقة، لأنها نواة بناء المجتمع وسيشاد على منوالها؛ فأي عامل يؤثر عليها في دور نموها سيبقى تأثيره مستمرًا حال تكاثرها.

فالعائلة، هي العامل الأساس في سلامة المجتمع ورقيّه وحسن تربيته.

وإحساس الفرد بالرعاية والعناية ضمن الأسرة سيطبعه بهذا الطابع عندما يندمج ضمن المجتمع، وسيبقى إحساسه ملازمًا له في تعامله مع أفراد مجتمعه، ولا يشعر بتجدّد شيء يراه غريبًا عنه.

فالعناية الإسلامية بربّ الأسرة، وجعله ضامنًا لإعالة أفرادها، وَجَعْل المجتمع ضامنًا له ولأسرته؛ نحوٌ من تحضيرهم جميعًا لتحمّل مسؤولية روح التضامن والتكافل والرعاية: "فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"[11].

فالعائلة جزء الرجل، والرجل جزء المجتمع. فربطه بجزئه ربط الجزء بالكل حيث لا انفكاك.

المسألة الثالثة: المقدار الذي يُعطى للفقير:

إن ما يسعى إليه الإسلام، هو إيصال جميع أفراده إلى مستوى الغنى، حتى يزيل ما تسببه الفوارق الطبقية من كوارث، وحتى تستقيم الفطرة وتحقق العدالة.

ولكنه يُبقي على المميزات الشخصية التي يتمتع بها بعض الأفراد والإمكانيات الخاصة التي مُنحوها، فمن زاده الله بسطة في الجسم والعقل ينمي الإسلام لديه هذه الإمكانات حتى يسخّرها لصالح مجتمعه ويُبقي له ما حققته مميزاته من فضل في الرزق والجاه ضمن إطاره العام.

والغنى، في مفهومه، هو مستوى المعيشة الذي يكون سائدًا في البلاد. والنصوص واضحة في هذا المعنى، وهذه بعضها:

النص الأول:

عن سعيد بن غزوان عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: سألته كم يُعطى الرجل من الزكاة؟ قال: أعطه من الزكاة حتى تغنيه[12].

النص الثاني:

عن إسحاق بن عمار عن أبي الحسن موسى (عليه السلام): قال: قلت له: أُعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا؟ قال: نعم وزده. قلت: أعطيه مائة؟ قال: نعم، وأغنه إن قدرت أن تغنيه[13].

النص الثالث:

عن إسحاق بن عمار قال: قلت للإمام جعفر بن محمد (عليه السلام): أعطي الرجل من الزكاة مائة؟ قال: نعم! قلت مائتين؟ قال: نعم! قلت: ثلاثمائة؟ قال: نعم! قلت: أربعمائة؟ قال: نعم! قلت: خمسمائة؟ قال: نعم! حتى تغنيه[14].

النص الرابع:

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): إن شيخًا من أصحابنا يقال له عمر، سأل عيسى بن أعين وهو محتاج، فقال له عيسى بن أعين: أما إن عندي من الزكاة، ولكن لا أعطيك منها، فقال له: وَلِمَ؟ فقال: لأني رأيتك اشتريت لحمًا وتمرًا. فقال: إنما ربحت درهمًا، فاشتريت بدانقين لحمًا، وبدانقين تمرًا ثم رجعت بدانقين لحاجة. قال: فوضع أبو عبد الله (عليه السلام) يده على جبهته ساعة، ثم رفع رأسه ثم قال: إن الله تعالى، نظر في أموال الأغنياء، ثم نظر في الفقراء، فجعل في أموال الأغنياء ما يكتفون به، ولو لم يكفهم لزادهم، بلى فليعطه، ما يأكل ويشرب ويكتسي ويتزوج ويتصدق ويحج[15].

النص الخامس:

عن أبي عبد الله (عليه السلام) سأله أبو بصير فقال: إن لنا صديقًا وله دار تسوى أربعة آلاف درهم، وله جارية، وله غلام يستقي على الجمل كل يوم ما بين الدرهمين إلى الأربعة سوى علف الجمل، وله عيال، أَلَهُ أَنْ يَأْخذَ مِنْ الزَكَاة؟ قال: نعم! قال: وله هذه العروض؟ فقال: يا أبا محمد! فتأمرني أن آمره ببيع داره وهي عزّه ومسقط رأسه؟ أو ببيع خادمه الذي يقيه الحر والبرد ويصون وجهه ووجه عياله؟ أو آمره أن يبيع غلامه وجَمَله وهو معيشته وقوته؟ بل يأخذ الزكاة وهي له حلال، ولا يبيع داره ولا غلامه، ولا جمله[16].

النص السادس:

عن أبي الحسن (عليه السلام) سأله بشر بن بشار، قال: ما حدّ المؤمن الذي يُعطى الزكاة؟. قال: يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف. ثم قال: أو عشرة آلاف[17].

هذه بعض النصوص الكثيرة الواردة في تعيين المقدار الذي يُعطى للفقير، ومن دراستها جيدًا، تتضح الغاية من العطاء؛ وهي الغنى، بدون أن تحدد الكمية.

والغنى، مفهوم مرن، يتفاوت بين عصر وعصر، وزمان وآخر، خصوصًا إذا لاحظنا بعض النصوص التي لم نوردها، والقائلة بإعطاء الفقير حتى يلحق من يعول به بالناس؛ فإلحاقهم بالناس هو عيشهم بمستوى المعيشة السائدة في مجتمعهم.

فروح الزكاة الواقعية هي تأدية هذا المفهوم؛ والنهوض بأفراد المجتمع الضعفاء إلى مستوى رفيع، متناسب مع مستويات عامة الناس، وما الفريضة إلا لتحقيق هذا المطلب.

ونفهم ذلك بوضوح من حديث أبي عبد الله (عليه السلام): سأله رجل في كم تجب الزكاة من المال؟ فقال له: الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟ فقال: أريدهما جميعًا! فقال: [أما الظاهرة، ففي كل ألف خمسة وعشرون، وأما الباطنة فلا تستأثر على أخيك بما هو أحوج إليه منك][18].

فروح الزكاة، هي ما تبطن من معانٍ يقصد تحقيقها، وهي القضاء على الطبقية والتفاوت بين أفراد المجتمع، فعدم استئثار الفرد على أخيه بما يكون أحوج إليه منه يشيع عدالة رفيعة المستوى، يندر تحقيقها إلا من خلال الإسلام النابع من الداخل؛ والذي يشعر الفرد معه بأن ما في يده يجب أن يسخّره لقضاء حاجة أخيه [لأن الأخوّة أرفع شأنًا من المال وما جعل إلا صونًا لها]، ويشعر الآخر بأن ما في يد أخيه لقضاء حوائجه، فيكون أدعى في نفسه للحفاظ عليه، وحب ازدياده بين يديه.

ويتحقّق عندها التوازن في المجتمع، وإزالة الفوارق بين الأفراد، فالمال للجميع وبخدمة الجميع.

وما دون هذا المستوى يكون من ظاهر الزكاة -وليس من روحها- وهو ما يصل بالفقير إلى حد الغنى.

فالنصوص الأول والثاني والثالث تؤكد بأن العطاء حتى الغنى؛ باختلاف تعابير السؤال، ووحدة الغاية في الجواب.

فالنص الأول يقول: [أعطه من الزكاة حتى تغنيه]، وهو صريح في المطلوب مباشرة وذلك لأن السائل دخل إلى مطلبه مباشرة، عندما سأل: كم يُعطى الرجل من الزكاة؟.

أما النص الثاني؛ فكذلك صريح بالعطاء حتى الغنى، وفرقه عن الأول أن السائل أخذ يتدرج بالسؤال: [أعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا؟ مئة؟ إلخ...] والجواب بعد موافقة مقتضى السؤال: [أغنه!] وهي الغاية من العطاء.

ونفس الأمر في النص الثالث، مع اختلاف تدرج السائل المتكرر، فاختصر بالجواب الطريق التي ربما تطول، بعدما تكرر متدرجًا خمس مرات، بأن أعطه حتى تغنيه فليس هناك قدر معين يتوقف عنده العطاء، أو رقم محدد، وإنما هو مفهوم يختلف من ظرف لآخر، فعندما يتحقق المفهوم يتوقف العطاء.

أما النص الرابع، ففيه ثورة على المفاهيم المتحجرة التي استقاها بعضهم بطريقته الخاصة.

فهل كانت هذه الفريضة، تخصّ الأموات حتى تجهزهم لدار الآخرة؟ وما حاجة مشرِّعها لإنفاقها في الآخرة -دائرة اختصاصه سبحانه وحده-؟ وما حاجة المشرَّعة لهم، في مكان يتعذر على منفقها إيصالها لهم وانتفاعهم بها؟.

فمن أين تسربت مفاهيم حرمان من يشتري اللحم والتمر من الزكاة؟ وهل شرعت لشراء الأكفان، فلا يستحقها إلا من أصبح على حافة قبره؟ إنه فهم يستدعي الألم، والأسى، والتفكّر الطويل، وهو مداعاة لوضع اليد على الجبهة والحزن العميق، [فوضع أبو عبد الله (عليه السلام) يده على جبهته ساعة].

ثم يستدعي رفع الرأس: لإفهامها كلمة صريحة وواضحة لجميع الناس، إنها فريضة المواساة، إنعاش الفقير، رفع مستواه، كفايته، لا بل غناه، [فجعل في أموال الأغنياء ما يكتفون به]، [بلى فليعطه، ما يأكل ويشرب، ويكتسي ويتزوج، ويتصدق ويحج].

فالعطاء منها لا يتوقف عند أكل اللحم والتمر، بل يتجاوزه لكل ما لذ وطاب، من أكل وشراب، ويزيد عنه بالاكتساء والتزويج، وهذا ما يضمن كل متطلبات الفرد للحياة والاستقرار، لأنها شرّعت لإزالة الفوارق الطبقية، وإيجاد التوازن الاجتماعي، فلا تتوقّف عند هذا الحد، بل هي ثورة عارمة على الامتيازات والطبقية، وقوة ضاغطة في اتجاهين متعاكسين للتقارب بين كل الفئات في المجتمع، فتفرض في أموال الأغنياء ما يرفع الفقراء إلى مرتبة الغنى.

فيُعطى الفقير منها [فوق الكفاية] ما يتصدّق به ويحجّ مما يجعله في صف الأغنياء المتصدقين.

وشتان ما بين مفهوم الحرمان، بسبب دانقين لشراء اللحم، وبين الأخذ منها، للحج والتصدق.

وسيزيد الفرق وضوحًا بخصوص هذه الناحية فيما تبقّى من النصوص. وخصوصًا النص السادس الصادر بنفس خصوصيات الزمان والمكان والذي يقول: [يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف ثم قال: أو عشرة آلاف].

فبين الحرمان بسبب درهم واحد يُشترى بثلثيه لحمًا وتمرًا، وبين إعطائه عشرة آلاف ضعف يبطل القياس، وتتعطل المفاهيم، ويُحتاج معه إلى وقفة تأمل وتدبر جديدتين لاستيعاب ما تعنيه هذه الفريضة على الصعيد العملي، وما ترمز إليه على الصعيد الروحي.

والنصّ الخامس يوضح الناحيتين العملية والروحية. ويعالج قضية واقعية:

رجل صديق:

- عنده دار تسوى أربعة آلاف درهم.

- وله جارية تسوى من المائتين إلى الألف درهم.

- له غلام عامل يسوى من المائتين فصاعدًا.

- له جمل يعمل عليه الغلام ويدر عليه يوميًا أربعة دراهم صافية - بعد مصاريف العمل - ويسوى الجمل من المائة درهم فصاعدًا.

- وله عيال.

- فهل يأخذ من الزكاة؟

فكان الجواب: نعم!

فكان تعجب السائل شديدًا! كيف يأخذ من الزكاة وله كل هذه العروض؟.

لنفهم أولاً ما هو مقدار مالية الرجل في هذه المسألة، لنعرف سبب تعجب السائل وروحية الزكاة من التحليل:

ففي السؤال يملك صديقه العروض المتقدمة، وهي تعادل تقريبًا بين الخمسة والستة آلاف درهم.

وبمعدل عملتنا المتعارفة هذه الأيام تكون ملكية الشخص ستمائة نعجة، لأن ثمن النعجة عشرة دراهم حسب النص الآتي:

عن أبي جعفر (عليه السلام) -في حديث زكاة الإبل- قال: وكل من وجبت عليه جذعة ولم تكن عنده، وكانت عنده حقّة دفعها، ودفع معها شاتين أو عشرين درهمًا (...) ومن وجبت عليه ابنة لبون ولم تكن عنده وكانت عنده حقّة دفعها، وأعطاه المصدّق شاتين بعشرين درهمًا[19].

فنجد أن الشاتين بعشرين درهمًا أخذًا أو عطاءً.

وستمائة شاة تعادل في زماننا مستوى جيدًا في أي نوع من العملات قدّرناها، فلذلك استدعى الاستهجان من السائل لأنها عروض كثيرة فكيف يأخذ بعدها من الزكاة؟

أضف إلى ذلك بأن رؤية الناس بأن مشتري اللحم بدانقين -أي ثلث درهم- لا يستحق الزكاة، فكيف من يملك مئات بل آلاف الأضعاف من أمثاله؟

2- الفهم الشرعي لمهمة الزكاة

يختلف الفهم الشرعي لمهمة الزكاة عن فهم المتشرّعة: فهي في اعتبار الشارع تقوم بأداء دور المساواة، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وجعل البشر طبقة واحدة في مستوى المعيشة، لا يفضل أحدهم على الآخر إلا بالمميزات الشخصية، الموهوبة له تكوينيًا لا تشريعيًا، بما يعقبها من فضل بالرزق.

أما روح الزكاة، فهي الفريضة التي يُجبر على تأديتها المستخلف، عند تخلفه عن تأدية مهمة الاستخلاف، وتحقيق غايتها [وهي عدم الاستئثار على الأخ بما هو أحوج إليه]، فتقوم الفريضة بتأدية هذا الدور في الحدود الممكنة، لأن المال مال الله جعل خواتيمه في الأرض لصالح عباده، فلا فضل لمجتنيه إلا فضل الوسيط في إيصال ما اؤتمن عليه.

[فالزكاة هي مال الفقير يتصرف بها كيف يشاء في طريق الغنى والتوسعة على نفسه بدون معارض أو منتقد].

عن سماعة عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: إذا أخذ الرجل الزكاة فهي كماله يصنع بها ما يشاء (...) فقلت: يتزوج بها ويحج منها؟ فقال: نعم. هي ماله. قلت: فهل يؤجر الفقير إذا حج من الزكاة، كما يؤجر الغني صاحب المال؟ قال: نعم[20].

فالمهمة الواقعية، والروح الحقيقية للزكاة، هي إزالة الطبقية والإثرة المالية، من المجتمع والنهوض بالفقير إلى أعلى المستويات المعيشية ليتصرف عن غنى، بالتزوج والحج والتصدق وكل المميزات التي يتمتع بها أثرياء المجتمع وله نفس أجرهم فيما يعطي ويهب.

ومن هذه الناحية رأينا أن جواب الإمام كان على المسائل الثلاث الأُوَل، بنعم. وأردفها (عليه السلام) بـ"أغْنِهِ" أو "حتى تغنيه"، واستنكر على من استعظم إعطاء الزكاة (لمن يملك دارًا وجارية وغلامًا وجملاً) في النص الخامس عندما قال السائل "وله هذه العروض" استهجانًا لإعطائه؟.

فأجابه الإمام بأعظم من استهجانه وبأشد ما يكون بقوله: "يا أبا محمد! فتأمرني".

بالغًا بإجابته ذروة الأدب والكمال -في تكنيته- وغاية الاستهجان في استنكاره لمقولته: بقوله "فتأمرني" وموضحًا له بُعيد ذلك حكمة وعلة إنكاره عليه ما صدر عنه، ومفهمًا إياه كنه الزكاة وعلة التشريع.

فتفسير قولك: "وله هذه العروض" بأنه ينبغي له أن يستغني عنها أو بعضها ويعتاش بأثمانها، فعماذا يستغني؟ "فتأمرني أن آمره ببيع داره؟" وهي عزّه ومسقط رأسه ولله العزّة وللمؤمنين. وقد مرّ معنا: من أذلّ لي وليًا فقد أرصد لي بالمحاربة.

والزكاة ليست لإنقاذ الإنسان من الموت إنما هي النماء، والنماء والتنمية: الانتقال دائمًا إلى الأحسن والأفضل. فأين هذا من بيع داره؟!.

أم يستغني عن خادمه؟ فآمره ببيعه! وهذا يقوم بشؤونه، ويصون وجهه، ويحفظ عياله، ويقيه الحر والبرد. فهل من الإحسان إليه ونماء حاله تجريده منه حتى يعتاش ويتدنّى مستواه وتزيد الفوارق وتتوسع الطبقية وتتفاوت المستويات في المجتمع؟

أم آمره ببيع غلامه وجمله، وأطلب إليه الاستغناء عنهما، وفيهما معيشته وقُوْتُه اليومي. فإذا فقدهما جلس يتكفّف الناس، وهبطنا بمستواه إلى الصفر، وجعلناه كَلاًّ على المجتمع الذي نريد إنعاشه وإزالة جميع الظواهر المرضية من صفوفه.

والزكاة مسخرة في هذا الاتجاه، ومفروضة لإيجاد هذا المناخ في حياة البشر، ولرفع مستوى المعيشة إلى أسمى المراتب، فيأخذ منها، وهي له حلال، ولا يبيع شيئًا من عروضه.

بل حقيقتها، أكبر مما في أفكار المتشرّعة بكثير، كما جاء في النص السادس: قال (عليه السلام): "يُعطى المؤمن ثلاثة آلاف أو عشرة آلاف".

فالإعطاء غير المحدود والمردّد بين الثلاثة آلاف وأكثر من ثلاثة أضعافها -دفعة واحدة-، وخصوصًا مع مقارنتها بأسئلة المتشرعة "أعطي الرجل من الزكاة ثمانين درهمًا" وهو يستكثرها، والآخر يستكثر عليه بثلث درهم لحمًا. ويقفز الرقم فجأة إلى عشرة آلاف ضعف عما في أذهانهم ولا يتوقف عندها، مما يدل على الروحية التي أعدت الزكاة لإنمائها، والمستوى الذي يراد من تداولها تحقيقه.

والرقم قد يقفز فجأة إلى ثلاثة أضعافه مرة أخرى وأخرى حسبما يكون مستوى المعيشة والأشخاص. فتركه حرًا، وارتفاعه دفعة بهذه المضاعفة، دليل على مرونته لاستيعاب كل الحالات مهما كانت مستعصية.

ولو وقفنا عنده في زمن صدوره لهالنا ما يشتمل عليه، فعشرة آلاف درهم عبارة عن ألف نعجة، تُعطى دفعة واحدة لشخص واحد ولمدة سنة. فماذا تعني؟ تعني: غنى الدهر. الذي يريده الإسلام أن يسود مجتمعه.

فنماؤها هي الزكاة الحقيقية والتي تفي بحاجيات متلقيها، وهي الزكاة الواقعية، والمفهوم الحقيقي لمعناها -أي النمو- وهكذا ينمو المجتمع الإسلامي في مستوى من الرفاهية والغنى، والتكافل والتضامن.

(تعليق)

سمعت مساء اليوم الخميس 20 آب 1981 توجيهًا من السلطات المغربية إلى الشعب المغربي بتوفير استهلاك اللحوم في عيد الأضحى المبارك القادم، حيث يضحي الشعب المغربي بما يزيد على ثلاثة ملايين رأس غنم تبلغ قيمتها ثلاثمائة مليون دولارٍ أميركي.

وذلك بسبب الجفاف الذي أصاب المغرب هذه السّنَة وأنقص الثروة الحيوانية مما سيضطر السلطات -إذا مارس الشعب عادته بالأضحية كالسابق- إلى استيراد اللحوم من الخارج لانتهاء السنة الحالية.

وهذا يعطي فكرة عن الممارسات الإسلامية لو طبقت كما أراد لها الشارع بوجهتها الصحيحة، فإن مبلغ ثلاثمائة مليون دولار، تنفق في يوم واحد على الأضحية المستحبة ولإطعام الفقير بالخصوص، لو أنفقت في سبيله لإيجاد مورد ثابت له لكان نتاجها يرفع الفقير إلى مستوى الأغنياء، ولحلّ أزمة كبيرة مما يعانيه الفقراء من حرمان وتشرّد.

3- إصلاح مفاهيم خاطئة عن الزكاة

من مجموع النصوص المتقدمة (وما لم نذكره) عن الزكاة قد يستفاد أن الفهم العرفي عنها، هو رفع الحاجة الملحّة عن الفقير، وبعبارة أخرى هو إنقاذه من الموت فقط.

وهذا ينافي مفهومها الحقيقي، وما تضمنته النصوص عنها، فإن لفظها معناه النماء، فأين التنمية من إنقاذ الإنسان من الموت؟

ولعل ذلك تأتّى من دعوة الشريعة للزهد في الدنيا، فطبّقت الأمور في غير مواردها، وأعطيت عكس مفاهيمها.

فالزهد في الدنيا، أن لا تملكك وتصبح أسيراً لديها، وليس الزهد أن لا تملك الدنيا.

{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}[21] فزينة الله أخرجها لعبادة ليتزينوا بها لا ليُحرَموها.

والطيبات من الرزق، أخرجها لهم ليأكلوها، ويستمتعوا بها، لا ليخلفوها. فزينة الله والطيبات من الرزق، خالصة للذين آمنوا في الدنيا، لأنهم أحقّ بها، فإذا حرموها بمنع مانع أو تعدي متعدٍ، بعدم تأديتها، فهي خالصة لهم يوم القيامة لا يشاركهم بها غيرهم.

فليس من شأن الله، أن يحرم عباده المؤمنين خير ما أخرج لهم من زينة وطيبات، فهو سبحانه سخّرها لهم امتحانًا ليضعوها مواضعها، ويصرفوها في مصارفها، فمن تعدى حدود الله كان هلاكه عن بينة.

فالدنيا إذا أقبلت، كان أحقّ الناس بها أخيارها لا فجارها، لأنهم يقيمون وجوههم للدين حنيفًا، ويحقّقون الفطرة.

نعم ربما -أو كثيراً- ما يبتلي الله المؤمن بالفقر، ليمتحن صبره ويجزيه عليه، ولكن الفقر ليس من صفات المؤمن الملازمة له، فهو أعزّ وأكرم على الله من ذلك، ويظهر فضله وكرامته بصبره على امتحان من يحب، وإذا أحب الله عبداً ابتلاه.

وقد يحلو لدعاة التحلل، أن يصوّروا الفقر ملازمًا للإيمان، ليبعدوا ضعفاء الفكر عنه.

وبإعطائنا نظرة عن ملك سليمان بن داود (عليه السلام)، يظهر لنا ما للمؤمنين عند ربهم في الدنيا والآخرة.

فأول الأشياء التي كان يتمتع بها سليمان (عليه السلام)، الإيمان القوي والعلم الذي فاق إيمان وعلم كثير من المؤمنين: **{وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ }**[22].

وثانيها: هداية العلم له ليؤوب إلى ربه ويعود إليه في كل حالاته: **{وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ}**[23].

خصوصًا في حالات السعادة والخير، التي ينسى الناس بها ربهم، بينما هو يعود إليه، ليطلب منه المزيد، ويؤدي شكر الموجود. فيقول: **{قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ}**[24].

فيستجيب له ربه لقدرته على كل شيء.

وثالثها: جريان الريح بأمره في كل حالاتها فلا فرق عنده في إنجاز مهمته بين حسن الأحوال الجوية ورداءتها، فالريح العاصفة بأمره والرخوة رهن إشارته: **{فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ}**[25]؛ **{وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ}**[26]؛ **{غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ}**[27].

ففي كل يوم يقطع بها مسافة شهرين من المسير.

ورابعها: كان يتميّز ويتمتع بما سخّر الله له: **{وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ}**[28].

فكل أنواع الشياطين، تعمل تحت إمرته على اختلاف اختصاصاتهم ومهاراتهم، مما يعجز عنه البشر، فمنهم البنّاؤون الذي يجيدون فن الهندسة والعمران، ومنهم الغواصون الذين يستخرجون اللآلىء والحلي والكنوز، -وأفضل ما يتزيّن به الإنسان في بنائه وصدره-، ومنهم مقرنون بالأصفاد يعملون الأعمال الشاقة ويؤدون المهمات الصعبة.

وخامسها: **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ}**[29] فمنطق الطير كان يعرفه، وكانت الطيور بإمرته، تكتشف له ما يطلبه منها، لأن لها خبرات لم تكن لغيرها، فكانت تضعها تحت تصرفه، فكان يصرفها متى يريد ويجمعها متى شاء.

{وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ}[30].

{هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[31].

فمنَّ واختار أفضل الخيارين، ففاز بأبقى الدارين.

{وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[32].

لقد وصل سليمان عليه أفضل الصلاة والسلام، إلى منيته، وبلغ غايته فيما دعا به ربه، من الملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده ولم نعلم منذ يومه بل منذ خلق البشرية وحتى يومنا هذا، أحداً تمكن من بلوغ ملكه. ومعه بلغ أعلى المراتب في القرب من الله، والتنعم بالآخرة، وتميّز بالإيمان في الدنيا.

فظهر أن الإيمان يجتمع مع الغنى. فملك نصاب من كل صنف من أصناف الزكاة لا يخرج المالك عن الفقر بالمفهوم الإسلامي، طالما أنه لم يتوصل إلى حد الكفاية، لأنها الحد الفاصل بين الفقر والغنى، أي بين الاستحقاق للزكاة وعدمه. وإن كان المفهوم العرفي أو مفهوم المتشرعة يختلف عن ذلك.

الهوامش

1 التوبة 60.

2 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص41 رقم163.

3 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص78 رقم328.

4 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص76 رقم319.

5 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج4 ص93 رقم388.

6 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج3 ص100-101 رقم 53، من عهد له (عليه السلام) إلى مالك الأشتر.

7 نهج البلاغة، شرح محمد عبده، ج3 ص45 رقم30، من وصيته للحسن (عليه السلام).

8 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص315 ب58 ح1 و3.

9 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص313 ب57 ح1 وح2.

10 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص231 ب8 ح1.

11 مسند أحمد بن حنبل ج2 ص55.

12 وسائل الشيعة (آل البيت) ج6 ص179 ب24 ح5.

13 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص259 ب24 ح3.

14 وسائل الشيعة (الإسلامية) ج6 ص180 ب24 ح7.

15 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص289-290 ب41 ح2.

16 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص236 ب9 ح3.

17 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص249 ب17 ح2.

18 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص50 ب7 ح9.

19 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص128 ب13 من أبواب زكاة الأنعام ح1.

20 وسائل الشيعة (آل البيت) ج9 ص289 ب41 ح1.

21 الأعراف 32.

22 النمل 15.

23 ص 30.

24 ص 35.

25 ص 36.

26 الأنبياء 81.

27 سبأ 12.

28 ص 37- 38.

29 النمل 16.

30 النمل 17.

31 ص 39.

32 ص 40.

النية

السيد علي السيد حسين مكي

السيد علي السيد حسين مكي*

النيّة في اللغة: القصد والعزم. يقال "نوى السفر" أي قصد السفر وعزم عليه.

والنيّة بالنسبة للعمل جوهره وأساسه، إذ بدونها لا يتحقق العمل ولا يتعيّن الهدف. ولذلك قيل: إنه من الصعب أن يكون عمل بلا نيّة، وإلا كان حاله حال الساهي والنائم.

والنيّة مما يستقل العقل بها وبضرورتها في كل الأعمال، لأن الإنسان ذو هدف وغاية.

والنيّة في العبادة أمر لازم وواجب، وهو الذي عليه الفقهاء عامة، وإلا فسدت العبادة، بمعنى أن النية في العبادة جزء من العمل، وهي توجب سقوط التكليف، ويخرج المكلف بها عن عهدته.

وقد حُدّد معنى النية شرعًا: أن يقصد المكلف الإتيان بالعمل امتثالاً لأمره تعالى.

ويدل على ذلك الإجماع المُحَصَّل والمنقول[1]، وحكمُ العقل بضرورتها. وأما الأدلة اللفظية من الآيات الكريمة والأخبار الشريفة، فدلالتها على ذلك محل كلام ومناقشات طويلة، ومحل البحث في هذا الموضوع "الفقه" و"الأصول"، فراجع ذلك في مبحث "التعبدي والتوصلي" في الأصول، وفي مبحث "النية في الوضوء" في الفقه.

النية جوهر الأعمال

والنية مقامها عظيم، وأثرها كبير، فهي روح العمل وثمرته، إذ هي التي تُبلور العمل وتظهره على حقيقته من حيث كونه عَمَلَ خيرٍ أو عمَلَ شرٍّ، ومن حيث كونه ذا هدف أو بلا هدف.

وقد أشارت لهذا الأمر الأخبار الشريفة:

ورد عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليه السلام)، قال: [لا عمل إلا بنية][2].

وورد في الحديث: قال أبو عبد الله (عليه السلام): [إنما خُلّد أهل النار في النار، لأن نياتهم كانت في الدنيا أنْ لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبدًا، وإنما خلّد أهل الجنة في الجنة لأنَّ نياتهم كانت في الدنيا أنْ لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبدًا. فبالنيات خلّد هؤلاء وهؤلاء. ثم تلا قوله تعالى: **{قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ}**[3][4].

وبالنية يستحق الإنسان الثواب والعقاب، ويفوز بالسعادة الأبدية أو الشقاء الأبدي، ويحصل له الخير الواسع أو الشرّ الجامع.

ورد في الحديث عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام)، قال:

[إذا كان يوم القيامة أوقف المؤمن بين يديه، فيكون هو الذي يلي حسابه، فيُعْرَض عليه عمله، فينظر في صحيفته، فأول ما يرى سيئاته، فيتغير لذلك لونه، وترتعش فرائصه، وتفزع نفسه. ثم يرى حسناته فتقرّ عينه وتسرّ نفسه، وتفرح روحه، ثم ينظر إلى ما أعطاه الله من الثواب فيشتد فرحه. ثم يقول الله للملائكة: هلمّوا الصحف التي فيها الأعمال التي لم يعملوها. قال: فيقرؤونها فيقولون: وعزتك، إنك لتعلم أنا لم نعمل منها شيئًا، فيقول: صدقتم، نويتموها فكتبناها لكم، ثم يثابون عليها] [5].

وفي حديث آخر، أن النبي (صلى الله عليه وآله) لما خرج إلى غزوة تبوك قال:

[إن بالمدينة أقوامًا، ما قطعنا واديًا، ولا وطأنا موطئًا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة، إلا شاركونا في ذلك وهم في المدينة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ فقال (صلى الله عليه وآله): حسبهم العذر، فشاركونا بحسن النية] [6].

وأيضًا ورد في الحديث عن موسى بن جعفر عن آبائه (عليهم السلام):

[أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أغزى عليًا في سرية، وأمر المسلمين أن ينتدبوا معه في سريته، فقال رجل من الأنصار لأخٍ له: أُغزُ بنا في سرية عليٍّ، لعلنا نصيب خادمًا أو دابة أو شيئًا نتبلّغ به. فبلغ النبي (صلى الله عليه وآله) قوله، فقال: إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، فمن غزا ابتغاء ما عند الله عز وجل فقد وقع أجره على الله عز وجل، ومن غزا يريد عرض الدنيا أو نوى عقالاً لم يكن له إلا ما نوى] [7].

والروايات بهذا المضمون متعددة.

وحيث اتضح أنه لا بدّ من النية، وأنها جوهر الأعمال، كان لا بدّ أن تكون النية والمقصد هو الله سبحانه وتعالى، فإنه منتهى الغايات والآمال، والمقصد التام.

كما ورد على لسان سيدنا ومولانا أمير المؤمنين (عليه السلام)، قال:

[ما عبدتك خوفًا من نارك ولا طمعًا في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك] [8].

وكذلك ما ورد عن سيد الساجدين وزين العابدين، الإمام علي بن الحسين (صلى الله عليه وآله)، قال: [إني أكره أن أعبد الله ولا غرض لي إلا ثوابه، فأكون كالعبد الطَّمع المطمع، إن طمع عَمِلَ، وإلا لم يعمل، وأكره أن لا أعبده إلا لخوف عقابه، فأكون كالعبد السوء، إن لم يخف لم يعمل. قيل: فَلِمَ تعبُدُه؟ قال: لما هو أهله، بأياديه عليّ وإنعامه] [9].

وحصر النية بهذا الشكل -بأن يكون الله وحده في القلب والخاطر- يجعل الإنسان في مقام الطاعة المطلقة والعبودية المطلقة والمعرفة التامة، وبهذا يمتاز العبد في رحلته إلى الله عز وجل، فإن الشعور والإحساس بالعبودية لله سبحانه علامة التكامل في الإنسانية.

العبادة بقصد الثواب أو خوف العقاب

الناس في عبادتهم لله على ثلاثة أصناف، كما أشار الإمام الصادق (عليه السلام) لذلك، قال (عليه السلام): [إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الحُرَصاء، وهو الطمع. وآخرون يعبدونه فَرَقًا من النار، فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكني أعبده حبًا له عز وجل، فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن، لقوله عز وجل **{وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}**[10]، ولقوله **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}**][11] [12].

فالقسم الثالث هو أرقى أنواع العبادة، وإن كانت الأقسام الأخرى ترتقي بالإنسان إلى مقام الطاعة والانقياد، وإلى القرب من الله سبحانه.

إن الإنسان في مسيرته الأخلاقية والعرفانية يمكن أن يسير إلى أبعد من آفاقه وحدوده، لأن الله سبحانه وتعالى جعل فيه القوى المتعددة والإمكانات الكثيرة التي يصل بها إلى آفاق المعرفة والكمال.

إن المطلوب من الإنسان أن يتحرك نحو المعرفة ويسير بكمالاتها ليتمكن من خدمة الله سبحانه ويوفّق إليها، فيكون مهيّئًا دائمًا وأبدًا لدعوة الحق واستجابة الدعوة.

إن العيش في كنف الله وخدمة الله هو غاية ما يتأمله الإنسان ويتوقّعه -إنْ وفّق لذلك-، فهو غاية الغايات. ومعنى هذا هو أن لا يرى في الوجود شيئًا سوى الله سبحانه وتعالى، وعلى أساسه تتمحض علاقته بالله وتقوى وتتفرّد.

وأهم أنواع هذه الخدمة والعلاقة هو [العبادة]. والعبادة أنواع متعددة، فالصلاة عبادة، والذكر عبادة، والتفكّر عبادة، وقراءة القرآن عبادة، والتسبيح والتهليل والصلاة على النبي وآله عبادة.

والمهم في كل هذا أن يستشعر العبد المؤمن أن وجوده لم يكن عبثًا، وإنما كما قال الله سبحانه وتعالى: **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}**[13].

وهذه العبادة يمكن أن تكون في كل شأن من شؤون الإنسان، وفي كل حركة وسكنة يمكنه من خلالها أن يتقرّب إلى الله سبحانه ويكون متوجهًا إليه سبحانه وتعالى ويكون في خدمته دائمًا وأبدًا.

وقد يُسأل: إن العبد إذا عبد ربه خوفًا من ناره أو طمعًا في جنته هل يمكن أن يحصل على الثواب الذي أعده الله للعابدين والمتقربين أم لا؟

والجواب: أن هذا "القصد" إذا كان هو الدافع إلى عبادة الله سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله هو الربّ الذي يُعبَد فلا يُخِلُّ هذا القصد بالإيمان، وإن كان لا يصل به إلى مرتبة الأوصياء والأولياء الخلّص، لأن مرتبة أولئك إنما هي لتمحُّضهم لله وانقطاعهم الكلي إليه سبحانه بحيث لا يوجد إلا الله في عقولهم ونفوسهم وقلوبهم. أما نحن فمرتبتنا دون ذلك بكثير، ولذلك فثوابنا على مقدار توجّهنا وانقطاعنا إلى الله سبحانه.

ويؤكّد هذا ما ورد في الصلاة من أن الثواب في الصلاة يكون على مقدار التوجّه بها والانقطاع بها إلى الله، وإلا فقد تُلفّ الصلاة كما يلفّ الثوب ويُضرب بها وجه المصلي، لأن قلبه منشغل بأمور أخرى[14]. نعم يسقط بها التكليف أي لا تجب إعادتها، لأن الثواب شيء متعلق بالتوجه والانقطاع بها إلى الله، والتكليف متعلق بالأداء، فإذا أدّاها وقلبه مشغول يسقط بها التكليف فقط، اللهم إلا أن يكون انشغال المصلي في أثناء صلاته بحيث لا يَعْرِفُ أولها من آخرها وكيف هي، فهذه تكون باطلة!

فحالنا غير حال الأوصياء والأولياء، إنهم دائمًا في خدمة الله، وإذا انقطعوا بشرب الماء مثلاً عن خدمة الله عَدُّوا ذلك ذنبًا واستغفروا منه، وعلى هذا المعنى يُحمل ما ورد في دعاء كميل الذي علّمه أمير المؤمنين (عليه السلام) لكميل بن زياد: **(اللهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوْبَ الَّتِي تَهْتِكُ العِصَمَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِيَ الذُّنُوْبَ الَّتِي تُنْزِلُ النِّقَمَ.. إلخ)**. وإلا كيف يصح القول بالعصمة مع أنه يفعل الذنوب؟!

ومن هنا نقول للبعض الذي فسّر دعاء كميل بقوله: "ألا تشعر: أن عليا (ع) لا يزال خائفا، ولا سيما أن الذنوب والخطايا التي طلب من الله سبحانه وتعالى أن يغفرها له، هي من الذنوب الكبيرة التي يكفي ذنب واحد لينقصم الظهر منها": يا ويلك من هذا القول، وساعد الله الإمام من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين لا يفهمون واقع العصمة ولا الإمامة، وهل من المعقول القول بالعصمة للإمام ثم القول بأنه يفعل الذنوب؟!

والتوجيه الصحيح ما ذكرناه: من أنهم (عليهم السلام) لما كانوا دائمًا وأبدًا في خدمة الله، فإنهم يعتبرون انشغالهم بمثل الأكل والشرب من المباحات ذنبًا، لانقطاعهم في هذه اللحظات عن خدمة الله.

كما نقول للأشخاص الذين لم يفهموا ولم يعرفوا مقام علي (عليه السلام) ومكانته عند الله وعند رسوله (صلى الله عليه وآله): إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) لم يجعله الله سبحانه وتعالى نفسَ رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث قال جلّ وعلا: **{فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**[15]، إلا لأن عليًا (عليه السلام) بلغ المنزلة الرفيعة في كل الأمور، وأعطاه الله كل ما للنبي (صلى الله عليه وآله) ما عدا النبوة، كما قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله):

>يا علي، أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي<[16].

فأنّى لهؤلاء وغيرهم أن يفهموا عليًا (عليه السلام)؟![17].

وأعود للقول: بأن العبادة لله هي الانقطاع الكامل لله سبحانه، والتوجه إليه توجّهًا ينفي من قلبه كل العلائق والأفكار المنافية، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن ينفي كل شيء فإن في المحاولة إلى أن يكون كذلك موجبًا للارتقاء إلى مراتب الكرامة والوصول إلى خدمة الله بما يليق بشأنه ومقامه.

ومن هنا كانت مراتب الأولياء والعُبّاد تختلف باختلاف السلوك والمجاهدات، فإن المجاهدة للنفس تعني ترويضها على الالتزام بالطاعة وعلى الابتعاد عن الأهواء والشهوات على اختلاف أنواعها. لأن النفس عندما يطلق لها العنان في أهوائها وميولها ونوازعها تبتعد عن الحق وعن الواقع وتتكاسل في الطاعة والالتزام الذي يرتقي بها إلى الكمال والفضائل. لأن الكمالات أشبه ما تكون بالقيود والحواجز التي تقيّد النفس وتحجزها عن الانطلاق في مجالاتها التي كلُّها لهو وعبث وغفلة، ولذلك تصاب بالضيق والحزن إذا ابتعدت عما تميل إليه في سبيل كمالها ورقيّها وصفائها.

إن الكمال الإنساني وإن كانت له مقومات عديدة، من العقل، والعقلانيات، والمعرفة، والعلم، والالتزام بالأحكام والأخلاق والآداب، والعمل الدائم الدائب في مختلف الشؤون التي يتوصل بها الإنسان إلى سدّ الفراغ الذي يؤثّر عليه، إلا أن الواقع أن "الكمال" هدف أساسي ينبغي أن يُطلب ويُرتقى به إلى الإنسانية الحقة التي هي الغاية، وما فوقها غاية.

فمجاهدة الأولياء لأنفسهم ليست عن الأكل والشرب فقط، وإنما مجاهداتهم ترتقي إلى تكميل أنفسهم وتسخيرها دائمًا وأبدًا في خدمة الله سبحانه، فيبعدونها عن الأهواء؛ أما المحرمات فلا يقربونها أبدًا، وأما الأهواء المحلَّلة فهذه أيضًا لا يتوسلون إليها إلا بالمقدار الذي يتوجب عليهم مراعاته لأنفسهم أو لغيرهم -وإن كانت عبادة وطاعة من جهة أخرى كما لا يخفى-، وما تبقّى فهم دائمًا في خدمة الله سبحانه بشكل مطلق.

فالمجاهدة عندهم: هي الارتقاء في تهذيب النفس وتكميلها والسير بها إلى آفاق الكرامة والعزّة التي تجعلهم دائمًا في قرب من الله سبحانه وتجعلهم دائمًا وأبدًا يستشعرون العبودية المطلقة لله. فإن أول الواجبات والأساس في عملية تقويم [النفس] وتهذيبها وإن كان هو أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات.. إلا أن الارتقاء بها في مراتب الكمال يحتاج إلى ترويض عال للنفس، لا بترك المحرم وفعل الواجب فحسب، بل بمحاربة الهوى والإعراض عما يجعل نفسه أسيرةَ الرغبة وحبيسةَ الشهوة وقرينةَ الهوى، اللهم إلا ما يوصل إلى الله سبحانه من طرق الطاعات والمستحبات، وبذلك يكبح جماح "النفس" من أن تنخرط في عالم الأهواء والرغبات والشهوات.

إن هذه المعاني حين تملأ آفاق النفس والعقل والروح، يشعر المرء بأنه قد تجرّد عن عوالم المادة، وسار في طريق الهدى والإيمان بنحو لا يرى غير الله سبحانه.

هذا المعنى ليس بالأمر السهل، ولكنه ليس من المستحيلات في عالم الإنسان.

فالحاصل: أنه بعد مرحلة العبادة، تأتي مرحلة ترويض النفس وتأديبها، وذلك يكون -كما أشرنا إليه- بجعل النفس مبتعدةً عن الأهواء والشهوات والميول التي تشغلها عن التوجّه إلى الله وذكره، ومنصرفةً إلى الطاعات وموجبات الخير والرحمة والأنس بالله سبحانه وبما عنده وبما يوجب القرب منه تعالى: من الدعاء، والذكر، والمناجاة، والاستغفار، والتسبيح، والتهليل، والتعظيم، وقراءة القرآن، والابتهال إليه، والتفرّغ لخدمته، والعيش في آفاق رحمته وإحسانه وعفوه وخدمته.

إن مجاهدة النفس عمليّة شاقّة، لأن النفس كلما منعتَها عن هواها وعن رغباتها تزداد تعلّقًا بما تهوى، وتزداد تعنتًا نحو ما تريده، بل قد توجد لها الأعذار والموجبات بترك ما ينفعها وما يصل بها إلى دار الكرامة والرضا والقبول من الله سبحانه.

إن كمال النية إنما يكون بإزاحة العلل والموجبات التي تؤثر فيها من الأهواء والشهوات والرغبات غير الراجحة، أو التي تزيد في التعلق بالأهواء وتوجب الانصراف عن الحق وخدمته وعن التوجه إلى الله سبحانه.

وقد ورد في دعاء كميل: [واجعلني من أوفر عبادك نصيبًا عندك]، أي أكثرهم.

فعلى الإنسان أن يكون دائمًا صحيح النية سليمها، يهذبها بالصفاء والنقاء وبالطاعات والمستحبات ودوام الذكر، والاستمرار على أن يكون دائمًا في خدمة الله سبحانه، ومتنبهًا لما يُخشى من تأثيرها على مسيرته الحقّة من المحرمات والشبهات، وما يحيط بالإنسان من عوامل داخليّة تنبع من داخل نفسه، وخارجيّة مما يراه ويشاهده من الأعمال غير اللائقة بالإنسان.

() هذا المقال انتخب من كتاب لسماحته معدّ للطبع [تأملات في شرح دعاء مكارم الأخلاق].

الهوامش

* الإجماع المحصل: أن يطلع بنفسه على أقوال العلماء وفتاواهم فيثبت عنده إجماعهم. والمنقول: هو إخبار بعض الفقهاء عن ثبوت الإجماع عنده (التحرير).

2 الكافي ج2 ص84 ح1.

3 الإسراء: من الآية 84.

4 الكافي ج2 ص85؛ وعنه بحار الأنوار ج67 ص201 ح5.

5 بحار الأنوار ج67 ص204 ح12، رواه عن تفسير علي بن إبراهيم.

6 جامع السعادات ج3 ص89؛ وهو مروي في مسند أحمد ج3 ص160، عن أنس بن مالك: (قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سِرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال: حسبهم العذر).

7 بحار الأنوار ج67 ص212 ح38، رواه عن أمالي الشيخ الطوسي.

8 عوالي اللئالي، ابن أبي جمهور الأحسائي ج2 ص11.

9 بحار الأنوار ج67 ص210 ح33، رواه عن تفسير الإمام العسكري (عليه السلام).

10 النمل: من الآية 89.

11 آل عمران: من الآية 31.

12 بحار الأنوار ج67 ص197-198، رواه عن الشيخ الصدوق.

13 الذاريات: 56.

14 انظر: بحار الأنوار ج81 ص260 ح59، عن النبي (ص): [إن من الصلاة لما يقبل نصفها، وثلثها، وربعها، وخمسها، إلى العشر، وإن منها لما يلفّ كما يلفّ الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها، وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك].

15 آل عمران: من الآية 61.

16 وهو مروي في كتب الفريقين، راجع: بحار الأنوار ج8 ص1. وصحيح البخاري، باب غزوة تبوك ج5 ص129؛ وصحيح مسلم ج7 ص120؛ ومسند أحمد بن حنبل ج3 ص32؛ وغيرها.

17 عقدنا بحثًا في كتابنا (تأملات في دعاء كميل) في أنه ماذا يعني إقرار المعصوم بالذنوب وطلبه المغفرة؟! الطبعة الأولى، ص23، فراجع.

المذاهب الأربعة

(مقتطف من كتاب الشيخ أسد حيدر)

نشأتها وشهرتها وانتشارها

مقتطف من كتاب الشيخ أسد حيدر

(الإمام الصادق (ع) والمذاهب الأربعة)

بتصرف يسير

مُقدِّمة

قبل البحث عن حياة أئمَّة المذاهب الأربعة لا بُدَّ من ذكر أسباب نشأتها، وكيف تمَّ الالتزام بها دون غيرها من المذاهب، حتى أصبح الوقوف عند قول إمام معيَّن لازمًا، ولا يُمكن استنباط حُكم شرعي لأي أحد سوى أولئك القوم الذين وقفت قافلة التشريع الإسلامي عندهم، فأصبحوا المصدر للتشريع والمرجع الأعلى في الدِّين، حتى ادُّعي استحالة الاجتهاد لمَن بعدهم، فأغلق بابه في وجوه المُسلمين.

وغلقُ باب الاجتهاد جمود للتشريع ووقف لتطوُّر حياة الأمَّة، فتلك أمور يلزمنا النظر فيها، ولا نستطيع فهمها إلا بعد أن ندرس الظروف التي تكوَّنت فيها فكرة التمذهب بمذهب إمام معيَّن، ونبحث عن أسباب نشأتها وعوامل انتشارها، فهل كانت دواعي الانتشار بسبب القيم العلمية والروحيَّة؟ أم أنَّها استندت إلى السلطة التنفيذيَّة؟ وهل كانت مُستقلة عن تأثير السلطة أم أنَّها كانت عرضة لذلك؟ وهل أخضعتها السلطة لمُتابعتها أم أنَّها خضعت باختيارها لأغراض الولاة؟

وسيتَّضح لنا ذلك عندما نبحث عن نشأة المذاهب.

نشأة المذاهب

على أثر النجاح الذي أحرزته الجماعات التي تعمل في الخفاء ضد النظام الأموي طلع نجم بني العباس، وكان لهم نشاط سياسي في المجتمع، فهم في طليعة رجال حركة الانقلاب الذي أحدثته الأمَّة لتحويل الحُكم من البيت الأموي إلى البيت العلوي، وكان العباسيون أشد الناس حماسًا في إيقاد نار الثورة انتقامًا من الأمويين لأبناء علي (عليه السلام)، وكان شعار الثورة هو الدعوة إلى الرضا من آل محمد (عليهم السلام)، وكانوا بذلك يتغلغلون في أوساط الناس، وبواسطة هذا الشعار أوجدوا لأنفسهم مكانًا في قيادة تيار النقمة وتوجيه الثورة، وهم في قرارة أنفسهم يستغلون شمولهم بتسمية أهل البيت (عليهم السلام) وقد أخفوا نواياهم حتى حين، إذ ليس من السهل أن يكاشفوا شيعة أهل البيت (عليهم السلام) أو أن يُصرّحوا بعزمهم على العمل لأنفسهم كبيت عباسي مُستقل، ولو

فعلوا ذلك قبل نجاح الثورة فمن المُؤكد أنَّ جماعات الثوار سترفضهم أو تتخذ ما يُناسب ذلك من المواقف، لأنَّ الأمر في أذهان الناس لا يعدو آل محمد (عليهم السلام) ولا يتجاوز البيت العلوي الذي كان قطب الرحى في المسيرة، وأي عمل يكشف عن نوايا العباسيين المُبيَّتة سيُؤدِّي إلى ابتعاد كثير من الثوار عنهم.

على هذا ثارت الأمَّة وانتظمت صفوفها التي نالت الانتصار في تلك الحروب الدامية، ومُحيت أميَّة من صفحة الوجود، ثُمَّ نال العباسيون ثمرة ذلك الغرس بمُسايرة الركب ومُجاراة المشاعر، فتاقت نفوسهم إلى انتحال هذا الاسم عسى أن يُوفَّقوا لإقناع الأمَّة بانطباقه عليهم فتكون لهم حُكومة وراثية، وتمنحهم الأمَّة ثقتها التامَّة.

وبالطبع فإنَّ هذه الفكرة لا تلاقي كثير قبول عند العرب وخصوصًا في المدينة وفي مكَّة في الخصوص، لذلك وجَّهوا عنايتهم إلى الموالي، فأهل المدينة أعرف بآل محمد (عليهم السلام) وأدرى بنزول الآيات فيهم، وأحاديث النبي (صلى الله عليه وآله) ووصاياه في آله، ولأنَّهم شاهدوا تلك الأعمال التي عامل الأمويون بها آل محمد (عليهم السلام) وتألَّموا لها، فكان كل واحد منهم يُنكر ذلك ويتمنَّى مُناصرتهم، فلا يُمكنهم أن يجعلوا العباسيين هم آل محمد (عليهم السلام). وحذرًا من إنكار العرب وانضمامهم لجانب العلويين اقتضت سياستهم أن يوجِّهوا العناية إلى الموالي، وهم يأملون من وراء ذلك تثبيت قواعد المملكة اليوم، والنقمة من العرب يومًا آخر.

المدينة والحركة العلميَّة

كانت المدينة المنورة مصدرًا للفتيا ترجع الأمَّة إلى علمائها في مهمَّات التشريع الإسلامي لأنَّها مركز العلم وفيها أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) والتابعين لهم بإحسان، وقد لاحظت الدولة الأموية من قبل هذه المسألة، وهي اتجاه الأنظار إلى المدينة لأنَّها الجامعة الإسلامية ويُخشى على الدولة خطرها، فكانت تَحذرهم أشد الحذر، فاستمالت أكثر الفقهاء بالعطاء والرجوع إليهم في المهمَّات، لتسدَّ بذلك ثغرة الخطر على الدولة.

وفي العهد العباسي نشطت الحركة العلمية وكان طبيعيًا أن تنتعش العلوم في ظل سلطانهم، لأنَّهم كانوا يجعلون حقَّهم في الإمامة قائمًا على أنَّهم سلالة النبي (صلى الله عليه وآله)، وكانوا يقولون إنَّهم سيُشيِّدون نظامًا على سُنَّة النبي (صلى الله عليه وآله) وأحكام الدِّين الإلهي.

فنهض أهل البيت (عليهم السلام) وبقية العلماء لنشر العلم إذ وجد المسلمون حرية الرأي، والتفّوا حول آل البيت (عليهم السلام) لانتهال العلوم من موردهم العذب، وكان الإمام الصادق (عليه السلام) هو الشخصية التي يتطلع إليها الناس فحملوا عنه إلى سائر الأقطار، وقصده طلاب العلم من الأنحاء القاصية، وفتحت مدرسته في تلك الفترة فكان المُنتمون إليها أربعة آلاف طالب[1]، وهذا النشاط العلمي لا يروق للدولة الفتيّة التي قامت على أطلال الدولة الأموية بدون حق شرعي، وإنَّما هو في صالح العلويين، وانضمام العباسيين إليهم كان بداعي الانتقام من بني أمية التي جرَّعتهم كأس الغصص، فهم كسائر البيوتات التي انضمت لهذه الدعوة، ولكنَّهم نشطوا بالحيلة،

وتغلَّبوا باصطناع المعروف لآل البيت (عليهم السلام) فكانوا في حذر متواصل من العرب عامَّة ومن المدينة خاصَّة، فأهل المدينة قد وقفوا على حقيقة البيعة وأنَّها لآل علي (عليه السلام) دون بني العباس، كما أنَّهم كانوا في طليعة مَن بايع محمد بن عبد الله بن الحسن وفي رقبة السَّفاح والمنصور بيعته، فكيف يستقلان بالأمر وينقضان تلك البيعة؟

ولكنَّ السَّفاح استطاع بمهارته استجلاب قلوب الناس إليه وتثبيت قواعد ملكه على أيدي الفرس، لأنَّه لا يأمن وثبة العرب لجانب العلويين، فهم في نظر العباسيين أنصار بني علي (عليه السلام) لا أنصار بني العباس، كذلك كان من سياستهم في بدء الدعوة قتل كل مَن يتكلم بالعربية في بلاد فارس[2].

ومضى السَّفاح وجاء المنصور، وهو ذلك الرجل الحديدي الذي يقتحم مواقع الخطر، ولا يتهيَّب من إراقة الدماء، ولا يقف أمامه حاجز ولا يردعه وازع ديني في سبيل تركيز دعائم ملكه، إذ كان الخطر مُحيطًا به من كل الجهات وأمام غايته حواجز لا يتخطَّاها إلا بالتجرُّد عن العاطفة، ففتك بأهل البيت (عليهم السلام) وبكثير من العباسيين أنفسهم، وأبعد علماء المدينة ونصر الموالي وأوجد تلك المعركة القوية، وهي معركة أهل الحديث وأهل الرأي.

فقرَّب فقهاءَ العراق القائلين بالقياس، وأحاطهم بعنايته ليُحوِّل أنظار الناس إليهم، وبذلك تقلّ قيمة علماء أهل المدينة الذين كانت الأقطار الإسلامية عيالاً عليهم، إذ هم حملة الحديث وأوثق الناس فيه.

أهل الحديث وأهل الرأي

وكان الحديث في العراق قليلاً ولكن انفتح فيه باب الرأي والقياس، وقد عمل به حماد بن إبراهيم النخعي المتوفى سنة 95 هـ 713 م، وأبو حنيفة المتوفى سنة150هـ عن حماد، وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي لأنَّ عنايتهم بتحصيل وجه من القياس والمعنى المُستنبط من الأحكام وبناء الحوادث عليها، وربَّما يُقدِّمون القياس الجلي على آحاد الأخبار، وطريقتهم أنَّ للشريعة مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شُرِّعت، فجعلوا هذه المصالح أصلاً من أصول الأدلَّة إذا لم يجدوا نصًا في الكتاب والسنة الصحيحة عندهم، وقد كانت قليلة العدد لبُعد العراق عن موطن الحديث.

وأمَّا أهل الحديث فلم يجعلوا للقياس والرأي في استنباط الأحكام هذا المحل، واتسعت شقَّة الخلاف واحتدم النزاع وافترق أهل الفتيا إلى فرقتين.

وبعد أن كان هذا النزاع علميًا محضًا أصبح ممتزجًا بالسياسة أو التعصُّب، وتعددت فيه عوامل التفرقة لتستند السلطة إلى أقوى الفريقين، واتسع نطاق الخلاف، فترى مالك بن أنس يحط من كرامة العراقيين ويتحامل عليهم ويُعلن بقوله: [أنزلوهم منكم منزلة أهل الكتاب، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا آمنَّا بالذي أنزل إلينا وإليكم وإلهنا وإلهكم واحد][3].

ودخل عليه محمد بن الحسن الشيباني فسمعه يقول هذه المقالة ثُمَّ رفع رأسه فكأنَّه استحيى فقال: [يا أبا عبد الله أكره أن تكون غيبة، كذلك أدركتُ أصحابنا يقولون، وكان يقرأ إذا نظر إلى العراقيين {تعرف في وجوه الذين كفروا المُنكر}...] [4].

وكان يُسمِّي الكوفة دار الضرب، يعني أنَّها تضع الأحاديث كما تُخرج دار الضرب الدراهم والدنانير، وقال عطاء لأبي حنيفة: من أين أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أنت من أهل القرية الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا [5].

ومهما يكن من الأمر فقد تعصَّب كل فريق إلى بلده وتنابزوا، وعُيِّر أهل المدينة بسماع الغناء، وأهل مكَّة بالمُتعة، وأهل الكوفة بالنبيذ، واشتدت عصبية كل قوم لبلادهم، وحملتهم على وضع الأخبار في مدح كل منهم قومه وبلده وذمِّ مُقابله، وعظم الانشقاق بين الطائفتين، وبالطبع فإنَّ الكوفة تضعف عن مُقابلة الحجاز، ولكنَّ السياسة الزمنية اقتضت أن تكون إلى جانب أهل الرأي لا حُبًا بهم ولكن بُغضًا بأهل المدينة، وأصبح لكل جانب أنصار ومُتعصبون فكان مالك بن أنس في طليعة أهل الحديث، وأنصاره من الحجاز سفيان الثوري وأصحابه، وزعيم أهل الرأي أبو حنيفة وأصحابه وكثير من فقهاء العراق.

فالشافعي أخذ عن مالك وأصحابه، وأحمد المُتوفى سنة 241 هـ 820 م أخذ عن الشافعي المُتوفى سنة 204 هـ وأصحابه.

وإنَّما سُمُّوا أصحاب الحديث لأنَّ عنايتهم بتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام على النصوص، ولا يرجعون إلى القياس.

يقول الشافعي: إذا ما وجدتم لي مذهبًا ووجدتم خبرًا على خلاف مذهبي فاعلموا أنَّ مذهبي ذلك الخبر [6].

وتبعه أصحابه، وهم: إسماعيل بن يحيى المزني، والربيع بن سليمان الجيزي، وحرملة بن يحيى، وأبو يعقوب البويطي، وابن الصباح، وابن عبد الحكم المصري، وأبو ثور، وغيرهم.

وأما أصحاب الرأي، فهم: أبو حنيفة النعمان بن ثابت، وأصحابه: محمد بن الحسن الشيباني، وأبو يوسف القاضي، وزفر بن الهذيل، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وأبو مطيع البلخي، وبشر المريسي، فهؤلاء عُرفوا بأهل الرأي وقالوا إنَّ الشريعة معقولة المعنى ولها أصول يُرجع إليها، ولاقتناعهم بمعقولية الشريعة وابتنائها على أصول مُحكمة فُهمت من الكتاب والسنة كانوا لا يُحجمون عن الفتوى برأيهم ـ وأما أصحاب الفريق الأول، فإنَّهم يقفون ولا يتعدون حدود النص ـ وكان أصحاب الرأي يُحبون معرفة العلل والغايات التي من أجلها شُرِّعت الأحكام، ورُبَّما ردُّوا بعض الأحاديث لمُخالفتها لأصول الشريعة، ولا سيما إذا عارضها حديث آخر.

وبهذا افترقوا على فرقتين -كما قدّمنا- أهل حديث وأهل رأي، أو أهل المدينة وأهل الكوفة، مع العلم بأنَّ أهل العراق لا يُقاسون بأهل المدينة في الحديث، فكان القياس عندهم أكثر وعليه يبنون غالب فتاواهم، ونشط سير الحركة العلمية في ذلك العصر.

نشوء المذاهب

أصبح النشاط العلمي واسع النطاق، فكان في كل بلد إمام له مذهب يُنسب إليه، وكثرت المذاهب والمنتمون إليها، إلا أنَّ أكثرها اعتراها الانقراض ولم يُكتب لها البقاء، وكان لمُؤسسيها الذين كثر أتباعهم مكانة سامية، رُبَّما فاقوا في نظر مُعاصريهم وذوي العلم منهم رؤساء المذاهب الذين وقفت قافلة الفقه عندهم، واقتصر استنباط الأحكام عليهم، ولكن عوامل انتشار مذاهبهم عجزت عن مُسايرة الظروف فلم يُكتب لها البقاء، ومُحيت من صفحة الوجود ولم يبق لأبناء السُّنة منها إلا الأربعة:

المالكي، والحنفي، والشافعي، والحنبلي، أمَّا المذاهب التي انقرضت فهي كثيرة، نذكر منها:

1- مذهب عُمر بن عبد العزيز المُتوفى سنة 101 هـ 720 م.

2- مذهب الشعبي المُتوفى سنة 105 هـ 723 م.

3- مذهب الحسن البصري المُتوفى سنة 110 هـ.

4- مذهب الأعمش المُتوفى سنة 148 هـ 764 م.

5- مذهب الأوزاعي المُتوفى سنة 157 هـ 773 م.

6- مذهب سفيان الثوري المُتوفى سنة 161 هـ 777 م.

7- مذهب الليث المُتوفى سنة 175 هـ.

8 - مذهب سفيان بن عيينة المُتوفى سنة 198 هـ 814 م.

9- مذهب إسحاق المُتوفى سنة 238 هـ.

10- مذهب أبي ثور المُتوفى سنة 240 هـ 854 م.

11- مذهب داود الظاهري المُتوفى سنة 270 هـ 833 م.

12- مذهب محمد بن جرير المُتوفى سنة 310 هـ 923 م.

13- مذهب عبد الله بن أباض[7].

وغيرها من مذاهب المسلمين التي تتفق أحيانًا وتفترق أحيانًا أخرى في كثير من المسائل الشرعية، وهناك مَن جعل في تعداد هذه المذاهب مذهب عائشة، مذهب ابن عُمر، مذهب ابن مسعود ومذهب إبراهيم النخعي.

ولزيادة البيان نذكر طرفًا من حياة بعض أولئك العلماء ورؤساء المذاهب:

سفيان الثوري

أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي المُتولد سنة 65 هـ وتوفي بالبصرة سنة 161 هـ متواريًا عن السلطان، وعدَّه ابن قتيبة في عداد الشيعة، وهو أحد الأئمة المُجتهدين، وله مذهب لم يطل العمل به لقلَّة أتباعه وعدم مُؤازرة السلطة له، إذ كان طريدًا يخشى سطوتهم وهم يطلبونه حتى مات مُتخفيًا عنهم، وهو أحد تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) وخِرِّيج مدرسته، وكان إمامًا من أئمَّة المُسلمين، وقيل روي عنه عشرون ألف حديث، وكان والده سعيد بن مسروق من مُحدثي الكوفة ووثَّقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي.

نشأ الثوري في مسقط رأسه الكوفة نشأة صالحة وكان بيته معروفًا وله مكانة في مُحيطه، فهو من فقهاء العراق الذين تُشدُّ إليهم الرحال في طلب العلم، وأراد المنصور قتله فلم يتمكن، ودُعي إلى القضاء فهرب، كان يتحرَّى مواقف الصدق في مواجهة العباسيين ويعمل على الاستمساك بتعاليم الدِّين، فلمَّا عزم المنصور على ابن أبي ذؤيب أن يقول رأيه فيه واستعفاه ابن أبي ذؤيب وأصرَّ المنصور، قال ابن أبي ذؤيب: [أشهد أنَّك أخذت هذا المال من غير حقه فجعلته في غير أهله، وأشهد أنَّ الظلم ببابك فاش][8]، فلمَّا انصرف لقيه سفيان الثوري فقال له: [يا أبا الحارث لقد سرَّني ما خاطبتَ به هذا الجبَّار، ولكن ساءني قولك له: ابنك المهدي، فقال: يغفر الله لك، يا أبا عبد الله، كُلنا مهدي، كُلنا كُنَّا في المهد][9].

وبقي مذهبه معمولاً به إلى القرن الرابع.

سفيان بن عيينة

أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، مولاهم -أي مولى الهلاليين- الكوفي المُتوفى سنة 198 هـ كان إمامًا عالمًا أخذ العلم عن الصادق (عليه السلام) والزهري وابن دينار وأبي إسحاق وغيرهم، وروى عنه الشافعي وشعبة ابن الحجاج وخلق كثير، قال الشافعي: [ما رأيتُ أحدًا فيه من آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيتُ أكف عن الفتيا منه][10]، وكان ثقة العجلي والشافعي وغيرهم، وقال الشافعي: [لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز][11]، وله مذهب يُعمل به ولم يطل عمره فانقرض في القرن الرابع، لقلَّة أتباعه وأنصاره وعدم مُلاءمته لسلطان عصره، ودُفن ابن عيينة بمكَّة.

الحسن البصري

أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري المُتوفى سنة 110 هـ، كان من التابعين وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأمُّه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي (صلى الله عليه وآله).

نشأ بوادي القُرى، وكان من أجمل أهل البصرة حتى سقط عن دابته فحدث بأنفه ما شوَّه خلقته، وكان مُؤازرًا لبني مروان يشد أزرهم وله علاقة وثيقة مع الولاة والأمراء ويُلاقي منهم الإكرام، وكان لهم في ثغر البصرة بقوَّة الدفاع أعظم من الجيوش المُدرَّبة في ساحات الحرب، هكذا في الأصل حتى قالوا: [لولا لسان الحسن وسيف الحجَّاج لوُئدت الدولة المروانية في لحدها وأخذت من وكرها][12]، وكان مُدلِّسًا في حديثه كما نص عليه الحفاظ، ولم يطل العمل بمذهبه.

كان الحسن البصري يتفق مع سياسة الدولة الأموية، ويروي عن علي (عليه السلام)، فإذا حدَّث عنه قال: [قال أبو زينب ـ يعني عليًا ـ][13] مُجاراةً للدولة التي اقتضت سياستها أن لا يظهر اسم علي (عليه السلام)، ونُقل عنه أنَّه تكلم في علي (عليه السلام) فقال له أبان بن عياش: [ما هذا الذي يُقال عنك أنَّك قُلته في علي؟ فقال: يا ابن أخي أحقن دمي من هؤلاء الجبابرة ولولا ذلك لسالت بي الخشب][14][15].

وكان له مجلس علم حاشد بالعلماء لعظيم منزلته من الدولة، وفي مجلسه نشأت فكرة [الاسم والحكم] التي كانت أساسًا لمذهب الاعتزال.

الأوزاعي

عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي إمام الشاميين المُتوفى سنة 157 هـ.

انتشر مذهبه بالشام كما انتشر مذهب مالك في الحجاز ومذهب أبي حنيفة في العراق، وعمل أهل الشام بمذهبه مدة من الزمن، وانتشر بالأندلس ثُمَّ اندرس مذهبه وحلَّ محله مذهب الشافعي، وعندما عُيِّن محمد بن عثمان الشافعي قاضيًا على دمشق حكم بمذهب الشافعي، وهو أول مَن نشره هناك، وبقي مذهب الأوزاعي إلى سنة 302 هـ.

وكانت للأوزاعي شخصية مرموقة في عصره، ولم يُعدم العناية من السلطة، فقد كان في العهد الأموي مُحترمًا مُبجَّلاً لأنَّه على شاكلتهم، ومن المُؤيدين لدولتهم، والمُناصرين لهم، واتخذته السياسة رمزًا دينيًّا لأغراضها الخاصة، وفي العهد العباسي قرَّبوه لمكانته عند أهل الشام، فكانوا يستميلونه ويُقرِّبون محله، وكان المنصور يُعظمه ويُراسله لأنَّه عُرف عنه الانحراف عن آل محمد (عليهم السلام) كما يتَّضح لنا ذلك من تتبع آرائه وأقواله،

يروي الأوزاعي [بعث إلي أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل فأتيته، فلمَّا وصلت إليه وسلَّمت عليه بالخلافة ردَّ علي واستجلسني ثُمَّ قال لي: ما الذي أبطأ بك عنَّا يا أوزاعي؟ قال: قلتُ: وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ قال: أريد الأخذ عنكم والاقتباس منكم][16].

وأمَّا منزلته العلمية فلا تُنكر في عصره وبعد عصره، روى ابن القطان عن مالك بن أنس أنَّه قال: [اجتمع عندي الأوزاعي والثوري وأبو حنيفة فقلتُ: أيهم أرجح؟ قال: الأوزاعي][17]، ومات في خلوة في الحمام، وذلك أنَّ زوجته أوقدت له كانون فحم وأغلقت الباب عليه فمات.

ابن جرير الطبري

أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد بن غالب الطبري، المتولد سنة 224هـ بآمد الطبرستان، وتوفي ببغداد في 26 شوال سنة 310 هـ.

هو من المجتهدين فلم يُقلد أحدًا وله مذهب عُمل به مدة، واعتنقه جماعة منهم أبو فرج المعافى بن زكريا النهرواني المعروف بابن طراز.

قال محمد بن إسحاق بن خزيمة: [ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير][18]، وقال الخطيب البغدادي: [كان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًا بالسنن وطرقها، صحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومَن بعدهم...][19].

داود بن علي الظاهري

أبو سليمان داود بن علي بن خلف المعروف بالظاهري، ولد في الكوفة سنة 202 هـ ونشأ ببغداد وتوفي فيها سنة 270 هـ وكان له لون خاص في التشريع، لعمله في الظاهر.

استمر العمل بمذهب داود إلى القرن السابع الهجري، وكان من أتباعه وأئمة مذهبه: عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي المتوفى سنة 610 هـ، ومحمد بن الحسين المشهور بالميورقي المتوفى منتصف القرن السادس، ومجد الدين عمرو بن حسن بن علي بن محمد بن فرج المتوفى سنة 623 هـ وكان من المُحدِّثين.

ومن أئمَّة هذا المذهب أيضًا أبو محمد بن حزم[20] صاحب الفصل في الملل والنحل وصاحب المُحلَّى على قواعد المذهب الظاهري.

قطع هذا المذهب شوطًا من الزمن بخُطىً ثقيلة، ولكنَّا نراه يُسرع في خُطاه وينتشر بنطاق واسع عندما تولَّى المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المُؤمن وأعلن تمسُّكه به، وأعرض عن مذهب مالك الذي غمر المغرب بانتشاره، فعظم المذهب الظاهري وكثر أتباعه، وانقطع علم الفروع وخاف الفقهاء سطوة السلطان عندما فرض اعتناق هذا

المذهب، وأمر بإحراق كتب مذهب مالك، كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد، والتهذيب للبردعي.

قال في المعجب: [ولقد شهدت منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس يُؤتى منها بالأحمال فتوضع ويُطلق فيها النار][21].

واستمر المذهب وعدَّه المقدسي في [أحسن التقاسيم] من المذاهب الفقهية[22].

الليث بن سعد

أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن المولود سنة 92 هـ والمتوفى يوم الخميس أو الجمعة منتصف شعبان سنة 175 هـ بمصر، وقد دفن بالقرافة الصغرى ويُعتبر قبره أحد المزارات هناك، وله مكانة علمية ومذهب يُعمل به، كان يُقرن بمالك بن أنس، يقول الشافعي: [الليث أفقه من مالك إلا أنَّ أصحابه لم يقوموا به][23]، وكان ابن وهب تُقرأ عليه مسائل الليث فمرت به مسألة فقال رجل من الغرباء: أحسن والله الليث كأنَّه كان يسمع مالكًا يجيب فيجيب هو، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو، والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدًا قط أفقه من الليث[24].

وكان أهل مصر ينتقصون عثمان فنشأ فيهم الليث فحدَّثهم بفضائل عثمان فكفُّوا، ولم يسعده الحظ بأنصار ينشرون مذهبه فيُكتب له الخلود، وقد انقرض لمدة قليلة، يقول الأستاذ أحمد أمين: [لو تعصَّب المصريون لمَن نبغ منهم لاحتفظوا بمذهبه، ولكانوا أتباعه، ولكن زامر الحي لا يُطرب وأزهد في عالم أهله][25].

وفي الواقع أنَّ عدم اشتهار مذهبه وانتشاره سببه عدم امتزاجه بسلطان عصره، فقد طلبه المنصور للقضاء فأبى وقال: إنِّي أضعف عن ذلك، ولم يكن من أصحابه مَن يتولاه، فالقضاء هو عامل قوي لنمو المذاهب وبقائها.

وممَّا يُؤثر عنه أنَّه لقي الرشيد فسأله الرشيد: [ما صلاح بلدكم؟ قال: يا أمير المؤمنين صلاح بلدنا بإجراء النيل وإصلاح أميرها، ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا رأس العين صفت السواقي، فقال: صدقت يا أبا الحارث][26].

وقال في النجوم الزاهرة[27]: كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير مَن بها في عصره، بحيث أنَّ القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته، وكان الشافعي يتأسف على فوات لقياه، وقد كتب بعض مَن غاظه ذلك إلى المنصور:

أمير المؤمنين تلافَ مصرًا	فإنَّ أميرها ليث بن سعد

عُمر بن عبد العزيز

عُمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، كان تابعيًا، روى عن أنس بن مالك وغيره، ولا نعلم بالضبط الآخذين بمذهبه والعاملين به، ولا نعلم مدة بقائه، وربما كانت له آراء خاصّة أخذها الناس عنه فعُدَّ في عداد المذاهب، ولا يخفى أنَّ لمنزلته الدينية وفقهه أثرهما في الناس بعد أن استلم الحُكم، والناس لا ترى من حُكام بني أمية إلا ثلاثة أوجه: كره العلويين وظلم الناس واقتراف المُوبقات، ونُقل عنه قوله: [ما سرَّني لو أنَّ أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) لم يختلفوا، لأنَّهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة][28].

الأعمش

أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش مولى بني كاهل من ولد أسد المعروف بالأعمش الكوفي المتوفى سنة 148هـ، كان ثقة عالمًا، كان أبوه من سبي دنباوند وهي ناحية من رستاق الري في الجبال، وكان يُقارن بالزهري في الحجاز، رأى أنس بن مالك لكنَّه لم يسمع منه، ويروي عن أنس إرسالاً أخذه عن أصحاب أنس، وروى عنه سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وكان لطيف الخلق مزَّاحًا.

دخل أبو حنيفة يومًا لعيادته فطوَّل القعود عنده فلمَّا عزم على القيام قال أبو حنيفة: ما كأنّي إلا ثقلت عليك، فقال: والله إنَّك الثقيل عليَّ وأنت في بيتك[29].

وعاده أيضًا جماعة وأطالوا الجلوس عنده فضجر منهم، فأخذ وسادته وقام وقال: شفى الله مريضكم بالعافية[30].

وُلد الأعمش سنة 60 هـ وقيل إنَّه وُلد يوم مقتل الحسين (عليه السلام)، وعدَّه ابن قتيبة في كتاب المعارف من جملة مَن حملت به أمه سبعة أشهر[31]، وتوفي سنة 148 هـ أي في السنة التي توفي بها الإمام الصادق(عليه السلام) ولم يكن لمذهبه ظهور وانتشار في المجتمع، وانقرض بعد مدة قليلة.

الشعبي

عامر بن شراحيل الشعبي أبو عُمر الكوفي المتوفى سنة 105 هـ، سمع من جماعة من الصحابة وقال: أدركت خمسمائة منهم، وكان قاضيًا لعُمر بن عبد العزيز ومُحدِّث الكوفة، يفتي على ما صحَّ عنده من الأثر، وينقبض عن الفتوى إن لم يجد نصًا ولا يقول برأيه، ونسبة المذهب إليه لما صدر عنه من الفتوى، وإلا فلم يشتهر عنه ذلك، والعمل بمذهبه قليل.

الأسباب التي أدّت إلى محو بعض هذه المذاهب

هؤلاء بعض رؤساء المذاهب البائدة، وهي كثيرة تزيد على الخمسين، إلا أنَّنا قصرنا الكلام على هؤلاء، لأن الاستقصاء يخرجنا عن غاية بحثنا.

وليس لنا غرض في التعرف عليهم، ولكنَّ الغرض أن نعرف الأسباب التي دعت إلى محو هذه المذاهب من صفحة الوجود وإثبات المذاهب الأربعة، مع العلم أنَّ رؤساء المذاهب البائدة لهم منزلة علمية، ونستطيع القول بأنَّ أكثرهم كانوا أعلم من رؤساء المذاهب الأربعة، فسفيان الثوري لقبّوه بأمير المؤمنين في الحديث وسيد الحفَّاظ وغير ذلك، كما قاله شعبة وأبو عاصم وابن معين وغيرهم، وقال ابن المبارك: [كتبتُ عن ألف ومائة شيخ ما فيهم أفضل من سفيان][32]، وقال القطان: [الثوري أحب إليَّ من مالك][33] -إلى غير ذلك من أقوال علماء الرجال ممَّا لم نعثر على مثلها لأبي حنيفة وغيره، نعم ما ورد من المدح في أئمة المذاهب الأربعة من طرق أتباعهم تتعدى حد الحصر- واعطف عليه سفيان بن عيينة وابن جريح والليث وغيرهم فإنَّهم بمكانة من العلم، وقد رجع الناس إليهم في الفتيا مدة من الزمن، واستمر العمل بمذاهبهم ثُمَّ انقرضت ولم يبقَ لأهل السنة إلا المذاهب الأربعة: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي.

أمَّا أتباع آل البيت (عليهم السلام) فقد بقيت آراؤهم ومعتقداتهم في الأصول والفروع وغيرهما أقوى من أن تلين للسياسة وتدخلات الولاة والأمراء... وإذا شوهدوا في بعض الأحيان يميلون إلى التقية وإلى تحاشي ضغائن الملوك فإنَّ ذلك كان من عزم الأمور ودرء المهالك عن أنفسهم حين يرون أنَّ دماءهم أحفظ للدين من إراقتها دون طائل.

فالحُكّام في العهدين الأموي والعباسي كانوا لا يتورعون عن سفك الدماء الطاهرة ولا يتوقفون في ظلمهم لآل البيت (عليهم السلام) عند حد، ولهذا كان الإمام الصادق (عليه السلام) يرى في تعرض أهله من آل الحسن (عليه السلام) إلى تلك المحنة والعذاب أمرًا يُجرِّئ الظالمين أكثر على انتهاك حُرمات أهل البيت (عليهم السلام) ويصبح انتهاك حُرمات الناس أبسط بكثير، فقال(عليه السلام) وهو يرى موكب آل الرسول (عليهم السلام): [والله لا تُحفظ لله حُرمة بعد هذا][34].

ولا يندرج المذهب الجعفري في سياق نشأة المذاهب لأمور عدَّة، منها:

1ـ استقلال فقه أهل البيت (عليهم السلام) عن السلطة الجائرة وتعلقه بالإمامة والسلطة الروحية.

2ـ في العهد الأموي -حيث لم تأخذ المذاهب صفتها الرسمية ولم ترسُ على عدد معيَّن- كان الشيعة هم الخطر الحقيقي الذي يُهدِّد بقاء الأمويين في كل حين، فكان الاعتقاد بمذهب الشيعة استعدادًا للموت والتضحية.

3ـ في العهد العباسي، حيث أرست الدولة المذاهب بأربعة، لم يكن الشيعة جزءًا من السلطة، بل استمروا على العمل بقاعدة مُقاطعة الظالمين، فيما كان وجودهم الفقهي والعلمي يتسع وينتشر برغم إرادة العباسيين، وقد شيَّدوا بناءهم الفكري بعيدًا عن مؤثرات السلطة وعلى الضد من رغبات الحُكام.

يتبع=

تتمة مقال = المذاهب الأربعة (نشأتها وشهرتها وانتشارها)

عوامل انتشار المذاهب الأربعة

المذهب الحنفي

يُنسب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي، من أهل كابل أو من أهل نسا، وكان اسمه عتيك بن زوطرة، وكان أبوه عبدًا مملوكًا لرجل من ربيعة من بني تيم الله بن ثعلبة من فخذ يُقال لهم بنو قفل، ولد سنة 80 هـ في نسا، وتوفي سنة 150 هـ في بغداد[35].

كانت دعوة العباسيين قائمة على أساس الانتماء إلى النبي (صلى الله عليه وآله)، وأنَّهم سلالة البيت النبوي، فهم أحق بالأمر من أميَّة خصوم الإسلام وأعداء محمد (صلى الله عليه وآله)، وبالطبع فإنَّهم يقيمون على أطلال تلك الدولة المُتَّهمة بمُخالفة الدين، دولة ذات صبغة دينيَّة، يُحاولون أن يُظهروا الاتصال الوثيق بين الدين والدولة، ليُكوِّنوا من أحكام الشريعة الإسلامية دستورًا ونظامًا تسير الدولة عليه سيرًا صوريًا، فقرَّبوا العلماء، واتصلوا بهم اتصالاً وثيقًا وآثروا نشر العلم، وجعلوا القضاء بيد أهل الرأي من أهل العراق، حتى وُلِّي أبو يوسف القضاء[36]، وهو أقوى عوامل انتشار المذهب الحنفي لمكانة أبي يوسف وسلطته التنفيذية يومذاك، فكانت للمذهب الحنفي خطوة واسعة في قطع مسافة الشهرة بما لم يسعد به غيره.

فأبو يوسف[37] هو تلميذ أبي حنيفة وقد تربَّى في نعمه، وبتوليته منصب القضاء استطاع نشر المذهب، ووُلِّي منصب رئاسة القضاء العامة في عهد الرشيد سنة 170 هـ فلم يُقلِّد القضاء ببلاد العراق وخراسان والشام ومصر إلا مَن أشار به القاضي أبو يوسف[38]، وذلك لمكانته في الدولة ومنزلته عند الرشيد حتى قال له الرشيد: يا يعقوب لو جاز لي إدخالك في نسبي ومشاركتك في الخلافة المفضية إليَّ لكنتَ حقيقًا به، ألست القائل لأخي وقت كذا وكذا؟ وفي وقت كذا وكذا؟ يُشير بذلك إلى ما عزم عليه الهادي من خلع الرشيد واستشارة أبي يوسف في ذلك، وجوابه له بردِّ عزمه، فكان الرشيد يشكر لأبي يوسف هذه اليد، حتى قيل: لم يتمكن أحد كتمكن أبي يوسف من الرشيد[39]، وقال بشر المريسي: ما اشتهيت من مراتب السلطان إلا مرتبة رأيت أبا يوسف بلغها عشية من العشايا[40].

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: [وبلغ أبو يوسف مع الرشيد مبلغًا لم يبلغه عالم بعلمه ولا محبوب بمرتبته][41].

وقال ابن عبد البر: كان أبو يوسف قاضي القضاة قضى لثلاثة من الخلفاء، ولي القضاء في بعض أيام المهدي ثُمَّ للهادي ثُمَّ للرشيد، وكان الرشيد يُكرمه ويُجلُّه، وكان عنده حظيًا مكينًا[42]، لذلك كانت له اليد الطولى في نشر ذكر أبي حنيفة وإعلاء شأنه، لما أوتي من قوة السلطان وسلطان القوة.

وإذا نظرنا إلى مقومات المذهب في نفسه نجد ذلك يرجع لجهود أربعة من أصحاب أبي حنيفة فإنَّهم ألَّفوا فيه وهذَّبوا مسائله، وليس لأبي حنيفة إلا المشاركة في الرأي أحيانًا، وخالفوه في أكثر المسائل، كما أنَّهم وسَّعوا دائرة المذهب في الحيل الشرعيَّة.

وأول أولئك النفر هو أبو يوسف القاضي، فقد خدم المذهب بقوة سلطانه وفي تصنيف الكتب وتبويب المسائل، وقد أدخل الحديث في فقه أبي حنيفة، وألَّف كتاب [الخراج] لهارون الرشيد مُستنبطًا من الحديث على مذهب مالك، وغلبت على آرائه العناية بمصالح السلطان الزمنية.

والثاني محمد بن الحسن، الشيباني، مولاهم، المولود[43] سنة 132 هـ والمتوفى سنة 189 هـ، نشأ بالكوفة وعاش تحت ظل الدولة العباسية، أدرك أبا حنيفة ولم ينتفع منه لحداثة سنِّه، فأتمَّ دراسة المذهب على أبي يوسف، وكان ذا فطنة وذكاء، وأصبح المرجع لأهل الرأي في نبوغه وتقدمه، وألَّف في المذهب كتبًا هي في الحقيقة المرجع الأول فيه، فإنَّ الحنفية ليس بأيديهم إلا كتبه، وخرج إلى المدينة ولقي مالكًا وقرأ الموطأ عليه، ثُمَّ رجع إلى بلده فطبق مذهب أصحابه على الموطأ مسألة مسألة[44]، ونظم الفقه الحنفي وخالف أبا حنيفة في أكثر مسائله.

والثالث زفر بن الهذيل المتولد سنة 110 هـ كان من أهل الرأي وكان أقيس أصحاب أبي حنيفة.

والرابع الحسن بن زياد[45] اللؤلؤي مولى الأنصار، درس على أبي حنيفة ثُمَّ على أبي يوسف وعلى محمد بعده، وصنَّف الكتب في مذهب أبي حنيفة، ولم تكن كتبه بتلك الدرجة من الاعتبار عند الحنفية كما كانت كتب محمد بن الحسن.

فهؤلاء الأربعة هم دعامة رقي المذهب وسعة دائرته، ولم ينقل لنا التاريخ عن أبي حنيفة كتابًا يتضمن مسائله وفقهه، وإنَّما دوَّن علم المذهب أصحابه.

نعم، يُنسب لأبي حنيفة كتاب يُسمَّى الفقه الأكبر هو وريقات قليلة لا يتضمن إلا شيئًا من العقائد، وقد شُرح ووسِّع وأضيفت إليه آراء أخر مع أنَّ الأكثرية يذهبون إلى نسبة هذا الكتاب إلى أبي حنيفة البخاري، وليس هو أبو حنيفة رئيس المذهب.

وبهذا يصبح لا أثر له في تدوين أي شيء، كما أنَّ أبا حنيفة لا يُفارق فتوى إبراهيم وعبد الرزاق إلا في مواضع يسيرة، والغرض أنَّ المذهب إنَّما انتشر وكثرت مسائله بأعمال هؤلاء الأربعة ومساعيهم، ثُمَّ جاء من بعدهم علماء نُسبوا لهذا المذهب، فكانت لهم آراء مُستقلة وتكونت مجموعة من الأقوال والآراء الفقهية وكلها تُنسب لأبي

حنيفة، وإن لم يُفتِ بها ولم يعرفها، ولكنَّهم قالوا: إنَّ أبا حنيفة أمر أصحابه بأن يأخذوا من أقواله بما يتَّجه لهم منها عليه الدليل حتى صار ما قالوه قولاً له لابتنائه على قواعده التي أسسها لهم[46].

المذهب المالكي

يُنسب إلى الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ولد سنة 93هـ بالمدينة، ويُدَّعى أنَّ أمَّه حملت به سنتين وقيل أكثر، وتوفي سنة 179هـ.

وكان من نتائج النزاع الذي حدث بين أهل العراق وأهل المدينة، أو أهل الحديث وأهل الرأي، ظهور شخصية أبي حنيفة في العراق ومالك في الحجاز، وكانت السلطة تؤيِّد جانب أصحاب أبي حنيفة وتشد أزرهم، وتُقدِّم الموالي لتحط من قيمة العرب، لأنَّهم في نظر السلطة أعداء يتكتمون فلا يأمنون جانبهم من وثبة يومًا ما لميلهم للعلويين، وإنَّهم ليترقبونها في غالب الأحيان فهم دائمًا في حذر.

وكان مالك ممَّن انضم لجانب العلويين، وأخذ العلم عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وأظهر القول بجواز الخروج مع محمد النفس الزكية، فأهين لذلك وناله الأذى وتعصَّب له قوم وناصروه وأصبحت له مكانة في المجتمع، ولحظت السلطة أهمية مكانته، فرأت من اللازم أن تجعله تحت عنايتها لتوجد منه شخصية علمية توجِّه إليه المجتمع طوعًا أو كرهًا، فأصبح مُحترمًا إلى أبعد حدود الاحترام.

ويُعطينا الإمام الشافعي صورة عن عظيم منزلته، عندما دخل المدينة يحمل إلى واليها كتابًا من والي مكة توصيةً منه بالشافعي، ويطلب منه إيصاله إلى مالك، قال الشافعي: فأبلغت الكتاب إلى الوالي فلمَّا أن قرأه قال: يا فتى إنَّ المشي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيًا راجلاً أهون عليَّ من المشي إلى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلَّة حتى أقف على بابه، قال الشافعي: فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى يوجِّه إليه ليحضر، قال: هيهات، ليت أنِّي إذا ركبت أنا ومَن معي، وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا، قال: فواعدته العصر وركبنا جميعًا فوالله لكان كما قال، فتقدَّم رجل فقرع الباب فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاكِ إنِّي بالباب، قال: فدخلَتْ فأبطأَتْ ثُمَّ خرجَتْ فقالت: إنَّ مولاي يُقرئك السلام ويقول إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس، فانصرفت، فقال: قولي له معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مُهمَّة، قال: فدخلت ثم خرجت وفي يدها كرسي فوضعته، ثُمَّ إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار وهو شيخ طويل مسنون اللحية[47]، فجلس وهو مُتطلس[48]، فدفع الوالي الكتاب من يده ثُمَّ قال: يا سبحان الله! وصار علم رسول الله (صلى الله عليه وآله) يُؤخذ بالرسائل؟ قال: فرأيتُ الوالي وقد تهيَّبه أن يُكلمه فتقدَّمتُ إليه فقلت له: أصلحك الله إنِّي رجل مطلبي ومن حالي ومن قصتي، فلمَّا أن سمع كلامي نظر إلي ساعة... إلخ[49].

ونحن إذ نقيس منزلة مالك بين العهدين نجد الفرق بيِّنًا فنراه في عهد أحد الولاة مغضوبًا عليه يُسحب ويُجرَّد من ثيابه ويُضرب خمسين سوتًا ويُهان، ونراه في العهد الثاني يتهيَّب الوالي أن يُكلِّمه، فمالك في حاليه يُعطينا درسًا في معرفة أغراض السياسة مع رجال الأمَّة، وأنَّ لها ألوانًا من المعاملة مع الأشخاص الذين تريد أن تستخدمهم بالمُغريات.

والغرض أنَّ نجم مالك بزغ بذلك الأفق فأصبحت له شخصية مرموقة دون غيره من شيوخه الذين هم أعلم وأفقه كربيعة الرأي[50] وغيره، فامتاز بتلك المنزلة واكتست شخصيته بأبراد العظمة، وحاول العباسيون أن يجعلوا منه مرجعًا عامًا للأمَّة في الفتوى، ولكنَّها محاولة لم تنجح، وقد أمره المنصور بوضع كتاب يحمل الناس عليه بالقهر، فكلَّمه مالك في ذلك وامتنع فقال المنصور: ضعه فما أحد اليوم أعلم منك[51]، فوضع الموطأ.

وهذه الكلمة لها مكانتها في نظر الاعتبار، فالمنصور حينما يُعلن بأنَّ مالكًا أعلم الناس، ويُلزمه بوضع كتاب تُصادق عليه الدولة فيكون نظامها المُتَّبع وتطلب الالتحاق بقافلة الدين ـ وما أبعدها عن ذلك ـ فمَن يستطيع أن يتخلَّف عن الاعتراف بمنزلة مالك وأنَّه أعلم الأمَّة؟

والرشيد يأمر عامله على المدينة بأن لا يقطع أمرًا دون مالك، وكان الرشيد يجلس على الأرض أمامه لاستماع حديثه[52].

كيف لا يكون لمالك ظهور وسمعة ومُنادي السلطان يهتف أيام الحجِّ أن لا يُفتي إلا مالك[53]، فأصبحت له مكانة في المُجتمع وهيبة في النفوس، وتقرَّب الناس إليه بشتى الوسائل، والتفوا حوله، وتزاحموا على مجلسه الذي عيَّن له وقتًا خاصًا في يوم معيَّن يزدحم الناس فيه لاستماع الحديث وأخذ الفتيا، وله كاتب بين يديه يقرأ للناس، وليس لأحد أن يدنو منه ولا ينظر في كتابه ولا يستفهمه في شيء، وبذلك لا يستطيع أحد مُناقشته، وكان على رأسه سودان يأتمرون بأمره.

قال إسماعيل الفزاري: دخلت على مالك وسألته أن يُحدثني فحدثني اثني عشر حديثًا ثُمَّ أمسك، فقلت: زدني أكرمك الله، وكان له سودان قيام على رأسه، فأشار إليهم فأخرجوني من داره[54].

ولا ريب أنَّ هذه المعاملة من مالك تبعثنا على التساؤل عن أسباب امتناع مالك وبخله على الناس بما ينفعهم من أحاديث نبوية وإرشادات تربوية؟ وهذا الوضع منه لا شك أنَّه مُستغرب لأنَّ السنّة الشريفة أمرت بنشر العلم وتوعدت مَن يكتمونه.

ويُحدثنا أبو بكر بن عبد الله الصنعاني قال: أتينا مالك بن أنس فحدثنا عن ربيعة الرأي، فكنَّا نستزيده فقال لنا ذات يوم: ما تصنعون بربيعة وهو نائم في ذاك الطاق؟ فأتينا ربيعة فقلنا: كيف يحظى بك مالك ولم تحظ أنت بنفسك؟ فقال: أما علمتم أنَّ مثقالاً من دولة خير من حمل علم[55].

ولا بُدَّ من الإشارة إلى رضى مالك بإقبال السلاطين عليه وترك أيديهم تلعب بأحواله الخاصة فأصابه من جبرية الحاكم شيء.

ومهما يكن من أمر فقد أسعده الحظ فكان له شأن ولمذهبه قبول ولكتابه منزلة حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك، وفي لفظ آخر: ما على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك[56].

وكان انتشار مذهبه على أيدي القضاة والملوك، وقد انتشر بالأندلس بسبب حملِ مَلِكِ الأندلس الناس عليه بالقهر، لمَّا بلغه كلام من مالك في مدحه عندما سأل عن سيرة الملك في الأندلس فذُكر له عنها ما أعجبه فقال: نسأل الله تعالى أن يُزيِّن حرمنا بملككم، فلمَّا بلغ قوله إلى الملك حمل الناس على مذهبه وترك مذهب الأوزاعي[57]، وهذا من أقوى عوامل الانتشار ودواعي الظهور والسمعة، وإقبال الناس عليه إتباعًا للسلطان وخضوعًا للسلطة بدون تمييز لما هو الأرجح والأولى.

وقد نشر مذهبَ مالك في أفريقيا القاضي سحنون، يقول المقريزي: ولمَّا وُلِّي المعز بن باديس حمل جميع أهل أفريقيا على التمسُّك بذهب مالك وترك ما عداه، فرجع أهل أفريقيا وأهل الأندلس كلهم إلى مذهبه رغبة فيما عند السلطان، وحرصًا على طلب الدنيا، إذ كان القضاء والإفتاء في جميع تلك المدن لا يكون إلا لمَن تسمَّى بمذهب مالك، فاضطرت العامة إلى أحكامهم وفتاواهم، ففشى هذا المذهب هناك وحظي بالقبول لا بحسب مؤهلاته ومُقوماته الروحية أو العلمية، وإنَّما صار على حسب نظام القوة التي خضع الناس لها بدون تبصُّر، كما أنَّ انتشاره بالمغرب الأقصى هو كذلك رغبة لما عند السلطان، وخضوعًا لما افترضوه على الناس، ولم يكن ثبوته مُستقلاً بروحانيته عن تأثير السلطة التنفيذية، فإنَّ دولة بني تاشفين قامت في الأندلس في القرن الخامس، وتولَّى علي بن يوسف بن تاشفين فعظَّم أمر الفقهاء، ولم يكن يقرب منه ويحظى عنده إلا مَن تعلَّم مذهب مالك، فنفقت في زمنه كتب المذهب، وعُمل بمُقتضاها ونُبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسي النظر في كتاب الله وحديث الرسول (صلى الله عليه وآله)، فلم يكن أحد يعتني بهما كما يعتني بكتب المذهب المالكي[58].

وما ذلك إلا من اختراع السياسة لأمور كان الأصلح للأمَّة أن تتخلى السياسة عن التدخل بمثلها، إذ من الصعب على الرعية أن تعرف صلاح أمرها ما دام مفروضًا عليها من قبل السلطان وهي تجهل ذلك، وبهذه المُؤثرات انتشر مذهب مالك بصورة هائلة كزميله المذهب الحنفي، فله أسوة به، وإذا ما قصرت خطاه في بعض الأماكن فبمُجرَّد تولِّي القضاء المالكي من قبل رجال المذهب يزداد نشاطه وإقبال الناس عليه وتمسكهم به، لذلك لمَّا خمل ذكره في المدينة مدة من الزمن فبمُجرَّد أن تولَّى قضاءها ابن فرحون أظهره بعد خُموله.

فيظهر لنا أنَّ الزمن سار في انتشار هذه المذاهب لا على سبيل الاعتقاد والواقع، بل إنَّ في الأمَّة ضعفاء قلَّدوا الأقوياء بأهم أمر، وكان الأجدر استقلالهم بمعرفته، وأخذهم له من أهله، وأنَّى لهم ذلك وكل سلطة تحاول أن تجعل أمورها ذات صبغة دينية، وتجعل أمر التشريع بيد قضاة صارعتهم الدنيا فصرعتهم إلا مَن عصم الله وقليل ما هم.

قال ابن حزم: [مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة والسلطان:

1ـ مذهب أبي حنيفة، فإنَّه لمَّا وُلِّي قضاء القضاة أبو يوسف يعقوب صاحب أبي حنيفة كانت القضاة من قبله، فكان لا يُولي قضاء البلدان من أقصى المشرق إلى أقصى أفريقيا إلا من أصحابه والمنتمين إليه وإلى مذهبه.

2ـ مذهب مالك عندنا في بلاد الأندلس فإنَّ يحيى بن يحيى[59] كان مكينًا عند السلطان مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومَن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به][60].

وحُكي عن الدهلوي أنَّه قال: فأي مذهب كان أصحابه مشهورين وأسند إليهم القضاء والإفتاء، واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درسًا ظاهرًا انتشر في أقطار الأرض، لم يزل ينتشر كل حين، وأي مذهب كان أصحابه خاملين ولم يُولَّوا القضاء والإفتاء ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين[61].

وهذا التعليل قد أجمعت عليه آراء المؤرِّخين والعلماء حتى لقد شاع بين الناس قولهم: [الناس على دين ملوكهم][62].

المذهب الشافعي

ويُنسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، وقيل إنَّ شافعًا كان مولى لأبي لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش، فامتنع فطلب من عثمان ذلك ففعل، وقد ولد سنة 150 هـ وتوفي سنة 198 هـ[63].

كان ظهوره أولاً بمصر وكثر أصحابه هناك فغلب على بغداد وعلى كثير من بلاد خراسان، ودخل شيء منه إلى أفريقيا والأندلس بعد سنة 300 هـ، وقويت شوكته، وعظمت شهرته في عهد الدولة الأيوبية التي كانت تتسم بسمة شافعية، وبذلوا جهدهم في نصرته، ببناء المدارس لفقهاء الشافعية واختصاص القضاء بهم، وكان الغالب على أهل مصر الشيعة في عهد الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، وكان المذهب الجعفري يُدرَّس في الجامع الأزهر وغيره، فأبطل صلاح الدين تدريسه فيها وأحيا مذهب الشافعي[64] وأبي حنيفة ومالك، وبنى لهم كثيرًا من المدارس، ورغَّب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب.

وكان انتشار مذهب الشافعي بعد صلاح الدين أكثر من غيره، لاعتناق الملوك الذين تولوا من بعده مذهب الشافعي، وقد نجح الشافعي في بدء أمره عندما قدم مصر وزاحم مذهب مالك، حتى تعصَّب عليه المالكية، لأنَّه كاد أن يُنسي الناس مذهب مالك إلى أن آل الأمر بهم فقتلوه بسبب التعصُّب.

وكان سبب نجاحه مؤازرة بني عبد الحكم له، فإنَّ لهم مكانًا رفيعًا بمصر، ومنزلة سامية وجاهًا عظيمًا، وقد آزره أبو محمد عبد الله بن الحكم بن أعين بن الليث، وكان عالمًا عاقلاً متحققًا بمذهب مالك، وإليه أفضت الرياسة بعد أشهب، فلمَّا نزل الشافعي عليه أكرم مثواه وبلغ الغاية في برِّه، وقتل الشافعي وهو نزيله، فاعتنق مذهب الشافعي وكتب كتبه لنفسه، مع أنَّ الشافعي لم يُعدَم رعاية السلطان هناك، فإنَّه دخل مصر وهو يحمل من الرشيد كتابًا لواليه على مصر يوصيه به ويُلزمه بعنايته، ووقعت بينه وبين المالكية مناوشات كان النجاح له في نهاية الأمر.

وكان قدوم الشافعي إلى مصر في سنة 198 هـ، ويُقال إنَّه جاء مع أميرها عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، فصحبه جماعة من أعيان أهل مصر كبني عبد الحكم والربيع بن سليمان، وأبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، والبويطي، وكتبوا عنه ونشروا مذهبه.

المذهب الحنبلي

يُنسب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن حيان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن ذهل بن شيبان، ولد سنة 164 هـ في بغداد وتوفي فيها سنة 241 هـ.

ظهر مذهب أحمد بن حنبل ببغداد وهو آخر المذاهب لتأخره زمنيًا في الحدوث، وكانت خطوة انتشاره خارج بغداد قصيرة جدًا ولم ينل شهرة غيره من المذاهب، وظهر في مصر في القرن السابع بين أفراد معدودين، ولكن انتشر بعد فترة قصيرة عندما تولَّى القضاء عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الملك الحجازي، فزاد انتشاره هناك وذلك في سنة 738 هـ.

قال ابن خلدون: فأمَّا أحمد بن حنبل فمقلده قليل لبُعد مذهبه عن الاجتهاد وأصالته في معاضدة الرواية وللأخبار بعضها ببعض، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظًا للسنة ورواية الحديث[65].

والقدماء يعدّون أحمد بن حنبل من أهل الحديث لا الفقهاء[66]، ولذا لم يُعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان ابن جرير يقول إنَّه رجل حديث لا رجل فقه، وعدَّه المقدسي كذلك من أهل الحديث لا من الفقهاء، ولم يذكره ابن قتيبة في معارفه في عداد الفقهاء، واقتصر ابن عبد البر في كتابه الإنتقاء على ذكر مالك والشافعي وأبي حنيفة.

والحاصل أنَّ المذهب الحنبلي أقل المذاهب انتشارًا، وقد عَدَّ مُتبعوه هذه القلة فخرًا، نعم ظهرت عظمته ببغداد إذ كان مُتبعوه يحتفظون فيما بينهم باتحاد وثيق حيث تكون المصلحة هناك، وقد أصبحوا في زمنٍ ما ولهم قوة استطاعوا بها أن يُقلقوا بال الحكومة، وتظاهروا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكانت صولتهم عظيمة

وأوقعوا في سائر المذاهب التي تخالفهم ما تشتهيه أنفسهم من التنكيل والأذى، وقضت الحكومة على تلك الحركات غير المُنظمة، وضيَّقوا دائرة اتساع دعوتهم.

ولم ينل المذهب الحنبلي قوة أنصار ورجال دعوة إلا في البلاد النجدية، فقد ساعده الزمن وكتب له البقاء على يد محمد بن عبد الوهاب [67] مُؤسس المذهب الوهابي، وإن كان مذهب أحمد وشهرته اندكت إلى جانب شهرة الوهابي ومذهبه، ولا يُنكر ما لابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من الفضل في انتشار المذهب ونشاطه، وهما في الحقيقة أبطال دعوته وعنهم أخذ ابن عبد الوهاب تعاليم مذهبه الجديد، ومع ذلك فإنَّ مُعتنقي هذا المذهب هم اليوم أقل عددًا بالنسبة إلى مُعتنقي المذاهب الأخرى في العالم الإسلامي.

السلطة وانتشار المذاهب

وبهذه الأسباب وعوامل الترغيب التي اتخذها أولئك الأمراء وذوو النفوذ والسلطة أخذت هذه المذاهب بين العامَّة في الصيت والشهرة، ما جعلهم متزاحمين على اعتناقها بدون تمييز وحرية في الرأي، وظلَّت حقيقتها غامضة إذ لا يُمكن استكشافها، فالخضوع للسلطان أمر لا مفر منه، وكان عدم تدخل الحكومة في مثل هذه الأمور أعوَد على الأمَّة، وأصلح لدينها ودنياها، فتدخّلها فيه قد جرَّ الأمَّة إلى منافسات وعصبية أعقبتها فتن ذهب ضحيتها نفوس بريئة تدين لله بالوحدانية ولمحمد (صلى الله عليه وآله) بالنبوة، وقد أدت الخلافات إلى فرقة وتباعد ممَّا كدَّر صفو الأمَّة ورماها بالشتات بعد الإلفة وبالعداء بعد الأخوة.

وعلى هذا المنوال أستطيع أن أسير في التدليل على ما في هذا الالتزام من النقص وقد سارت عليه جماهير من المسلمين بدون دليل ولا برهان، فتوقف التشريع الإسلامي وانحصاره بأقوال الأربعة إنَّما هو تحجير للفكر وجمود للتشريع لأغراض تعود بالنفع على الطبقة الحاكمة الذين يريدون أن يصبغوا أعمالهم بصبغة الدين وما هم من الدين في شيء، إذ لا همَّ لهم إلا حفظ ملكهم وقضاء مآربهم، على أنَّ الأئمَّة الأربعة لا يلتزمون بهذا بل يرون أنفسهم أنهم قد يخطئون، فأقوالهم لا تدل على وجوب الالتزام بقول أحد مطلقًا.

وهذا مالك بن أنس يقول: إنَّما أنا بشر أصيب وأخطئ فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة. ويقول أبو حنيفة: هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت فمَن جاء برأي خير منه قبلناه. ويقول الشافعي: إذا صحَّ الحديث فاضربوا بقولي الحائط. ويقول أحمد: من قلَّة علم الرجل أن يُقلد دينه الرجال. وقال: لا تُقلد دينك الرجال فإنَّهم لن يسلموا من أن يغلطوا. انتهى [68].

وعلى أي حال فإنَّ الاستسلام والتقليد اللذين أدّيا إلى التعصُّب والانغلاق أثَّرا في سير الحركة الفكرية والعلمية، لأنَّ التقليد يقوم على الإتِّباع وبذلك يُترك النظر والتعرُّف على الدليل.

وكيف كان، فقد استطاعت المذاهب الأربعة أن تترقّى وتكتسب قيمتها المعنوية، لأنَّها موضع عناية الخلفاء والولاة المُتعاقبين بالرغم ممَّا رافقها من خلافات ومُنافرات، وإنَّ عناية السلطة تُكسب الشيء لونًا من الاعتبار والعظمة حسب نظام السياسة لا النظام الطبيعي، فعوامل الترغيب وأداة القوة جعلتها تأخذ بالتوسع شيئًا فشيئًا، ولولا ذلك لما استطاعت البقاء حتى تصبح قادرة على مُزاحمة غيرها.

ثُمَّ كان بعد هذا ما هو أدهى وأمر، فإنَّه في سنة 645 هـ أُحضر مُدرّسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، فطُلب منهم ألا يذكروا شيئًا من تصانيفهم، وألا يُلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكروا كلام المشايخ السابقين تأدبًا معهم، وتبركًا بهم، فأجاب جمال الدين عبد الرحمن الجوزي الحنبلي بالسمع والطاعة، ثُمَّ مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشرمساحي المالكي، وقال: ليس لأصحابنا تعليقة، فأمَّا النقط من مسائل الخلاف فممَّا أرتِّبه، فبان بذلك عذره.

وأمَّا شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية وأقضى القضاة عبد الرحمن بن اللمغاني مدرس الحنفية فإنَّهما قالا ما معناه: [إنَّ المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال]، ونحو ذلك من إيهام المساواة، فأوصل الوزير ما أجابوا به إلى المُستعصم، وكان قد تولَّى الملك بعد أبيه المُستنصر، فأحضرهم أمامه، وطلب منهم جميعًا أن يلتزموا ذكر كلام المشايخ ويحترموهم، فأجابوه جميعًا بالسمع والطاعة، ورجع مدرسا الشافعية والحنفية عن اعتدادهما بأنفسهما[69].

وقال المقريزي: فلمَّا كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري ولّى بمصر أربعة قضاة، وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي، فاستمر ذلك من سنة 665 هـ حتى لم يبقَ في مجموع أمصار الإسلام مذهب يُعرف من مذاهب الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة، وعُملت لأهلها المدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام، وعُودي مَن تمذهب بغيرها، وأنكر عليه، ولم يُولَّ قاضٍ ولا قُبلت شهادة أحد، ولا قُدِّم للخطابة والإمامة مَن لم يكن مُقلدًا لأحد هذه المذاهب، وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المُدَّة بوجوب اتِّباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها[70].

ويُحكى عن الأستاذ عبد المتعال الصعيدي أحد علماء الأزهر في كتابه [ميدان الاجتهاد] أنَّه قال:

[فلمَّا رأى بنو العباس أنَّ وسائلهم في القهر لا تجديهم، أرادوا أن يأتوا الناس من باب التعليم، فيتولوا أمره بأنفسهم، ليُربُّوا العلماء على الخضوع لهم، ويملكوهم بالمال من أول أمرهم، وكانت الأمَّة هي التي تتولى أمر التعليم بعيدًا عن الحكومة، كما تتولاه الآن الأمم الراقية في أوروبا وأمريكا، فيقوم في المساجد حرًا لا يخضع لحُكم ملك أو أمير، ويتربَّى العلماء بين جدرانها أحرارًا لا يُراقبون إلا الله في عملهم، ولا يتأثرون بهوى حاكم، ولا تلين قناتهم لطاغية أو ظالم، فأراد بنو العباس أن يقضوا على هذا التقليد الكريم ويتولوا بأنفسهم أمر التعليم بين المسلمين، فأخذوا يُنشئون له المدارس بدل المساجد، ويحبسون عليها من الأوقاف الكثيرة ما يُرغِّب العلماء فيها ويجعل لهم سلطانًا عليهم، وأخذت الممالك التابعة لهم تأخذ بهذا في سُنَّتهم حتى صار التعليم خاضعًا للحكومات

بعد أن كان أمره بيد الرعية، وكان لهذا أثره في نفوس العلماء، فنزلوا على إرادة الملوك ولم تقوَ نفوسهم على مُخالفتهم في رأيهم، أو توجيه شيء من النصح إليهم، وكانت المدرسة البيهقية أول ما أنشئ من تلك المدارس، فهي منسوبة إلى البيهقي المتوفى سنة 450 هـ، ثُمَّ أنشئت بعدها المدرسة السعيدية بنيسابور، أنشأها الأمير نصر بن سبكتكين، ثُمَّ أنشئت بعدها النظامية ببغداد، أنشأها الوزير نظام الملك سنة 459 هـ، وقد احتفل بافتتاحها احتفالاً عظيمًا.

إلى أن يقول: ثُمَّ جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر، فقام بإنشاء المدارس فيها للتعليم، وأنشأ المدرسة الناصرية لتعليم مذهب الشافعي سنة 566 هـ، ثُمَّ أنشأ المدرسة الصلاحية بالقرافة الصغرى سنة 572 هـ بجوار الإمام الشافعي، وجعل لناظرها أربعين دينارًا في كل شهر، ورتَّب له في كل يوم ستين رطلاً من الخبز وراويتين من ماء النيل، ثُمَّ أنشأ مدرسة أخرى بجوار المشهد الحسيني، وجعل دار العباس العبيدي مدرسة للحنفيين][71].

وكان صلاح الدين يقصد من هذه المدارس كلها إلى إحياء مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة الفاطميين الذين كانوا يملكون مصر قبله، ورغَّب الناس فيها بالأوقاف التي حبسها عليها، فرغبوا فيها وأخذوا في تقليدها وهجروا ما عداها من المذاهب.

وقد جاء المستنصر العباسي[72] بعد هذا فأنشأ في بغداد المدرسة المُستنصرية سنة 625 هـ، وأنفق في بنائها أموالاً لا تُحصى حتى تم بناؤها سنة 631 هـ، فاحتفل بافتتاحها احتفالاً عظيمًا حضره بنفسه وحضر معه نائب الوزارة، وكذلك الولاة والحُجَّاب والقضاة والمدرسون والفقهاء، وشيوخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، وجماعة من أعيان التجار الغرباء، واختير لكل مذهب من المدارس وغيرها اثنان وستون نفسًا، ورتَّب لها مدرسين ونائبي تدريس، وكان المدرسان محيي الدين محمد بن يحيى بن فصلان الشافعي، ورشيد الدين عمر بن محمد الفرغاني الحنفي، وكان نائبًا التدريس جمال الدين عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي، وأبا الحسن عليًا المغربي، وجعل لها ستة عشر معيدًا، أربعة لكل مذهب، وجعل ربع القبلة الأيمن للشافعي، وجعل ربع القبلة الأيسر للحنفية، وجعل الربع الذي على يمين الداخل للحنابلة، وجعل الربع الذي على يساره للمالكية، وقد شرط المُستنصر في وقفه عليها أن يكون عدد فقهائها مائتين وثمانية وأربعين، من كل طائفة اثنان وستون بالمُشاهرة الوافرة، والجراية الدارة، واللحم الراتب إلى غير هذا من وسائل الترغيب في هذه المذاهب[73].

فأقبل الناس على دراستها وأهملوا غيرها من المذاهب التي لم يُقدَّر لها مثل هذه الأوقاف المغرية.

وهكذا أخذ الشباب والكهول يواصلون الدراسة على المذاهب الأربعة في مثل هذه المدارس، ويسمعون في خلال دراستهم طعونًا على أي مذهب آخر، فيمتلئون حقدًا على مَن لم يترك مذهبه لينتسب إلى أحد هذه المذاهب الأربعة، فكان ذلك من النتائج الأولى لتسلم صلاح الدين دفَّة الحكم في ظروف سياسية مرَّت بها دولة الفاطميين الذين تربَّى صلاح الدين وذووه في ظل عزهم، ولولا خدمتهم للفاطميين ما كانوا.

وقد تحوَّل صلاح الدين بشدَّة ومارس القسوة وهو يتربع على العرش الذي أوتمن عليه، واتَّجه إلى سُنَّة السلاطين الآخرين الذين حكموا الأمَّة، فقسَّم المجتمع على طريقتهم، وأقام الدراسة في قاهرة المُعز على الطريقة المذهبية التي اتَّبع إشاعتها الحُكام.

حصيلة البحث

ظهر لنا ممَّا سبق أنَّ العامل الأساسي لتكوين الالتزام بمذهب مُعيَّن، وعدم الترخيص في استنباط الأحكام الشرعيَّة إنَّما هو السلطة، وأنَّ بقاء هذه المذاهب إنَّما يكون بتلك الوسائل المُشجعة، حتى كثُر أنصارها، ولو قُدِّرت عوامل الانتشار لغير المذاهب الأربعة لبقي لها جمهور يُقلِّدها أيضًا، ولكانت مقبولة عند مَن يُنكرها، ولكنَّها عُدمت رعاية السلطة فمُحيت من الوجود، إذ لا قابلية لها في ذاتها على البقاء بقوة بنائها أو قدرات أصحابها العلمية.

وقد فاز المذهب الحنفي بالتشجيع أكثر من غيره، فهو في العصر العباسي المذهب الذي ترجع الدولة إليه في مهمَّات التشريع، ورئاسة القضاء بيد أهل الرأي، لم يُشاركهم إلا القليل من سائر المذاهب، وبعد انقراض الدولة العباسية اعتنق المذهب سلاطين الأتراك عندما أرادوا انطباق اسم الخلافة الإسلامية عليهم، لأنَّ من شروطها أن يكون الخليفة قرشيًا طبقًا لحديث: [الخلافة في قريش][74]، والحنفية لا يشترطون هذا الشرط.

وأول مَن تولَّى الخلافة الإسلامية من غير قريش هو السلطان سليم الفاتح العثماني عام 922هـ الموافق 1517م بعد أن تنازل له الخليفة محمد المتوكل على الله الثالث عن الخلافة، وبذلك جعل سليم الأول سلطانُ تركيا نفسَه خليفة للمُسلمين، وورث خلفاؤه من آل عثمان هذا اللقب.

واحتج الأئمَّة الحنفية في خلافة بني عثمان أنَّ الخليفة يتولَّى الخلافة بخمسة حقوق:

1ـ حقّ السيف.

2ـ حقّ الانتخاب.

3ـ حقّ الوصاية.

4ـ حماية الحرمين.

5ـ الاحتفاظ بالأمانات، وهي المخلفات النبوية المحفوظة في الآستانة.

وهم يقولون: إنَّ الآثار النبوية سلمت من اغتيال التتر في بغداد، فحملها الخليفة العباسي إلى القاهرة حتى نقلها السلطان سليم إلى القسطنطينية في صندوق من الفضة، وهي البردة النبوية، وسن من أسنان النبي (صلى الله عليه وآله)، وشعرات من شعره، ونعاله (صلى الله عليه وآله)، وبقية من العَلَم النبوي، وإناء من حديد، وجبَّة الإمام أبي حنيفة[75].

وبهذا الشكل سارت عوامل انتشار المذاهب مع السياسة جنبًا لجنب، إذ الرغبة فيها منوطة بالقضاء ورغبة السلطة، حتى كثر التحوُّل من مذهب إلى مذهب تقرُّبًا للسلطان وطلبًا لرفده، وتحوَّل كثير من الشافعية إلى الحنفية لأجل الدنيا، وذلك أنَّ الأمير بلبغا بن عبد الله الخاصكي الناصري الأمير الكبير صاحب النفوذ والصولة كان يتعصَّب لمذهب أبي حنيفة، ويُعطي لمَن تحوَّل إليه العطاء الجزيل، ورتَّب الجامكيات الزائدة، وحاول في آخر عمره أن يُجلس الحنفي فوق الشافعي[76].

ولمَّا انتقل أبو البركات الحنفي إلى مذهب الحنبلي آذاه الحنفية، فانتقل إلى مذهب الشافعي قال المؤيد التكريتي في هجائه:

ألا مُبلغ عنِّي الوزير رسالة	وإن كان لا تجدي إليه الرسائل
تمذهبتَ للنعمان بعد ابن حنبل	وذلك لمَّا أعوزتك المآكل
وما اخترتَ رأي الشافعي تديُّنًا	ولكنَّما تهوى الذي هو حاصل
وعمَّا قليل أنتَ لا شكَّ صائر	إلى مالك فافهم لما أنا قائل[77]

وهذا أبو بكر البغدادي الحنبلي تحوَّل شافعيًا لأجل الدنيا، وولي القضاء، وكان أبو المظفر يوسف بن قرغلي سبط ابن الجوزي حنبليًا نقله الملك المُعظَّم إلى مذهب أبي حنيفة[78]، وكثير غيرهم.

وخلاصة القول: أنَّ تلك الوسائل المُشجعة للمذاهب الأربعة دعت الناس إلى الرغبة فيها والإعراض عمَّا سواها، ودعت أكثر الفقهاء الذين لهم أهلية الاستنباط أن يجمدوا على تقليد السلف وتعطيل موهبة الاجتهاد.

قال الشيخ أبو زرعة: قلتُ مرة لشيخنا البلقيني ما يقصر بالشيخ تقي الدين بن السبكي عن رتبة الإجتهاد وقد استكمل الآلة، وكيف يُقلِّد؟ لم أذكره هو استحياءً منه ولما أريد أن أرتِّب على ذلك.

فسكتَ عنِّي، ثُمَّ قلتُ: ما عندي إنَّ الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قد قُرِّرت للفقهاء على المذاهب الأربعة، وأنَّ مَن خرج عن ذلك لم ينله شيء وحُرم ولاية القضاء، وامتنع الناس من استفتائه، ونُسب إلى البدعة، فتبسَّمَ ووافقني[79].

ومن هنا قوبل مذهب أهل البيت (عليهم السلام) بتلك الهجمات العنيفة والحملات الظالمة، وأصبح الشيعة المُتمسِّكون بمذهب أهل البيت (عليهم السلام) عرضة لكل خطر، وغرضًا للتُّهم، وأصبح الشيعي في نظر أتباع السلطة خارجًا عن الإسلام، مُفارقًا جماعتهم، ولكنَّ الشيعة ثبتوا على أخذ تعاليم الرسول (صلى الله عليه وآله) في أحكام الإسلام من طريق أهل البيت (عليهم السلام)، لأنَّهم عدل القرآن، والتمسُّك بهم من دعائم الإسلام، ففي اتِّباعهم الهدى، وهم كسفينة نوح وباب حطَّة.

وبذلك تحمَّلوا في سبيل المُحافظة على وصاية النبي (صلى الله عليه وآله) في آله (عليهم السلام) وساروا على نهجهم، وبقي باب الاجتهاد مفتوحًا على مصراعيه، ومدرستهم مُستقلَّة عن سياسة السلطة وآراء الحُكام.

فإذا ما عُدنا إلى بدايات ضعف الحُكم الأموي، نرى الإمام الباقر (عليه السلام) يتعرَّض للأذى والمُضايقات، ويُحمل إلى مقر الجائرين في الشام وكان يصحبه ولده جعفر الصادق (عليه السلام)، ولأنَّ منهج الدعوة وأساليب العمل قد أخذت بالتطبيق على يد الإمام الباقر (عليه السلام) في ظل مُقتضيات الظروف ومُستجدات السياسة فإنَّه (عليه السلام) قرن بين السلوك الديني وبين الجانب الذي أراد الحُكام التحكم فيه وإخضاع أهل البيت وأنصارهم وهو الذي يتعلَّق بالإمامة بصيغة الخلافة ومُسميات السياسة، فقال (عليه السلام): [مَن عبد الله عبادة اهتمام وتعب ولم يعتقد بإمام عادل وأنَّه منصوب من الله فلا يقبل الله منه سعيًا] [80].

أمَّا الإمام الصادق (عليه السلام) حيث ماج عصره بالتيارات الفكرية واشتدت فيه النزعات المُختلفة فقد اتجه إلى الأفكار ومُخاطبة العقول لشدِّها إلى أركان العلم وأصول الفقه بطريقة منهجية رائدة تتيح للعقول الإفلات من مخطط السلطة الزمنية، حتى عُرف عنه (عليه السلام) أنَّه كان يُجيب كل مَن يتوجَّه إليه بالسؤال مُراعيًا اهتمامات السائل ومقاصده، ثُمَّ يُقيم الإجابة على نحو من أغراض منهجه هو(عليه السلام)، فظنَّ مَن بهم جهالة أنَّه(عليه السلام) يقول بأقوال مُختلفة، وحاشاه(عليه السلام).

يقول الدكتور محمد كامل حسين: عُرف عن الصادق الاعتدال في الرأي والعقيدة بحيث يقبل آراءه كل مُسلم السني منهم والشيعي [81].

الهوامش

1 راجع في رحاب الشيعة، للشيخ باقر شريف القرشي ص115؛ وموسوعة المصطفى والعترة (ع)، للشاكري ج10 ص210؛ والنظام السياسي في الإسلام، للشيخ باقر شريف القرشي ص289 وغيرها.

2 نشوء المذاهب والفرق الإسلامية، الحاج حسين الشاكري، ط1 1418، ستارة، إيران.

3 جامع بيان العلم وفضله ج2 ص157.

4 نفس المصدر السابق.

5 تاريخ بغداد ج13 ص332.

6 راجع مُستدرك الوسائل ج1 هامش ص21؛ أصحاب الصحاح الستة،مركز المصطفى (ص)، صفحة مُستدرك الوسائل للنوري ج1 ص16.

7 الأعلام، لخير الدين الزركلي، ج4 ص62.

8 إحياء علوم الدين ج3 ص380.

9 إحياء علوم الدين ج3 ص381.

10 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان ج2 ص291.

11 تاريخ الإسلام، للذهبي ج13 ص192؛ عمدة القاري، للعيني ج8 ص66.

12 الحجاج بن يوسف الثقفي، مركز المصطفى (ص)، صفحة الإمام الصادق (ع)، لأسد حيدر ج3 ص117؛ الحسن البصري، مركز المصطفى (ص)، صفحة الإمام الصادق لأسد حيدر ج3 ص117.

13 الأمالي، للسيد المرتضى (ره)، ج1 ص112؛ مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ج2 ص174؛ الحسن البصري، مركز المصطفى (ص)، صفحة إحقاق الحق للتستري ج28 ص476.

14 الخشب بضم الخاء والشين المعجمتين، جمع خشب وهو الصقيل من السيوف.

15 بحار الأنوار ج34 ص294؛ التجلي الأعظم، للموسوي، ص393؛ منار الهدى في النص على إمامة الإثني عشر (ع)، للشيخ علي البحراني، ص279.

16 حلية الأولياء، لأبي عمرو الأوزاعي، ج6 ص136؛ إحياء علوم الدين ج3 ص381.

17 البداية والنهاية، لابن كثير، ج10 ص124.

18 تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج2 ص161؛ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، ج52 ص196؛ تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج2 ص712 وغيرها.

19 تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، نفس المصدر السابق.

20 هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتولد سنة 381 هـ، والمتوفى سنة 456 هـ، كان عظيم الحفظ، كثير التصانيف، وكان جريء اللسان مُتسرِّعًا إلى النقل بمُجرَّد ظنه، كثير الوقوع بالعلماء وله كتاب الفصل يُعرف به تحامله على المسلمين، فإنَّه كان يُطلق لسانه حتى قيل: إنَّ لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان، كان شافعي المذهب، قال ابن العربي: [ثُمَّ إنَّه انتسب إلى داود ثُمَّ خلع الكل واستقل وزعم أنَّه إمام الأئمَّة يضع ويرفع ويحكم ويُشرِّع وينسب إلى دين الله ما ليس فيه]. راجع تذكرة الحفاظ ج3 ص1146 و 1154.

21 المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي ج1 ص81.

22 أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي البشاري، ج1 ص12.

23 تهذيب التهذيب، لابن حجر، ج8 ص415.

24 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج4 ص127.

25 حكاه عنه الشيخ أسد حيدر في كتابه الإمام الصادق... ج1 ص167.

26 حلية الأولياء ج7 ص322.

27 النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج1 ص167.

28 تفسير الألوسي ج3 ص164؛ الإبانة الكبرى، لابن بطة، ج2 ص221 وغيرهما.

29 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج2 ص402.

30 نفس المصدر السابق.

31 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج2 ص403.

32 تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج1 ص204؛ تهذيب التهذيب، لابن حجر، ج4 ص100.

33 تفسير الثوري، لسفيان الثوري، ص11؛ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج9 ص164.

34 مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الاصفهاني، ص149؛ بحار الأنوار ج47 ص305؛ تاريخ الإسلام، للذهبي، ج9 ص18.

35 تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج13 ص226؛ مؤتمر علماء بغداد، لمقاتل بن عطية، هامش ص205.

36 البداية والنهاية، لابن كثير، ج10 ص194.

37 أبو يوسف هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد الأنصاري المتوفى سنة 182 هـ، ببغداد والمدفون في مقابر قريش، وهو أول مَن دُعي بقاضي القضاة، تولّى القضاء لثلاثة من الخلفاء وهم المهدي وابنه الهادي والرشيد، قال محمد بن جرير الطبري: نحّى قوم من أهل الحديث حديثه لغلبة الرأي عليه وتفريع الفروع والأحكام مع صحبة السلطان. وقال عمار بن أبي مالك: ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لولا أبو يوسف ما ذُكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى، وهو الذي نشر قولهما. وعن ابن المبارك أنّه وهاه، وعن يزيد بن هارون أنّه قال: لا تحل الرواية عنه فإنّه كان يعطي أموال اليتامى ويجعل الربح لنفسه. وأبو يوسف هو الذي عناه الشاعر بقوله: يا قاتل المسلم بالكافر... جرتَ وما العادل كالجائر. راجع تاريخ بغداد ج14 ص256؛ والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، لابن عبد البر، ص172؛ والأعلام، للزركلي، ج8 ص193.

38 خطط المقريزي ج4 ص144؛ أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، لأسعد وحيد القاسم، ص267.

39 أبو يوسف، مركز المصطفى (ص)، صفحة الإمام الصادق لأسد حيدر ص161.

40 حكاه الشيخ أسد حيدر في كتابه الإمام الصادق... ج1 ص171.

41 المكافاة لابن الداية ص62، 63، 64، 116، 173.

42 الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، لابن عبد البر، ص173.

43 محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 189 هـ، قال فيه أحمد بن حنبل: إنّه مُرجئ، وردّ شريك شهادته لذلك، وقد وقعت بينه وبين أبي يوسف مناكرة فكان يقول: محمد بن الحسن جهميّ، وقال محمد بن سعد الصوفي: سمعت يحيى بن معين يرميه بالكذب، وقال مُرَّة: إنّه جهمي كذّاب، وعن منصور بن خالد سمعت محمدًا يقول: لا ينظر في كلامنا مَن يريد الله. راجع لسان الميزان ج5 ص131 والوفيات ص324.

44 رسالة الإنصاف ص8 حكاه عنه السيد علي الشهرستاني في وضوء النبي (ص) ج1 ص377.

45 الحسن بن زياد اللؤلؤي: كذّبه يحيى بن معين وأبو داود ومحمد بن عبد الله بن نمير، قال ابن المديني: لا يُكتب حديثه، وقال أبو حاتم: ليس بثقة، وقال الدارقطني: ضعيف متروك، وقال محمد بن حميد الرازي: ما رأيت أسوأ صلاة منه، وقال الخطيب: إنَّ الحسن ولي القضاء ولم يُوفّق، فكان إذا جلس لا يفهم شيئًا، وعن إسحاق بن إسماعيل كنّا عند وكيع فقلنا له: السنة مجدبة، قال: وكيف لا تجدب وحسن اللؤلؤي قاضٍ وحمّاد بن أبي حنيفة قاضٍ.

46 حاشية رد المختار، لابن عابدين، ج1 ص72.

47 مسنون اللحية: طويلها.

48 مُتطلس: أي لابس الطيلسان، وهو كساء مدور أخضر لا أسفل له.

49 معجم الأدباء ج17 ص275؛ تاريخ مدينة دمشق ج51 ص285.

50 ربيعة بن أبي عبد الرحمن بن فروخ التيمي أبو عثمان المدني الفقيه المعروف بربيعة الرأي، روى عن أنس والسائب بن يزيد وابن المسيب، وروى عنه سليمان التميمي ويحيى بن سعيد القطان وسعيد والليث وخلق كثير، وكان أبوه فروخ خرج في البعوث إلى خراسان أيام بني أميَّة وربيعة حمل في بطن أمّه، فقدم المدينة بعد سبع وعشرين سنة وهو راكب فرسًا، ودفع الباب برمحه فخرج ربيعة وقال: يا عدو الله أتهجم على منزلي، فقال فروخ: يا عدو الله أنت دخلت على حرمي، فتواثبا حتى اجتمع الجيران وكثر الضجيج، فبلغ مالك بن أنس، فقال مالك: أيها الشيخ لك سعة في غير هذه الدار، فقال الشيخ: هي داري، وأما فروخ فسمعت امرأته كلامه فخرجت وقالت: هذا زوجي وهذا ابني الذي خلفه وأنا حامل به، فاعتنقا جميعًا. قال سوار بن عبد الله: ما رأيتُ أحدًا أعلم من ربيعة الرأي، قيل: ولا الحسن وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن وابن سيرين، وقال مالك: ذهبت حلاوة الفقه منذ مات ربيعة الرأي، وكانت وفاته في سنة 136 هـ بالهاشمية ودفن هناك، وقيل سنة 133هـ. راجع وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج2 ص288، 290.

51 المنتقى [شرح الموطأ]، للزرقاني، ج1 ص8.

52 وضوء النبي (ص)، للسيد علي الشهرستاني، ج1 ص400.

53 أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة، لأسعد وحيد القاسم، ص267.

54 الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، لابن عبد البر، ص42.

55 طبقات الفقهاء، لأبي إسحاق الشيرازي، ج1 ص68.

56 الموطأ، رواية محمد بن الحسن، ج1 ص29؛ تنوير الحوالك، لجلال الدين السيوطي، ص7.

57 الحقيقة الضائعة ج14 ص10.

58 نفس المصدر السابق.

59 هو أبو محمد يحيى بن يحيى الأندلسي، ويُعرف بابن أبي عيسى، سمع مالك بن أنس وجمع مسائله وكتب سماع بن القاسم من مالك، ثُمَّ انصرف إلى المدينة ليسمعه من مالك فوجده عليلاً، فأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك، وقدم إلى الأندلس، وخالف مالكًا في كثير من المسائل، قال أحمد بن خالد: لم يُعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى، وتوفي سنة 233 هـ. راجع الإنتقاء في فضائل الأئمّة الثلاثة الفقهاء، لابن عبد البر، ص59.

60 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان، ج6 ص144.

61 حكاه السيد علي الشهرستاني في وضوء النبي (ص) ج1 ص400 عن الدهلوي في كتاب حجَّة الله البالغة.

62 فتح الباري، لابن حجر، ج7 ص114؛ تذكرة الموضوعات، للفتني، ص183؛ أعيان الشيعة، للسيد محسن الأمين، ج1 ص25؛ الشفاء الروحي، لعبد اللطيف البغدادي، ص215 وغيرها.

63 الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمّة الفقهاء، لابن عبد البر، ص66.

64 أجوبة مسائل جار الله، للعلامة شرف الدين (قده)، ص83.

65 تاريخ ابن خلدون، لابن خلدون، ج1 ص448.

66 راجع سنن الترمذي، للترمذي، ج2 ص72؛ المستدرك، للحاكم النيسابوري، ج1 ص223؛ عون المعبود، للعظيم آبادي، ج14 ص14؛ الاستذكار، لابن عبد البر، ج3 ص46؛ شواهد التنزيل، للحاكم الحسكاني، ج1 ص26 وغيرها.

67 ولد محمد بن عبد الوهاب في بلدة العيينة سنة 1703م، وتلقَّى دروسه الأولى على يد أبيه قاضي العيينة، حيث أخذ عنه الفقه الحنبلي، وكان كثير المطالعة خصوصًا لكتب الشيخين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية، غادر بلاد نجد بعد زواجه متوجهًا إلى الحجِّ، ليزور المدينة بعد ذلك حيث أخذ العلم عن الشيخ عبد الله بن إبراهيم، وفي البصرة درس على الشيخ محمد المجموعي، وبدأ في نشر بعض أفكاره في التوحيد، فتجمَّع عليه أناس من رؤسائها وغيرهم فآذوه وأخرجوه منها، ثُمَّ استقر في حريملة وبدأ ينشر أفكاره المتعلقة بالتوحيد والشرك وتقديس الأولياء، فوقع بينه وبين أبيه مجادلات ومعارضات، ولم يكد ينتهي من تأليفه كتاب [التوحيد] حتى كان صيته قد ذاع بين القبائل والمدن النجدية.. فانطلق في دعوته. راجع السلفية بين أهل السنة والإمامية، للكثيري، ص305، 309.

68 راجع معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ج1 ص455؛ مفهوم أهل السنة والجماعة ج1 ص338؛ جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ج1 ص199؛ الفتاوى الكبرى ج10 ص3؛ مجموع فتاوى ابن تيمية ج4 ص281؛ تذكرة الحفاظ، للذهبي، ج1 ص362؛ سير أعلام النبلاء ج10 ص35 وغيرها.

69 الحوادث الجامعة، لابن الفوطي، ص216؛ حصر الإجتهاد، للطهراني، ص106، 107؛ تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، للسبحاني، ص68.

70 حكاه في أرشيف ملتقى أهل الحديث، 1، ص218 عن المقريزي في المواعظ والاعتبار ج3 ص390؛ السلفية بين أهل السنة والامامية ص110.

71 حكاه عن ميدان الاجتهاد الشيخ أسد حيدر في كتابه الإمام الصادق... ج1 ص182.

72 هو أبو جعفر منصور بن محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر، ولد سنة 588 هـ، وبويع له سنة 623 هـ، وتوفي سنة 640 هـ. راجع: الأعلام، للزركلي، ج7 ص304.

73 راجع البداية والنهاية، لابن كثير، ج13 ص163.

74 مسند أحمد ج4 ص185؛ شرح مسلم، للنووي، ج12 ص201؛ مسند الشاميين، للطبراني، ج2 ص428 وغيرها.

75 تاريخ التمدُّن الإسلامي، جرجي زيدان، ج1 ص109؛ الإمامة وأهل البيت (ع)، لمحمد بيومي مهران، ج1 ص69.

76 شذرات الذهب ج6 ص213.

77 مرآة الجنان ج4 ص34.

78 شذرات الذهب ج5 ص267.

79 وانقضت أوهام العمر، رواية بقلم السيد جمال محمد صالح، ج23 ص7.

80 الإمامة وأهل البيت (ع)، محمد بيومي مهران، ج3 ص23.

81 طائفة الإسماعيلية ص10.

صبر الإمام علي (ع)

السيد محمد رضا شرف الدين

صبر علي (ع) يوم الدار

سياسة إلهيّةٌ وسُنّةٌ نبويةٌ

السيد محمد رضا شرف الدين

كثيرةٌ هي الحوادث التي نالتها يد التزوير والافتراء، والأكثر منها ما يفترق عند نفيه وإثباته الناس في تحيز تمليه عليهم الميول والأهواء.

وكُلمّا كانت الحوادث مهيمنةً في آثارها على الأعصار، وكان أبطالُها وخصومُهم حاضرين في الساحة بحضور أشياعهم وأتباعهم كانت حوافزُ التشويش آكد، ودوافع الإنقاص والزيادة أقوى؛ ذلك أنَّ القضيّة آنئذٍ تخرج عن كونها مفردةً تاريخيّة محضةً لتُصبح مكوّنًا عقديًّا مستهدَفًا بُغيةَ تقويض الدّين الحقّ، ومادّةً سياسيّةً يتسلّحُ بها المتعاصرون المتخاصمون في عمليّة الاستغلاب على بعضهم البعض.

وقد لا يعني التاريخ ورجالاته لمن يبني عرشه على جماجم الألوف -فيسهل عليه اتخاذ التزييف أو الكتمان التاريخي ملاطًا لتشييد صرحه وتدعيم كيانه- إلا عدة وعتادًا يسلكون به إلى مصالحهم الضيّقة ومآربهم المحدودة بحدود النزوات والمؤطّرة بإطار الشهوات.

وقد تتنوع الأقنعة وتتعدد الألوان وتتكثر الأشكال: من لبوس العلم والمعرفة، فجلباب الدين، إلى أردية الإصلاح وأبراد التجديد؛ فينحو أصحابُها منهج التشكيك حتّى بالمسلمات التاريخية والثوابت العقدية إمّا لحساب السلطان، وإمّا لمحض المخالفة جِسرًا يَعبرُ بهم إلى الشهرة على قاعدة: (خالف تعرف)، وإمّا لحاجات في نفوسهم لا في نفس يعقوب (عليه السلام).

وهؤلاء أدهى رزيةً، وأقبح محضرًا، وأبشع منظرًا من الصنف الأول الذي يجاهر بتهالكه على الحكم والسلطان؛ ذلك بأنّهم يرفعون لواءَ العلم والمعرفة، ويتظاهرون بالحرص على مصلحة الأمّة ورُقيّها، **{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ}**[1].

إنَّ التفكير المنطقي والبحث العلمي والحوار الموضوعي لا يعدو كونه لعقًا على ألسنتهم، لا يتجاوز تراقيهم، ولا يطابق أفعالهم؛ فهم أبعدُ النّاس عن الموضوعية، والمنطق، والمنهج العلمي، بل لا ينطق عن حالهم أبلغُ مما جاء في قوله تعالى: **{وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}**[2] تمامًا كما

هو الحال بالنسبة للحكومات الاستبدادية والأنظمة الديكتاتورية التي تتغنّى بالجماهيرية وتتسمى بالديموقراطية.

وببالغ الأسف نرى اليوم أنَّ كلا الصِّنفين -السياسي والفكري- هما المُتحكّمان بمصير الأمّة، يَسُدّانِ منافذَ تنفُّسها ويُلبّدان عليها آفاقها.

وها هما في مختلف أنحاء العالم الإسلامي يذهبان بها كلَّ مذهب، يُضحّيان بتاريخها، وتُراثها، وحقائقها، ووحدتها، بل بأصل وجودها قُربانًا لتحقيق رغباتهم.

وتالله لولا ما نهانا اللهُ به عن اليأس من رَوحه، ووعدنا به من أن يُحقَّ الحقَّ بكلماته، ويورثَ الأرضَ عباده الصالحين لطوَّق القُنُوطُ أجيادَنا ولذهب الإبلاسُ[3] بحاضرِنا ومستقبلنا.

لكنَّنا آمنّا بالله، وصدَّقنا برُسُله، وكتبه، وقد قال عز من قائل:

{وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[4].

وقال عز اسمه: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ..}[5].

هذا، ومع أنَّ النزاهة العلميَّة والموضوعية التحقيقية لم تجد مكانًا في قاموس هؤلاء، ولم تحتلّ مساحةً في ساحتهم، لكن الله يأبى للتاريخ إلا أن يحتضن الحقيقةَ مدّخرةً لطُلابها متحدّيًا المقاول اللاغطة والأقلام المزيفة. هذا.

ولم تتعرض واقعةٌ تاريخيةٌ -منذ غابر الزمان- لصنوف ألوان الحملات كما تعرضت له قضية ظلامة سيدتنا فاطمة الزهراء (عليها السلام) بضعة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وآله) وبهجة قلبه وروحه التي بين جنبيه، بمختلف أشكالها تَبريريّةً تارةً وتأويليّةً طورًا وتعتيميّةً أخرى.

* فهي بِكرٌ بين الحوادث، يكاد لا يُصدّقُ وقوعها إلا من تأمَّل في إرهاصات الانقلاب على الأعقاب وملابسات التحالفات القائمة بين الأحزاب غبّ غياب خاتم النبيين وأشرف الخلق أجمعين (صلى الله عليه وآله) فاستنبط مكامن عواملها وضغائن عُمّالِها.

* وهي الفيصل المعرفي بين الصراط والسُّبُل: **{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[6] حيث مفترق الطرق بين الحق والباطل، فإمّا الثباتُ على المَودّةِ المفترضة الملازِمةِ لنبذ الولائج المخترعة، وإمّا إعلانُ التمرّد على المرسِلِ والرِّسالةِ والرَّسولِ، فالقضيّة لا تقبل

الجمع بحال من الأحوال.

* وهي المبدِّدة لهالاتٍ ابتُدعت حولَ وجوهِ الظلامِ، إذ شبَّ الأطفالُ، وشابَ الشبابُ، وهرم الكهولُ، ومضى الشيوخُ على تقديس واهمٍ لقائمةٍ من المجرمين، وثلةٍ من الجناة وقد تعاقبت الأجيال على ذلك.

* وهي المزلزلة لما بناهُ أوائلُ المتسلّطين فنسج على منواله المتأخرون، وبثبوتها اضمحلالُ ما شِيدَ من نظرياتِ الحُكم والحاكميّة فيما يُسمّى بالأنظمة الإسلاميّة عبرَ العصور.

على أنَّ تلك الحملات كما تعدّدت في مظاهرها كذلك تعدّدت في مناشئها ومنطلقاتها.

وقد نبغ المعاصرون من المهاجمين في حملتهم اليوم؛ حيث انطلقوا من تعظيم أمير المؤمنين علي (عليه السلام) لينكروا أنباء الظُّلامات التي حلّت بسيدتنا الصديقة الشهيدة (عليها السلام) مما فاق محاولاتِ الأوَّلين في طمس الحقيقة.

وزُبدةُ زَبَدِهِم في هذا المقام هو أنّ أمير المؤمنين عليًا (عليه السلام)، فارس الفرسان، ومُجدّل الأبطال، في بدر وأحد والأحزاب، وداحي باب حصن خيبر، صاحب الصولة الحيدريّة، والقوّة الإلهيّة، والغيرة العلويّة كيف يُعقل أن تُقتحم داره، وتُضرب حليلته، وتُؤذى حبيبته، وتُختلس أمانته، ويُقاد بنجاد سيفه فلا يذب عن عرينه، ولا يدافع عن حريمه، بل يُسلِمُ أمرَه، ويُسلسُ قيادَ نفسه، فلا يُجرّدُ حسامًا ولا يُشرِع سِنانًا؟!

فركّبوا قياسًا قدّروه بعقولهم القاصرة -فقُتلوا كيف قدّروا، ثُمَّ قتلوا كيف قدّروا- من قياسين اقتراني واستثنائي.

أما الاقتراني فمُكوّنٌ من مقدمتين:

المقدمة الأولى: كلُّ غيور لا يصبر دون ضيمه واهتضامه وضرب عقيلته وترويع أطفاله.

المقدمة الثانية: عليٌّ (عليه السلام) غيور.

النتيجة: فعلي (عليه السلام) لا يصبر دون ضيمه واهتضامه وضرب عقيلته وترويع أطفاله.

ثُمَّ أخذوا النتيجة وجعلوها في القياس الآخر وهو استثنائي فقالوا:

كُلَّما ضيم علي (عليه السلام) واهتُضِم وضربت عقيلته وروّع أطفاله لم يصبر.

وضمّوا إليها مقدمةً أخرى وهي: لكنَّه صَبَرَ.

فكانت النتيجة: فعلي (عليه السلام) لم يُضَمْ ولم يُهتَضَمْ ولم تُضرَبْ عقيلتُه ولم تُروّعْ أطفاله.

وانخدع بهذه المغالطة البعض من البسطاء فاقتنعوا بنتائجها من منطلق حُبّهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) وتعظيمهم إيّاه، واستغل ذلك المغرضون وطبّلوا وزمّروا لهذا الفتح المبين وخالوا أنّهم عفّوا آثار الجريمة النكراء وبرّؤوا ساحة المجرمين.

لكن أنّى لهم ذلك وما جاؤوا به زَبَدٌ يذهب جفاءً، ولن يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس.

وما مثلهم إلا كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإنَّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون.

وثائق من التاريخ

لسنا في هذه العجالة بصدد إحصاء الوثائق التاريخية على فاجعة يوم الدار، بدءًا من المتسالم عليه عند جميع أهل القبلة من المحاصرة والتهديد بالإحراق، بل والكشف الذي يحتمل جميع الجرائم المنقولة من طرقنا، حتى قال أوّلُ الواثبين مُتحسّرًا -عندَ مُشارفته على الرحيل إلى دار الجزاء- مقالةً سارت بها الرُّكبان: [ليتني لم أكشف بيت فاطمة، ولو أُغلقَ على حرب][7]، إلى التفاصيل الأخرى المشهورة بلا خلاف بين أبناء مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) ومُلخّصُها العنفُ الجسديُّ الذي تعرّضت لهُ السيدةُ الصدّيقةُ الشهيدةُ فاطمةُ بنتُ رسول الله وما نتج عنه من قتل جنينها السِّبطِ المحسَّنِ (عليه السلام).

لكننا نكتفي قبل ردّ المغالطة بذكر بعض النماذج محيلين القارئ الكريم إلى المصنفات التي تولّت إحصاء الوثائق وسرد الوقائع[8].

التهديد بإحراق الدار

والحقيقة الأولى التي لا يمكن لأحد من المخالفين إنكارها تفي بالمطلوب تمامًا؛ إذ إنّه وبعد الفراغ عن كون البضعة الزهراء (عليها السلام) ـ بحكم النصوص الكثيرة الصحيحة عند الفريقين والتي سنعرض عيّنةً منها لاحقاً ـ هي الوجود التنزيلي لأبيها الشهيد الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وآله) فالمحاصرون لها محاصرون له، والمهددون لها مهددون له، والمتجاسرون عليها متجاسرون عليه.

ومن البديهي أنَّ حُكم الذين يحاصرون دار النبي (صلى الله عليه وآله) ويهددون شخصه الشريف بالإحراق كحكم المتجاسرين عليه بالضرب والعاملين على قتله.

فتَحَصَّلَ أنَّ قضية تهديدها تكفي في الحكم على المهددين بما يحكم فيه على الضاربين وبذلك يُكتفى بثبوت التهديد عن كافة التفاصيل.

من وثائق التاريخ

- **البلاذري (المتوفى سنة 224هـ)** في أنساب الأشراف بسنده:

إنَّ أبا بكر أرسل إلى علي يريد البيعة، فلم يبايع، فجاء عمر ومعه فتيلة، فتلقته فاطمة على الباب، فقالت فاطمة: يا ابن الخطاب، **أتراك محرقًا عَلَيَّ بابي**؟!

قال: نعم، وذلك أقوى فيما جاء به أبوك[9].

- **ابن أبي شيبة (المتوفى سنة235هـ)** في المصَنَّف:

[حين بويع لأبي بكر بعد رسول الله، كان علي والزبير يدخلان على فاطمة بنت رسول الله، فيشاورونها ويرتجعون في أمرهم، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب، خرج حتى دخل على فاطمة فقال: يا بنت رسول الله، والله ما أحد أحبَّ إلينا من أبيك، وما من أحد أحبَّ إلينا بعد أبيك منك، وأيم الله ما ذاك بمانعي إن اجتمع هؤلاء النفر عندك أن أمرتهم أن **يحرق عليهم البيت**][10].

- **ابن قتيبة الدينوري (المتوفى سنة276هـ)** في الإمامة والسياسة:

[إن أبا بكر رضي الله عنه تفقد قومًا تخلفوا عن بيعته عند علي كرم الله وجهه، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم وهم في دار علي، فأبوا أن يخرجوا، **فدعا بالحطب وقال: والذي نفس عمر بيده، لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها، فقيل له يا أبا حفص، إنَّ فيها فاطمة؟ فقال: وإن..**][11].

- **ابن أبي عاصم (المتوفى سنة 287هـ)** في كتاب المذكر والتذكير والذكر:

حيث روى بإسناده أنَّ عمر بن الخطاب قال لسيدتنا فاطمة الزهراء (عليها السلام):

[..فقد بلغني أن هؤلاء النفر يجتمعون عندك وأيم الله لئن بلغني ذلك **لأُحَرِّقَنَّ عليهم البيت**.

فلما جاؤوا فاطمة قالت: إنَّ ابن الخطاب قال كذا وكذا فإنه فاعل ذلك][12].

- محمد بن جرير الطبري(ت 310هـ) في تاريخه:

[أتى عمر بن الخطاب منزل علي وفيه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: **والله لأحرقن عليكم** أو لتخرجن إلى البيعة..][13].

- أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري (المتوفى 323) السقيفة وفدك:

[.. لمّا جلس أبو بكر على المنبر كان عَليٌّ، والزبير، وناسٌ من بني هاشم في بيت فاطمة، فجاء عُمَرُ إليهم، فقال: والذي نفسي بيده **لتَخرُجُنَّ إلى البيعة أو لأحرقَنَّ البيتَ عليكم**.][14]

- ابن عبد ربه (المتوفى سنة 328 هـ):

[... وأمّا عليٌ والعباس والزبير، فقعدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيت فاطمة وقال له: إن أبوا فقاتلهم، **فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم الدار**، فلقيته فاطمة فقالت: يا ابن الخطاب، أجئت لتحرق دارنا؟

قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة][15].

هذا طَرَفٌ مما رواه جملةٌ من أكابر علماء أتباع المهاجمين في التهديد بإحراق بيت بضعة الحبيب المصطفى (صلى الله عليه وآله) وهنا لا بُدَّ من تسجيل بعض الملاحظات:

أ- إنّ إقرار الأتباع باقتراف المتبوع عملاً ما، يورث الوثوق بوقوع ذلك العمل.

ب- إنَّ الأقلام السلطوية تحاول التخفيف من بشاعة ما صدر من السلطات مهما أمكنها ذلك، من خلال اعترافها بمستوى معين من الجرائم والمبادرة إلى اتهام مصادرِ الضحيّة بتضخيم الظُلامةِ الواردة عليها.

لكنَّ تلك التهمة لا تكاد تجد محلا فيما نحن فيه، كيف؟! والضحية في هذا المورد تأبى المقولة المكافيللية (الغاية تبرر الوسيلة) بل تؤمن بمبدأ (قليلٌ من الحق يغني عن كثير من الباطل) الذي سنّه لها لسان الله الناطق في أرضه، من لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، خلافاً لمن يأتم بتلك السلطات التي لا ترعوي عن ارتكاب أيّة وسيلة في سبيل تحقيق مآربها اللامشروعة.

ثم إن جهة الإجرام جاءت بأعظم جريمة لا يمكن كتمانها وهي التوثب على مقام الخلافة الإلهيّة العظمى، تلك الجريمة التي تفوق كلَّ الجرائم والتي سَنّت مبدأ شريعة الغاب بتكريس منهج المغالبة، وتغييب النصِّ الشرعي ومنطق الكفاءات العقلائي، واستعادة الحمية الجاهلية التي جهد النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله) باستئصالها من خلال عظيم التضحيات منه ومن خُلَّص الصحابة الذين بذلوا مهجهم دون ذلك.

من ثَمَّ فإنَّ أيّةَ جريمة تقترف في هذه الأمة بل وغيرها إلى قيام الساعة فإنها تنتمي إلى تلك الجريمة التي هي أُمُّ الجرائم.

ومع ثبوت الأفظع والأشنع، ثبوتًا قطعيًا لا يقبل التشكيك، لا تصل النوبة إلى التهويل باختلاق تهمة هي دون الجريمة الكبرى.

بناءً على ما تقدم يصلح ما تمَّ الاعتراف به -وهي حقيقة التهديد بالإحراق، والتي أقرت به أوساط السلطة- شاهدًا ومؤيّدًا لما نَصَّت عليه المصادرُ المستقلة أو مصادر المجنيِّ عليه وأنَّ القدر الذي كتمته من الجريمة هو أكثر وأكبر مما أقرت به كمًا وكيفًا.

ج- إنَّ حديث التهديد بالإحراق متواترٌ قطعيٌّ لا يناقِشُ فيه عاقلٌ فضلاً عن فاضلٍ وقد اتَّفَقَ على روايتِه وثبوتِه علماءُ أهلِ القبلة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وأمصارهم وأعصارهم وألسنتهم وأعراقهم.

ولا ريب في أنّ التهديد بالإحراق ترويعٌ، فإن كان المهدَّدُ مؤمنًا كان التهديد من أعظم الكبائر، وقد ورد في الأحاديث الشريفة أنَّه: **[مَنْ رَوَّعَ مؤمنًا لم يؤمِنِ اللهُ روعتَه يومَ القيامة، ومَنْ سعى بمؤمنٍ أقامه اللهُ مقامَ ذُلٍّ وخزيٍ يومَ القيامة]** [16].

كما اتفقت كلمة أهل العلم من المسلمين على أنَّ من شهر السلاح في وجه المؤمن فإنّه مهدورُ الدّم محارِبٌ حَدُّهُ القتلُ [17].

وما محاولة البعض من تخصيص ذلك بقُطّاع الطريق دون غيرهم إلا تَوَهُّمٌ محضٌ، والعموم في الموضوع سالم عن المخصص.

وإن قيل إنَّ المراد بالسلاحَ هنا هو المتعارف دون غيره، قلنا بأنَّ السلاح -المأخوذ موضوعًا في لسان الأدلة- لا ينحصر بالأدوات المتعارفة، بل يشمل -بمناسبة الحكم والموضوع- كلَّ الوسائل التي من شأنها التأثيرُ جَرحًا وقَتلاً كالعصا والحجارة ومنها قبسُ النّار، بل قد يكون من أشدِّها كما لا يخفى.

فتحصّل أنَّ حديث التهديد بمفرده كافٍ في ترتيب كافّة الآثار المترتبة على التفاصيل الأخرى التي سيوافيك طَرَفٌ منها، ولذا فإنَّ الخوض في سائر التفاصيل لا يعدو كونَهُ من نافلة القول.

د- تواترت الأحاديث الشريفة عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما يفيد أنَّ فاطمة الزهراء (عليها السلام) هي وجودٌ تنزيلي له وأنها جزءٌ لا يتجزأ من إنّيّته؛ فما يجري عليها من أحداث وما يصدر تجاهها من مواقف وسلوكيّات يكون بمنزلة ما يجرى عليه وما يصدر تجاهه؛ فيؤذيه ما يؤذيها، ويريبه ما يريبها، ويسخطه ما يسخطها، ومن أغضبها فقد أغضبه، ومن سَرَّها فقد سرَّه، ومن ساءها فقد ساءه، ومن آذاها فقد آذاه، ومن غاظها فقد غاظه [18].

وبعد هذا كلِّه حقَّ القول منّا أنّه: من هدَّدَها فقد هدَّدَه، ومن حاصر بيتها فقد حاصر بيته، ومن جَمَعَ الحطبَ على باب دارِها فقد جَمَعَ الحَطَبَ على باب داره، ومن هَمَّ بإحراق منزلها فقد هَمَّ بإحراق منزله -صلوات الله تعالى عليه وعليها وعلى بعلها وبنيها- وعلى هذه فَقِسْ ما سواها.

فما حكم من هدَّدَ رسولَ الله وهَمَّ بإحراق داره وكشف بيته عند كافة المسلمين؟

أفتونا مأجورين.

هـ- لقد قام المُهدِّدون بما قاموا به انتصارًا لبيعةٍ صرَّح رأسُهُم بأنّها فلتةٌ ذاتُ شرّ، حَكَمَ على الذي يعود إلى مثلها بالقتل[19]، ونحن عقلاء نعلم بأنَّ إقرارَ العقلاء على أنفسهم جائزٌ نافذٌ، كما نعلم بأنَّ حكم الأمثال في ما يجوز وما لا يجوز واحدٌ، وبذلك يكون قد أقرَّ على نفسه بأنَّه قام بما يحكم على فاعله بالقتل. أفلا يتدبرون؟!

و- إنّ محاولة بعضهم نفي تعرُّضِ الزهراء (عليها السلام) للعنف الجسدي أو التشكيك في ذلك بحُجّة أنَّه: (لو كان ذلك لما سكت أمير المؤمنين (عليه السلام) لأنَّ السكوت ينافي الغيرة والشجاعة) لا يمكن الالتزام به.

لأن وقوع التهديد الثابت بالتواتر القطعي عند كافة أهل القبلة -عامّةً وخاصّةً، معتزلةً وأشاعرةً وظاهريّةً وزيديّةً وإسماعيليّةً وإماميّةً- وإن كان يفترق عن المباشرة بالضرب كفعلٍ وما يستتبعه من ردة فعل، إلا أنّه يسانخه ولو بدرجةٍ أضعف، فيستدعي التصدّي لدفعه، وهذا ما لم يُنقل صدوره عن أمير المؤمنين (عليه السلام).

حيث إنَّ المصادر التي نقلت فعل المهدِّد وما جرى بينه وبين الصديقة الشهيدة (عليها السلام) من حوار، لم تذكر قيام أمير المؤمنين (عليه السلام) بأية خطوة دفاعية ولو على المستوى القولي فضلاً عن الفعلي.

فإمّا أن يجوّزوا جميع ذلك، وإما أن ينفوا جميع ذلك، فلا مجال للتفصيل، إذ من الواضح غاية الوضوح أنَّ الغيرة التي تذرعوا بها لنفي العنف الجسدي تمنع من الصبر عن التهديد؛ فالمرء كما يهبُّ بدافع غيرته للدفاع عن أهل بيته في حال تعرُّضِهِم للضرب، فكذلك لا بُدَّ وأن يَهبَّ للدفاع عنهم وبدافع الغيرة أيضًا في حال تَعَرُّضِ البيت للمحاصرة والتهديد.

فهم إمّا غافلون عن بداهة وحدة المناط بين أن يُهدَّدَ المرءُ وعياله بالموت وبين المباشرة بذلك -ولو بدرجة أشد، حيث إنَّ الفرق بين الفرضين غيرُ فارقٍ في المقام- وإمّا أنّهم مُمَهِّدون للتشكيك بالمُسلّمات التاريخية، يلتمسون وجوهَ تبرئة القوم من جرائمهم تدريجًا.

فاليوم ينفون أو يُشكّكون في ضربهم إيّاها ليشككوا غدًا في أصل التهديد، وقد يصلون فيما بعد إلى تصوير المسألة بأنَّ رأسَ المهاجمين كان قد جاء إلى باب دارها في زيارةٍ ودّيّة معزّيًا حامِلاً بيده طاقةً من الزُّهور البيضاء المحتزمة بوشاحٍ أسود!!!.

العنف الجسدي

المشهور الذي لا خلاف فيه بين الإمامية من محدثين ومؤرخين وفقهاء وشعراء وعوام عبر العصور هو تعرض الصديقة الشهيدة (عليها السلام) للعنف الجسدي، ومن أراد أن يقف على صحة دعوانا هذه فليراجع المصنفات التي تقدم منّا ذكرها.

وبحسبك ما أفاده [شيخ الطائفة على الإطلاق] أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (قدس سره) حيث قال: [..والمشهور الذي لا خلاف فيه بين الشيعة: أنَّ عمرَ ضربَ على بطنها حتى أسقطت، فسمي السقط مُحَسَّنًا، والرواية بذلك مشهورة عندهم.

وما أرادوا من إحراق البيت عليها، حين التجأ إليها قومٌ، وامتنعوا من بيعته.

وليس لأحدٍ أن يُنكر الروايةَ بذلك، لأنّا قد بيَّنّا الروايةَ الواردةَ من جهة العامة، من طريق البلاذري، وغيره. ورواية الشيعة مستفيضة به، لا يختلفون في ذلك][20].

ومن لم يأتِ منهم على ذكر ذلك في بعض مصنفاته أو ظهر منه عدم ثبوت ذلك عنده فلعوامل لا تخفى على العاقل اللبيب.

منها: أننا وفي مقام محاججة المخالفين من أتباع معسكر المهاجمين لا يمكننا إلزامهم بما ورد من طرقنا دون طرقهم مع أن الثابت عندهم كاف في إلزامهم، والدخول في مغبة إثبات القدر الزائد على المسلّم لديهم يعطيهم فسحة لتمييع المسلمات ليحرفوا البحث في جدلية عقيمة عن لوازم ما لا يقبل التشكيك وهي حقيقة التهديد التي تقدم الكلام عنها.

ومنها: الظروف القاسية التي طالما حكمت الساحة الإسلاميّة حيث كانوا يكتمون أنفاس أتباع مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) بثقل الإرهاب السلطوي الذي عاد شبحه يتراءى للعيان في يومنا هذا.

إنَّ الإرهاب الفكري لم يقتصر في ضحاياه على علماء الشيعة بل ذهب ضحيته علماء أهل السنّة أيضًا، فقد تعرض الكثيرون منهم للحصار الاقتصادي أو الاغتيال الاجتماعي، وقد بلغ الأمر حدَّ التصفية الجسدية كما في قضية النسائي صاحب السنن حيث قتل في بلاد الشام لمجرد غمزه من قناة معاوية بن أبي سفيان، فكيف بمن يحدّث بمثالب من سبقه ممن يسمّون بالصحابة.

ومن الشواهد الكثيرة على ذلك ما رواه أبو الجارود -في هذا السياق- عن محمد بن عمرو بن الإمام السبط الحسن بن علي (عليه السلام) حينما سئل عن أبي بكر وعمر قوله: «قتلتم منذ ستين سنة في أن ذكرتم عثمان، فوالله لو ذكرتم أبا بكر وعمر لكانت دماؤكم أحلّ عندهم من دماء السنانير»[21].

وأما قضية التهديد فلم يكن للقوم بُدٌّ من الإقرار بها في سبيل التعتيم على ما تلاها من جرائم، فالدول المهاجمة تعتمد أسلوب الكشف عن جزء من الحقائق التي تُدينُها مما لا يسعها إخفاؤه كثمنٍ لا محيص عنه في سبيل التغطية على جرائمها الأخرى وهذا ما هو متداول حتى عصرنا الحاضر، وبحسبك مراقبة إعلام الكيان الصهيوني الغاصب في كيفية تغطية جرائمه النكراء على أهلنا في جبل عامل وغزة هاشم، والإعلام الأمريكي المعتدي على عراقنا الحبيب وغيره.. والأمثال تُضربُ ولا تقاس.

وعلى رغم كلّ الظروف الضاغطة التي تستدعي الكتمان فقد اشترك مع أعلام الإمامية في نقل الهجوم على سيدتنا الزهراء وضربها جملةٌ من أعلام غيرهم، كبعض علماء العامة ممن لا يتهمون في حق المهاجمين بل يتحزبون لهم وينتمون إلى معسكرهم، فضلاً عن أئمة الزيدية والإسماعيلية.

وهنا نأتي بكوكبة من هؤلاء على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم:

1- إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي البغدادي[22]:

[إنَّ عمر ضرب بطن فاطمة يوم البيعة حتى ألقت الجنين من بطنها وكان يصيح أحرقوا دارها بمن فيه. وما كان في الدار غير علي وفاطمة والحسن والحسين][23].

يتبع =

([8]) راجع على سبيل المثال: الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف للسيد رضي الدين ابن طاوس الحسني باب ما شهد به العامة على أنهم خالفوا وصايا نبيهم، نهج الحق وكشف الصدق للعلامة الحلي، بحار الأنوار للعلامة المجلسي كتاب الفتن والمحن الباب الرابع، الأربعين للشيخ محمد طاهر القمي الشيرازي باب تزييف الإجماع على بيعة أبي بكر، إفحام الأعداء والخصوم للسيد ناصر حسين اللكنهوي الهندي، فصل مبحث ظلم عمر على السيدة فاطمة، بيت الأحزان للمُحدّث القمي، مأساة الزهراء للسيد جعفر مرتضى العاملي، مظلومية الزهراء للسيد علي الميلاني، حوار حول الزهراء للسيد هاشم الهاشمي، الهجوم على بيت فاطمة للشيخ عبد الزهراء مهدي، ظلامة الزهراء في السنة والآراء للشيخ عبد الكريم العقيلي، موسوعة شهادة المعصومين للجنة الحديث في معهد باقر العلوم، المحسن السبط مولود أم سقط للسيد مهدي الخرسان، من حياة الخليفة عمر بن الخطاب لعبد الرحمن البكري.

([18]) راجع على سبيل المثال: صحيح البخاري ج4 ص210 و212 و219 وج6 ص158، صحيح مسلم النيسابوري ج7 ص141، صحيح ابن حبان ج15 ص406 و408 و536، سنن ابن ماجة القزويني ج1 ص644، سنن أبي داود السجستاني ج1 ص460، سنن الترمذي ج5 ص359 و360؛ سنن النسائي ج5 ص97 و146، المستدرك للحاكم النيسابوري ج3 ص159، السنن الكبرى للبيهقي ج7 ص307 و308 ج10 ص201 و288، المصنف للصنعاني ج7 ص301 و302، المصنف لابن أبي شيبة ج7 ص526، الآحاد والمثاني للضحاك ج5 ص361 و362، ومسند أحمد بن حنبل ج4 ص4 و326 و328، مسند أبي يعلى الموصلي ج13 ص134، فضائل سيدة النساء لعمر بن شاهين (المتوفى سنة 385هـ) ص30 و31 و33 و34 و35 و36، تثبيت الإمامة للهادي يحيى ابن الحسين الزيدي ص28، دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي ج2 ص214 وكتابه شرح الأخبار ج3 ص30 و31 و59 و60 و61، الاعتقادات للشيخ الصدوق ص105 والخصال ص573 وعلل الشرائع ج1 ص186 و187 ومن لا يحضره الفقيه ج4 ص125، كفاية الأثر للخزاز القمي ص37 و64 و65، روضة الواعظين للشهيد

الفتال النيسابوري ص150، الإيضاح للفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري ص541، مناقب الإمام أمير المؤمنين لمحمد بن سليمان الكوفي ج2 ص200 و211، دلائل الإمامة لمحمد بن جرير الطبري الشيعي ص135، الأمالي للشيخ المفيد ص260، التعجب لأبي الفتح الكراجكي ص134، الأمالي للشيخ الطوسي ص24.

([19]) راجع على سبيل المثال: صحيح البخاري ج8 ص26، المصنف لابن أبي شيبة ج8 ص57، تثبيت الإمامة للهادي يحيى بن الحسين الزيدي ص13، سنن النسائي ج4 ص272، صحيح ابن حبان ج2 ص148 و157 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج2 ص26 و50 وج6 ص47 وج11 ص13 وج12 ص147 وج13 ص224 وج20 ص21، المواقف للإيجي ج3 ص600 و611، كنز العمال للمتقي الهندي ج5 ص651، تمهيد الأوائل للباقلاني ص495، تاريخ اليعقوبي ج2 ص158، تاريخ دمشق لابن عساكر ج30 ص283 و285، العثمانية للجاحظ ص196 و286، غريب الحديث لابن سلام ج3 ص355، النهاية في غريب الحديث ج3 ص467، شرح الأزهار للإمام أحمد المرتضى الزيدي ج1 ص26، دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي ج1 ص85، الإيضاح للفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري ص134 و138 و516، الاحتجاج للطبرسي ج1 ص381 وج2 ص153 و235، مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب السروي ج3 ص430 و462، العقد النضيد لمحمد بن الحسن القمي.

([22]) عالمٌ كبيرٌ من علماء المعتزلة وأحد فرسان أهل النظر، مصنّفٌ مُكثرٌ مُجيد وشاعرٌ مُفلِقٌ مُبدعٌ ومفكّرٌ حاذقٌ دقيقٌ، يمتازُ بالتحرر من نير التقليد، والغوص في النصوص والآثار، جريءٌ في إبداء آرائه، تلمّذ الجاحظ عليه، وأخذ منه، وكان يعظمه مع تخطئته له في جملة من آراءه الجريئة.

تعرض إلى هجوم عنيف من قبل مقلدة العامة لكنَّ كلَّ ذلك لا يخدش في إقراره لكونه متعصّبًا للمتوثبين، يدين بولايتهم ويدافع عنهم ويقدسهم، بل بآرائه تلك شَيَّدَ دعائمَهم بما لم يقدر عليه أصحاب الحديث ومتكلمو الأشاعرة، وذلك بفذلكاته واستدلالاته التي قد تنطلي على كثير من العقلاء، بخلاف تحكّمات جمهور العامّة وتناقضاتهم الواضحة.

توفى سنة231 للهجرة. وأشد ما نعوه عليه هو إقراره بتلك الحقيقة التي جهدوا في إخفائها.

تتمة مقال=

(صبر علي (ع) يوم الدار- سياسة إلهيّةٌ وسُنّةٌ نبويةٌ)

2- إبراهيم بن محمد الجويني الشافعي([24]):

بإسناده إلى ابن عباس، عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث طويل أنه قال:

«.. وأمّا ابنتي فاطمة، فإنها سيدة نساء العالمين..وإنّي لما رأيتها ذكرت ما يصنع بها بعدي، كأنّي بها وقد دخل الذُّلُّ بيتَها، وانتُهكت حُرمَتُها، وغُصِبَ حقُّها، ومُنِعَت إرثَها، وكُسِرَ جَنبُها، وأسقطت جنينَها، وهي تنادي: يا محمداه!، فلا تجاب، وتستغيث فلا تغاث، فلا تزال بعدي محزونةً مكروبةً، باكيةً..ثم ترى نفسَها ذليلةً بعدَ أن كانت في أيّام أبيها عزيزةً..فتكون أوّلَ من يَلحقُني من أهل بيتي، فتَقدِمُ عَليَّ محزونةً مكروبةً، مغمومةً، مغصوبةً، مقتولةً..»[24].

3- النقيب أبو جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد العلوي نقيب البصرة([26]).

قال ابن أبي الحديد في شرح النهج: [.. قلت وهذا الخبر أيضا قرأته على النقيب أبي جعفر (رحمه الله)، فقال: إذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) أباح دم هبار بن الأسود لأنه رَوّع زينبَ فألقت ذا بطنها، فظهر الحال إنّه لو كان حيًّا لأباح دمَ من رَوّع فاطمةَ حتّى ألقت ذا بطنها.

فقلت: أروي عنك ما يقوله قومٌ إنَّ فاطمة رُوّعَتْ فألقت المُحَسَّن؟

فقال: لا تروهِ عنّي، ولا تروِ عني بطلانه، فإنّي متوقفٌ في هذا الموضع لتعارض الأخبار عندي فيه][25].

ونلاحظ على هذا الكلام:

- أنَّ أبا جعفر النقيب أرسل كلامه إرسال المُسلّمات بادي بدء، حتى إذا ما واجهه تلميذه بتحميله مسؤوليّة رواية الواقعة أمامَ الآخرين تراجع عن موقفه مُبديًا التوقُّفَ، وما ذلك إلا لحرية الرأي والتعبير الذي كان يعيشه العلماء في حواضرهم العلمية، إذ قد يلحقون بباريهم لمجرد نقلهم خبرًا لا تستسيغه مؤسسة الإرهاب الفكري!!.

- أنَّه وإن ادّعى التوقفَ لكنَّه لم يتنازل عن قوّة أدلّة ثبوت الجريمة؛ إذ إنَّ التوقف فرعُ التعادل بعد التعارض، وفي ذلك إصرارٌ منه على توافر أدلّةِ تَعَرّضها (عليها السلام) للضرب المؤدّي إلى الإجهاض.

- أنَّ كلام ابن أبي الحديد نصٌ في تداول الخبر وشياعه في الأوساط العلمية آنئذ.

4- الهادي إلى الحق أبو الحسين يحيى بن الحسين الحسني الزيدي[26]:

حيث أورد في كتابه [تثبيت الإمامة] ما نصّه:

[..فقال أبو بكر لعُمَر: انهض في جماعة واكسر باب هذا الرجل، وجئنا به يدخل في ما دخل فيه الناس!!.

فنهض عمر ومن معه إلى باب علي (عليه السلام)، فدقّوا الباب، فدافعته فاطمة صلوات الله عليها فدفعها، وطرحها!.

فصاحت: يا عمر!، أحرجك بحرج الله أن لا تدخل علي بيتي، فإنّي مكشوفةُ الشَّعرِ، مبتذلة!!.

فقال لها: خذي ثوبك!!.

فقالت: ما لي ولك؟!

ثم قال لها: خذي ثوبك فإني داخل!!.

فأعادت عليه البتول، فدفعها، ودخل هو وأصحابه، فحالت بينهم وبين البيت الذي فيه علي (عليه السلام) -وهي ترى أنها أوجب عليهم حقًا من علي (عليه السلام) لضعفها وقرابتها من رسول الله (صلى الله عليه وآله) - فوثب إليها خالد بن الوليد، وضربها بالسوط على عضدها، حتى كان أثره في عضدها مثل الدملج![27].

5- القاضي أبو حنيفة النعمان المغربي([30]):

حيث جاء في أرجوزته العقائدية المختارة:

حتى أتوا بابَ البتول فاطمة	وهي لهم قالية مصارمة
فوَقَفَتْ مِنْ دونه تَعذلُهُمْ	فَكَسَرَ البابَ لَهُمْ أوَّلُهُمْ
فاقتحموا حجابَها فعوّلَتْ	فَضَربوها بَينَهم فأسقَطَتْ([31])

أما ما رواه الإمامية في هذا الصدد فإنه يبلغ حد التواتر الإجمالي دون أدنى ريب ومفاده تعرضها لعنف جسدي أدى إلى استشهادها صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها، نذكر بعضًا منها تاركين تفصيلها إلى الكتب التتبعية:

1- محمد بن جرير الطبري الشيعي:

بسند صحيح عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) أنه قال:

«ولدت فاطمة (عليها السلام) في جمادى الآخرة في العشرين منه، سنة خمس وأربعين من مولد النبي (صلى الله عليه وآله)..].

إلى أن قال (عليه السلام)**:** [وكان سبب وفاتها أن قنفذًا مولى الرجل لكزها بنعل السيف بأمره، فأسقطت محسنًا. ومرضت من ذلك مرضًا شديدًا، ولم تدع أحدًا ممن آذاها يدخل عليها.

وكان رجلان من أصحاب النبي سألا أمير المؤمنين أن يشفع لهما. فسألها، فأجابت.

ولما دخلا عليها قالا لها: كيف أنتِ يا بنت رسول الله؟!

فقالت: بخير والحمد لله..

ثم قالت لهما: أما سمعتما النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: فاطمة بضعة مني، فمن آذاها فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله؟!

قالا: بلى.

قالت: والله لقد آذيتماني.

فخرجا من عندها وهي ساخطة عليهما»[28].

2- **الشيخ الصدوق** (قدس سره):

بإسناده عن أمير المؤمنين عليٍ بن أبي طالب (عليه السلام) أنه قال: «بينا أنا، وفاطمة، والحسن، والحسين عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) إذ التفت إلينا فبكى، فقلت: وما ذاك يا رسول الله؟!

قال: أبكي من ضربتك على القرن، ولطم فاطمة خدها»[29].

3- جعفر بن محمد بن قولويه القمي البغدادي:

في كتابه كامل الزيارات بسنده عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام):

[لما أسري بالنبي (صلى الله عليه وآله) قيل له: إن الله يختبرك في ثلاث وصار يعددها..].

إلى أن قال: [وأما ابنتك فتُظلمُ، وتُحرمُ، ويؤخذُ حقُّها غصبًا، الذي تجعله لها، وتضرب وهي حامل، ويدخل عليها وعلى حريمها ومنزلها بغير إذن، ثم يمسها هوان وذل، ثم لا تجد مانعًا وتطرح ما في بطنها من الضرب، وتموت من ذلك الضرب..].

إلى أن تقول الرواية: [وأول من يحكم فيه «محسن» بن علي في قاتله، ثم في قنفذ، فيؤتيان هو وصاحبه..[30]].

4- أبو الفتح الكراجكي:

في كنز الفوائد بسند معتبر عن الصادق (عليه السلام)، أنه قال في حديث طويل: «يا يونس، قال جدي رسول الله (صلى الله عليه وآله): ملعونٌ من يظلم بعدي فاطمة ابنتي، ويغصبها حقَّها ويقتلُها»[31].

5- **الشيخ المفيد** (قدس سره):

بسنده عن عبد الله بن بكر الأرجاني، قال:

[صحبت أبا عبد الله (عليه السلام) في طريق مكة من المدينة..] ثم ذكر حديثًا طويلاً ذكر له فيه أبو عبد الله (عليه السلام):

«قاتِلُ أمير المؤمنين (عليه السلام)، وقاتِلُ فاطمة (عليها السلام)، وقاتِلُ المحسن، وقاتِلُ الحسن والحسين..».

ورواه في كامل الزيارات بسند آخر عن عبد الله الأصم، عن عبد الله بن بكر الأرجاني، وفيه: «وقاتل فاطمةَ ومُحَسَّن»[32].

نكتفي بهذه الخمسة تيمُّنًا بالخمسة الطيبة صلوات الله عليهم ولعنته على من ظلمهم.

ونختم كلامنا في هذا المقام بما يفيد أنَّ الإمامية كانت مشتهرة منذ القدم بروايتها لهذه الحوادث -كما أفاده شيخها الطوسي (قدس سره) في كلامه المتقدم- قال القاضي عبد الجبار المتوفى سنة 415 للهجرة وهو من أكابر القوم: إنَّ الشيعةَ قد ادّعوا رواية رووها عن جعفر بن محمد «عليه السلام» وغيره: إن عمر ضرب فاطمة بالسوط[33].

أمّا قوله: (الشيعة..) فيؤكّد إجماع الطائفة على الرواية، وأمّا قوله: (عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) وغيره..) فيدلُّ على تعدد الروايات لتعدد المروي عنه.

عودة إلى صلب البحث

بعد تلك المقدمة نعود إلى صلب موضوعنا وهو: التصدي للمغالطة النافية لتعرض سيدتنا الصديقة الشهيدة (عليها السلام) للعنف الجسدي، انطلاقًا من أنَّه لو كان الأمر كذلك لهبَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) للدفاع عنها، ولامتشق سيفه مقاتِلاً جموعَ المهاجمين، والحال أنَّه لم يؤثَر عنه ذلك؛ ولذا فإنَّ سكوته وعدم مبادرته للقتال يدلُّ على عدم وقوع الهجوم على داره، وعدم تعرض حليلته للضرب والقتل.

وحيث إنّ إمامنا (عليه السلام) ما كان بدعًا من الأولياء، ولا نراه -معاذ الله- يحيد في سلوكياته عن السياسة الإلهية حتى لو أدّى ذلك إلى أن يُقدّمَ نفسَه وزوجَه وكلَّ ما يملك قُربانًا في هذا السبيل، ثُمَّ إنّه وصيُّ رسول الله خاتم النبيين (صلى الله عليه وآله) فلا يمكن أن يجري على خلاف السنة النبويّة مهما كان الظرف عصيبًا والأزمة حادة.

لذلك فإننا لابد من أن ننظر إلى فعل الله مع من آذى الله ورسوله، وتمرد على مشروعه، وناجز شرائعه، ثُمَّ نعطف على أولياء الله من الرسل والصالحين لنرى طبيعة ردود أفعالهم مع من يهاجمهم ويجاهدهم.

السياسةُ الإلهيّة

لا ريب أنّ الله غيورٌ يحبُّ كلَّ غيور، وقادرٌ بذاته، قاهرٌ فوقَ عباده، حاكمٌ بما يشاءُ، فاعلٌ لما يريد، لا يُعييه صنعٌ، ولا يَمَسُّهُ من لغوب.

ومع ذلك نراه طويلَ الأناة يمدُّ الحادّين له من عطائه، ويُمهلُ الجاحدين لإنعامه، ويملي للكافرين بآياته.

وها هي البشريّة، بل حتى من سبقها من الخلائق منذ صدر التاريخ وما قبله ترتكب أفظع الجرائم وأبشع الجرائر، تَنتَهكُ بذلك حرماتِ الله، وتتمرد على أوامره ونواهيه، آمنةً من تعجيل العذاب وحلول النقمة.

وإذا كان لا بُدَّ لنا -في تقديم المعطيات اللازمة- من بدايةٍ، فلنبدأ من قضية التَّمرُّد الإبليسيّ على الأمرِ الإلهيّ بالسجود لآدم (عليه السلام).

{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[34].

إباءٌ واستكبارٌ وكفرٌ يواجِهُ به إبليسُ ربَّه دون خشيةٍ أو حياء، وبدلاً من نزول العذاب عليه بمجرّد عصيانه، نرى بأنَّ اللهَ علامَ الغيوب يعطيه الفرصةَ للتراجع عن تَمَرّده حيث: **{قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ..}**، وهنا يتمادى العبد الآبق في عصيانه مُفلسِفًا تمرّده، طاعنًا في حكمة الأمر الإلهي: **{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}**[35].

فيكتفي الله بإجراءٍ أوّليٍّ، ويعطيه فرصةً أخرى: **{قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ}**[36].

وبدلاً من أن يؤوبَ إبليسُ إلى رشده، ويضرع إلى البَرِّ التوّاب بالصفح عنه، نراه يستغلُّ الموقفَ بكلّ وقاحة، ليستمدَّ من الله المزيدَ من الفرصة لأمرٍ ما، وكأنّه يطلبُ جائزةً على إنجازه: **{قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**([41]).

ويستجيبُ اللهُ نداءَ عبدِهِ المتمرّدِ دونَ أدنى منع: **{ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ}**([42]).

وتبلغ الوقاحة أوجها، نداءٌ من الفاسق عن أمر ربه يجلجل في الملكوت، ليعلن عن انطلاق مشروعٍ مواجِهٍ لمشروع الله، إنّه مشروع الغواية الذي يصرحُ صاحبُهُ بأنّه أراد منه مُضادّة مشروع الخلافة الإلهية.

لقد استرفد مدد الله ليشكّل نواة جبهة، تبقى في مواجهة مؤسسة الهداية على طول الخط، وتعمل على إجهاض إنجازاتها: **{ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}**[37].

ولم يصبَّ مالكُ الملكِ سوطَ عذابه عاجلاً عليه، بل ترك له مُتسعًا ينطلقُ من خلاله في تجربته، ولم يضنَّ عليه بتحذيره من عاقبة أمره، ومآل مشروعه: **{قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}**[38].

لقد أجّلَ له العذابَ، حيثُ أمهله إلى مقدمة يوم الحساب، وترك له حلبة الدهور مفتوحة إلى ما بعد الظهور السابق ليوم النشور.

ولم يختص هذا التدبير الربّانيُّ تجاهَ حالة التمرد هذه بإبليس، بل كان سُنَّةً إلهية عامّة تجاه أتباع مؤسسة الغواية أجمعين.

فالأصل الأوليُّ في هذه السُّنَّة هو: كونُ دار الدُّنيا دارَ ابتلاء واختبار، وليست ساحة حساب وعقاب وانتقام، مما يفرض إتاحة السُّبل المطلوبة للعاملين على اختلاف اتجاهاتهم وهويّاتهم، [فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب وإنَّ غدًا حسابٌ ولا عمل](45).

{..لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}[39].

نعم قد تقتضي الحكمة الإلهية في نهاية المطاف إنزالَ العذاب على الأمم، لكنَّ السياسة العامّة التي قدّرها ربُّ العزةِ والجلالِ في دار الدنيا تتَّسمُ باستراتيجيّة الإمداد والإمهال، لكلٍّ من الفريقين بما يتناسب وتطلعاته وأهدافه: **{مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}**[40].

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ}[41].

ولم تقتصر هذه السياسة الإلهيّة على زمن دون زمن، فالأمّة المعاصرة لعهد التنزيل مخاطبون بقوله تعالى: **{كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآَخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}**[42].

وإن ثقل على الرسول ما مُتّع به الجاحدون، خُفّفَ عنه بقوله عزَّ وعَلا:

{ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[43]، وقولِه جلَّ جلالُه: {فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا}[44].

وإذا ما ركن هؤلاء إلى إمهال الله فلا يأمنُنَّ مكره **{وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}**[45].

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[46].

هذا هو الأصل في تلك السياسة.

- ثم إنَّ إنزال العذاب في دار الدنيا لا يبتني على الاستعجال بتاتًا، حتى ولو كان بطلب من أنبياء الله، ولا يؤثِّرُ التأخير في جودة الاستجابة، بل قد تقتضي الجودةُ التأخيرَ، فهذا نبي الله وشيخ أنبيائه نوح على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام، لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى الله، فلا يزدادون إلا طُغيانًا، ومضى ثلاثةُ قرون من قومه، وكان الرجل منهم يأتي بابنه وهو صغير، فيقفه على رأس نوح صلوات الله عليه، فيقول: يا بُنيَّ إنْ بقيتَ بعدي فلا تُطيعَنَّ هذا المجنون، فلمّا عتوا وأبوا دعا ربّه: **{أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ}**[47]، فأوحى الله تعالى إليه: **{أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ}**[48]، وأمره بغرس النّوى، فمرَّ عليه قومُهُ، فجعلوا يضحكون ويسخرون، ويقولون: قد قعد غَرّاسًا، حتى إذا طال وصار طوالاً قطّعه ونَجَرَه، فقالوا: قد قعد نَجّارًا.

ثُمَّ ألّفَهُ فجعله سفينةً، فمرّوا عليه فجعلوا يضحكون ويسخرون ويقولون: قد قعد ملاّحًا في أرض فلاة، حتى فرغ منها وقد استغرق عملُ السفينة مائتي عام.

فما بين دعائه (عليه السلام) ونزول العذاب من أمد طويل لم يمنع الله أن يمتدح نفسه ويفخر بتلك الإجابة حتى قال تعالى: **{وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ}**[49].

- لقد قتل قابيلُ هابيل حسدًا وظلمًا وعدوانًا، أوّل دم يسفك على وجه البسيطة في أوّل مجتمع بشري. فعاش المجرم ما عاش آمنًا بعد أخيه وأبيه من النكال إلى أن انتقل إلى دار القرار.

وكم كابد النبيون والمرسلون والصدّيقون والصالحون وأتباعهم وأشياعهم من صنوف القتل والتعذيب والتشريد والتنكيل، وكم انتهكت حرمات الله فيهم وحُرّفت كتبُهُ وبُدّلت أحكامُه وهُدّمَت بيوته في الأمم الغابرة، ولم يكن حال هذه الأمة بأقل شناعة ممن سبقها؛ فقد شهدت كربلاء ذبح ريحانة رسوله وحبيب حبيبه ظامي الحشا مع أهل بيته وأصحابه، ولم يرحم فيهم الأطفال الصغار وكان للرضّع فطامٌ مبتَكَر، وسُيّرت حرائر النبوّة وعقائلُ الرّسالة سبايا من كوفان إلى جلق الشآم، يتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف.

ويوم الحرة استبيحت المدينة المنورة ثلاثة أيّام، واصطبغت بدماء شباب المهاجرين والأنصار، وافتضت الأبكار، واغتصبت المحصنات، وأقحمت الخيل مسجد النبي (صلى الله عليه وآله).

ويوم ابن الزبير رُوّع أهل البلد الحرام الآمن، ورميت الكعبة بالمنجنيق، وأحرقت أستارها، وقتل من قتل بجوارها.

ومُزّقَ المصحف الشريف بنبال المتسمي بإمرة المؤمنين الوليد بن اليزيد. وبنيت دار السلام بغداد بجسورها وقصورها على أجساد الذرية النبوية من أبناء علي وفاطمة (عليهم السلام) يسومهم الدوانيقي وخلائفه سوء العذاب.

وعاث القرامطة في الأرض فسادًا فأغاروا على وفد الحجيج وهم يطوفون بالبيت العتيق، وسرقوا الحجر الأسعد.

والمسلمون منذ قرون عرضة لقهر الصليبيين في انحطاط سافر، وقبلتهم الأولى منذ عقود يُدنّسها حفدةُ قتلة الأنبياء إخوةُ مسوخِ السَّبت يُقتّلون أبناءهم ويستحيون نساءهم.

هذا هو تاريخ البشرية لم يجد في طياته المؤمنون مُتَنَفّسًا إلا في فُسَحٍ تكاد لا تلحظ.

وبقيت الصولة للباطل وأهله وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، هذا ولم يزل الله ممهلاً لدول الضلال واعدًا أهل الحق بدولتهم في آخر الزمان مُصبّرًا إياهم بأن العاقبة لهم.

فهل يُعدُّ ذلك منه تعالى عجزًا أو قصورًا؟!

أم هل يصلح هذا مغمزًا في غيرته أو عظيم سلطانه وعزيز مِنْعَتِه؟!.

رحماك إلهي وغفرانك، ليس في حُكمك ظلمٌ ولا في نقمتك عجلة، إنّما يعجل من يخاف الفوت، وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، فقد تعاليت يا إلهي! عن ذلك علوًّا كبيرًا[50].

هذه سياسة الله مع أعدائه فهل لأوليائه أن يخالفوا سياسته؟! أو يضادّوا حكمه؟! أو يتنكّروا لحكمته؟! ما لهم ذلك وحاشا لهم أن يسبقوه قولاً أو يتنكّبوا عن سبيله عملاً: {بلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ}[51].

يوكّدون ميثاقَه، ويُحكمون عقدَ طاعتِه، وينصحون له في السرِّ والعلانية، ويدعون إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويبذلون أنفسهم في مرضاته، ويصبرون على ما أصابهم في حُبّه.

وعلى سياسته جرت سُنَّتُهُم حذو القُذّة بالقُذَّة، فهم خلفاؤه في أرضه وحججه على عباده، لقد ذابوا في الله فلم يروا لإنّيّاتهم كياناً يُلحَظ ولا لأشخاصهم وجوداً يُذكَر؛ لذا أبرموا معاقد عزمهم على امتثال أوامره، والمُضيّ في مسالك مَشيّته،لقد كانوا لسان إرادته، فما ونَوا وما وهنوا ولكن صمدوا وصبروا فليس في وصفهم بما اقتضاه صبرُهم مَعرّةٌ أو مَغمزٌ.

وإن حار في ما ورد من أحوالهم الجاهلون فلأنَّ سيرتهم تَجلُّ عن التشبه في أفعالها وردود أفعالها بأفعال الخطّائين من بني البشر المنطلقة من الأنانيات والعصبيات والجهالات.

وتلك السُّنّةُ سنعرض لها تفصيلاً في الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى؛ لتتجلى تلك الحقيقة الممتدة بامتداد التاريخ لكلّ ذي عينين، فيعلم أنَّ صبر علي (عليه السلام) يوم الدار لم يكن إلا حلقة في سلسلة مترابطة متجانسة متصلة بالله تعالى.

([24]) هو شيخ الإسلام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمويه الجويني الشافعي من محدثي خراسان.

قال الذهبي في ترجمة شيوخه بتذكرة الحفاظ ص1505 (وسمعت من الإمام المُحدّث الأوحد الأكمل فخر الإسلام صدر الدين إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجويني شيخ الصوفية قدم علينا طالب حديث، وروى لنا عن رجلين من أصحاب المؤيد الطوسي، وكان شديد الاعتناء بالرواية وتحصيل الاجزاء، حسن القراءة، مليح الشكل، مهيبًا ديّنًا صالحًا، وعلى يده أسلم غازان الملك، مات سنة اثنتين وعشرين وسبع مائة وله ثمان وسبعون سنة رحمه الله تعالى).

وقال الصفدي في الوافي بالوفيات ج6 ص92 في ترجمته: (صدر الدين أبو المجامع ابن الشيخ سعد الدين ابن المؤيد بن حمويه الجويني الصوفي ولد سنة بضع وأربعين وست مائة وتوفي رحمه الله سنة اثنتين وعشرين وسبع مائة، وسمع من ابن الموفق الأذكاني صاحب المؤيد الطوسي ومن جماعة بالشام والعراق والحجاز وعنيَ بهذا الشأن جدًّا وكتب وحصّل وكان مليح الشكل جيد القراءة دينًا وقورًا وعلى يديه أسلم قازان، وقدم الشام سنة خمس وتسعين ثم حج سنة إحدى وعشرين وسبع مائة ولقيه الشيخ صلاح الدين خليل ابن العلائي، وخرّج لنفسه سباعيات بإجازات وسمع مسلما من عثمان بن موفق سنة أربع وستين وسمع ببغداد من الشيخ عبد الصمد ومن ابن أبي الدنيا وابن الساغوجي وابن بلدجي ويوسف بن محمد بن سرور الوكيل، قال الشيخ شمس الدين: أنبأني الظهير ابن الكازروني قال: وفي سنة إحدى وسبعين اتصلت ابنة علاء الدين صاحب الديوان بالشيخ صدر الدين أبي المجامع إبراهيم ابن الجويني والصداق خمسة آلاف دينار ذهبًا أحمر وله إجازة من نجم الدين عبد الغفار صاحب الحاوي وله مجاميع وتواليف.

([26]) قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة ج10 ص222:.. كان النقيب أبو جعفر رحمه الله غزيرَ العلم، صحيحَ العقل، منصفًا في الجدال، غيرَ متعصب للمذهب، -وإن كان علويًّا- وكان يعترف بفضائل الصحابة، ويثني على الشيخين ويقول: إنّهما مهّدا دين الاسلام، وأرسيا قواعده..

وقال في ج12 ص90 من كتابه المذكور:..وقد ذكرت في هذا الفصل خلاصة ما حفظته عن النقيب أبى جعفر ولم يكن إمامي المذهب، ولا كان يبرأ من السلف ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة..

قال الذهبي في تاريخ الإسلام ج44 ص177: (يحيى ابن الشريف النقيب أبي طالب محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي بن أبي زيد، السيد النقيب أبو جعفر العلوي، الحسني، البصري، الشاعر. سمع من أبيه وحدّث، وعاش بضعًا وستين سنة، وكان ذا معرفةٍ بالنسب، والأدب، وأيام العرب، وله شعر رائق، توفي في رمضان، روى شعرًا.

وقال ابن كثير في البداية النهاية ج13 ص89 عنه: الشريف أبو جعفر يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي العلوي الحسيني، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه، كان شيخًا أديبًا فاضلاً عالمًا بفنون كثيرة لا سيما علم الأنساب وأيام العرب وأشعارها، يحفظ كثيرًا منها، وكان من جلساء الخليفة الناصر.

([30]) هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي الإسماعيلي، قاضي قضاة الدولة الفاطمية بمصر، وكبير أعلام الإسماعيلية، مُشيّدُ دعائم العلم والمعرفة فيها، وما زالت آثاره تعتبر أهمَّ مصادر المذهب الإسماعيلي التي عليها المعوّل عندهم إلى يوم الناس هذا. اتفقت المصادر على وافر علمه وسعة اطّلاعه وطول باعه في البحث والتحقيق والنقض والإبرام. حاجج القوم بساطع برهانه، وقوة استدلاله، فأوترهم وأوغر صدورهم، فلم يمتلكوا أمامه إلا أن يمطروه بوابل الشتائم والتهم، ولم يسعهم مع ذلك إلا الإقرار بعظمته وجلالة قدره.

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ج16 ص151: [النُّعمان العلّامة المارق، قاضي الدولة العبيدية، أبو حنيفة، النعمان بن محمد بن منصور المغربي. كان مالكيًا، فارتدَّ إلى مذهب الباطنية، وصَنَّف له أُسّ الدعوة، ونَبَذَ الدّينَ وراء ظهره، وألّف في المناقب والمثالب، وردَّ على أئمة الدين، وانسلخ من الإسلام، فسحقًا له وبُعدا. ونافق الدولةَ لا بل وافقهم، وكان مُلازمًا للمُعزّ أبي تميم منشئ القاهرة، وله يد طولى في فنون العلوم والفقه والاختلاف، ونَفَسٌ طويلٌ في البحث، فكان علمه وبالاً عليه. وصنَّفَ في الردّ على أبي حنيفة في الفقه، وعلى مالك، والشافعي، وانتصر لفقه أهل البيت، وله كتاب في اختلاف العلماء، وكتبه كبار مُطوَّلة. وكان وافر الحشمة، وعظيم الحرمة، في أولاده قضاة وكبراء. وانتقل إلى غير رضوان الله، بالقاهرة في رجب سنة ثلاث وستين وثلاث مئة].

أقول: لن أعلق على شيء مما ذكره إمام النُّقاد والحُفّاظ عند أهل السنة شمس الدين الذهبي وإنما ألفت نظر المنصفين إلى إقراره بأنَّ فقه أهل البيت مقابل مغاير لمذاهب العامة، وكذلك إشعاره بكون الانتصار لفقههم من جملة المثالب التي تؤخذ على الرجل.

الهوامش

1 البقرة: الآية 11.

2 الشعراء: الآية 224-225.

3 الإبلاس: الحزن والانكسار راجع كتاب الصحاح للجوهري ج3 ص909 (التحرير).

4 النور: الاية 55.

5 الروم: الآية 60.

6 الأنعام: الآية 153.

7 السقيفة وفدك للجوهري ص75، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي ج6 ص51 وج20 ص24، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ج30 ص420، ميزان الاعتدال للذهبي ج3 ص109، لسان الميزان لابن حجر العسقلاني ج4 ص189، تاريخ الطبري ج2 619.

8 الأرجوزة المختارة ص89 وهي منظومة عقائدية (ط سنة 1970 معهد الدراسات الإسلامية، جامعة مجيل، مونتريال - كندا).

9 أنساب الأشراف ج1 ص586.

10 المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ج8 ص572.

11 الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج1 ص19، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني، ط مؤسسة الحلبي وشركاه.

12 المذكر والتذكير والذكر ص91 تحقيق خالد بن قاسم الردادي ط سنة 1413 دار المنار - الرياض.

13 تاريخ الطبري ج2 ص443.

14 السقيفة وفدك ص52 شركة الكتبي ـ بيروت ـ ط الثانية سنة 1413هـ.

15 العقد الفريد ج4 ص259، وتاريخ أبي الفداء ج1 ص56 و164، وراجع كتاب روضة المناظر لابن شحنة (ت 882) المطبوع بهامش الكامل في التاريخ.

16 الجامع الصغير للسيوطي ج2 ص605، الكامل للحافظ عبد الله بن عدي الجرجاني ج6 ص323، شرح السير الكبير للسرخسي ج1 ص20، كنز العمال للمتقي الهندي ج16 ص15، الكافي للكليني ج2 ص368، ثواب الأعمال للشيخ الصدوق ص256.

17 راجع على سبيل المثال: المحلى لابن حزم الأندلسي ج11 ص302، تفسير ابن كثير ج2 ص53، الدر المنثور للسيوطي، فتح القدير للشوكاني ج2 ص35، المبسوط للشيخ الطوسي ج8 ص47، السرائر لابن إدريس الحلي ج3 ص505، الجامع للشرايع لابن سعيد الحلي ص241، الروضة البهية للشهيد الثاني ج9 ص290.

18 الأعراف: الآية 14.

19 الأعراف: الآية 15.

20 تلخيص الشافي ج3 ص156.

21 تقريب المعارف للحلبي ص252 وبحار الأنوار ج30 ص388.

22 من خطبة لأمير المؤمنين (عليه السلام) رواها ثقة الإسلام الكليني في الكافي الشريف ج8 ص58.

23 الوافي بالوفيات للصفدي ج6 ص15، الملل والنحل لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني الشافعي ج1 ص57.

24 فرائد السمطين: ج2 ص34 و35 وقد ورد في الأمالي للشيخ الصدوق ص99-101 وإثبات الهداة لشيخنا الجد الحر العاملي: ج1 ص280 و281، وإرشاد القلوب للديلمي: ص295، وبحار الأنوار للعلامة المجلسي: ج28 ص37 و39، وج43 ص172 و173، والعوالم للشيخ عبد الله البحراني: ج11 ص391 و392، وفي هامشه عن غاية المرام ص48 وعن: المحتضر ص109، وراجع: جلاء العيون للمجلسي: ج1 ص186 و188 وبشارة المصطفى ص197/200 والفضائل لابن شاذان: ص8 و11، تحقيق المحدث الأرموي.

25 شرح نهج البلاغة ج14 ص193.

26 الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، أبو الحسين الإمام اليمني، الزيدي. ولد بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين. من مؤلفاته: الاحكام والمنتخب والفنون والتوحيد والمسائل والقياس. أولاده: محمد المرتضى وأحمد الناصر وفاطمة وزينب والحسن. ظهر باليمن سنة (280) وله خمس وثلاثون سنة بدعوة من أحد ملوكها، واستقر بصعدة. توفي سنة (298) ودفن جنب المسجد الجامع بصعدة، وقبره مزار مشهور.

27 تثبيت الإمامة ص16.

28 دلائل الإمامة: ص45. وراجع البحار ج43 ص170، وعوالم العلوم ج11 ص411 و504.

29 أمالي الصدوق ص118، بحار الأنوار ج28 ص51، وليراجع ج44 ص149، وإثبات الهداة ج1 ص281، وعوالم العلوم ج11 ص397، وجلاء العيون ج1 ص189، والمناقب لابن شهر آشوب: ج2 ص209، انتشارات علامة - قم.

30 كامل الزيارات: ص232-335، والبحار ج28 ص62-64، وراجع ج53 ص23، وعوالم العلوم ج11 ص398.

31 كنز الفوائد ص63، الدر النظيم لابن حاتم الشامي العاملي ص458.

32 الإختصاص: ص343 و344، وكامل الزيارات: ص326 و327. والبحار: ج25، ص373.

33 المغني للقاضي عبد الجبار: ج20 ق1 ص335، والشافي للسيد المرتضى: ج4 ص110 و119، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج16 ص271.

34 البقرة: الآية 34.

35 الأعراف: الآية 12.

36 الأعراف: الآية 13.

37 الأعراف: الآية 16و17.

38 الأعراف: الآية 18.

39 الأنفال: الآية 42.

40 الإسراء: الآية 18-20.

41 النحل: الآية 61.

42 التوبة: الآية 69.

43 الحجر: الآية 3.

44 مريم: الآية 84.

45 آل عمران: الآية 178.

46 الأعراف: الآية 182.

47 القمر: من الآية 10.

48 المؤمنون: 27.

49 الصافات: الآية 75.

50 شذرة من الأدعية المأثورة عن أئمة أهل البيت (ع) التي وردت في المصادر المعتبرة منها: الصحيفة السجاديّة: دعاؤه مما يحذر ويخاف، من لا يحضره الفقية للشيخ الصدوق ج1 ص49، المقنعة للشيخ المفيد ص129، مصباح الزائر للشيخ الطوسي ص563.

51 الأنبياء: الآية 26 و27.

محورية الزهراء (ع)

الشيخ أحمد الدر

محوريَّةُ الزهراء (ع) في قانون السماء

الشيخ أحمد الدر

ثلَّةٌ قليلةٌ هم الذين اختارهم الله تعالى واصطفاهم على الخلق أجمعين، ليكونوا محورًا في دستوره السماوي، وقطبًا تدور عليه رحى المعارف والطاعات، والمصالح والغايات، فوهب لكلٍ صلاحيَّاتٍ واختصّه بقُدُراتٍ، بحسب رتبتِهِ التي رتَّبه الله فيها.

ومعرفة محوريَّة هؤلاء، ثم ترتيبهم بحسب مراتبهم الواقعية، لا سبيل إليها إلا عن طريق لسان الوحي، سواءٌ أكان نصًّا قرآنيًا أم حديثًا معصوميًا، لأنَّ المقامات الجعلية تابعةٌ لجاعلها، وحيث إنَّ الجاعل هو الله تعالى، فهو -ومن ينطق عنه- المرجعُ في هذا الباب.

ولو تتبَّعنا النُّصوص القرآنية والروائية، بُغية التعرُّف على الذين اختارهم الله تعالى ليكونوا أدلاَّء عليه، ووجوهًا يُتوجَّه بها إليه، فسنجدُ أن المتربِّع على قمَّة ذلك العالم هو النبي المصطفى (صلى الله عليه وآله)، وعلى ذلك إجماع عقلاء المسلمين[1] على اختلافِ مذاهبهم وتباينِ اعتقاداتهم.

ثم يتلوه في الرتبة من نصَّ القرآن على كونه نفس رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ووليّ الذين آمنوا، والمطاع بعد طاعة الله بطاعة رسوله (صلى الله عليه وآله)؛ الذي زيَّنته يد السماء بأبهى حُلَل المجد والثناء، وتوَّجته بتاج الخلافة الإلهية فكان خاتم الأوصياء، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

ويتلوه في الرتبة والمحورية الحوراء الأنسيّة، التي سادت نساء العالمين، بل كلَّ العالمين بعد أبيها وبعلها صلوات الله عليهم أجمعين، فاحتارت الألباب في فهم معناها، وانقطعت الأسباب دون علاها، وخرَّ العقلُ معترفًا بقصور إدراكه عندما تلا لسان الوحي: [إن الله يرضى لرضاها][2].

وفيه قلتُ:

قِيلَ امْدَحِ الزَّهرَاءَ قُلتُ: كَفَاهَا	فَضْلاً بِأنَّ رِضى الإلهِ رِضَاها
قِدِّيسةٌ قدْ حَارَ في أوصَافِها	أهلُ العَوالِمِ أرضِها وسَماها
سَجَدَ الزَّمانُ عَلى تُرابِ نِعالِها	لِينَالَ فخرَ تَعَفُّرٍ بِثراهَا
هيَ سِرُّ سِرِّ النُّورِ نُورِ محمَّدٍ	هيَ غيبُ علِمِ الغَيبِ دَعْ معناهَا
فُطِمَ الخلائِقُ عَنْ تلمُّسِ ذاتِها	ولِذا الإلهُ بِفاطِمٍ سمَّاها[3]

وهنا نلوي العنان ونحط الرحال، لكون الغاية من هذا البحث هي محورية الزهراء (عليها السلام) في قانون السماء.

اهتمام السماء بالزهراء (عليها السلام)

أولت العنايةُ الإلهية اهتمامًا بالغًا -لا أقول قلَّ نظيره بل انقطع نظيره- بتكوين الزهراء (عليها السلام) ونشأتها ورعايتها منذ الولادة إلى الشهادة بل إلى ما بعد الشهادة.

ولا مجال الآن لرسم المخطط الكامل لتلك العناية بتفاصيله بل ولا على نحو الإجمال، ولكن نكتفي بذكر نماذج يثبت بها العنوان، وتبرِّد غلَّة الظمآن.

عالم الأنوار: أولُّ وجودٍ لسيدة النساء (عليها السلام) كان عالم الأنوار، وبلغ من اهتمام السماء بها، ورعايتها لها، أن كان نورُها النورَ الثالث في أول عوالم الخلق، عالم الأنوار، مشتقًّا من نور محمَّد وعلي (صلى الله عليهما وآلهما)[4].

عالم الدنيا: خلافًا لكل القوانين السابقة على ولادتها، بل والتالية لها، تمّت عمليَّةُ نقلِ نطفتها الطاهرة!!

فبدل أن تتنقل في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة إلى أبيها رسول الله (صلى الله عليه وآله)، تدخَّلت العناية الإلهية، فقنَّنت قانونًا لا ينطبق على أحدٍ غيرها من النِّساء، ميَّزها عن كل أنثى بلا استثناء، إذ كان انتقالُ نطفتها من الملكوت الأعلى إلى صلب من دنى فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، حالُها نظيرُ حالِ بقيَّة المعصومين الأربعةَ عشر، ولذلك سُمِّيَت بالحوراء الإنسيَّة.

فلقد كثرت الروايات عن النبي وآله (صلى الله عليه وآله) في حديثه عن رحلة معراجه أنه أكل ثمرةً مخصوصةً من ثِمارِ الجنة، فتحوّلت نطفةً في صلبه، وكانت فاطمة (عليها السلام)[5].

زواجها: في عقدِ قرانها كان لله تعالى شأنٌ لم يُعرف قبلها ولا بعدها لأحد أبدًا، إذ تولَّى الله تعالى تزويجها لأمير المؤمنين عليٍّ (عليهما السلام) في الجنة، بحضور سكّان ملكوته، ثم أمر نبيَّه محمَّدًا (صلى الله عليه وآله) أنْ يُجريَ العقد على الأرض، فكان زواجًا لم يُسبق ولم يُلحق، وفي طيّاته انطوت أسرار تحار بها الأفهام والأفكار.

وفي ذلك قلتُ مخاطبًا أميرَ المؤمنين (عليه السلام):

وَيَا كُفْأَ البَتُولِ وَذَاكَ شَأنٌ سَيحْسِبُ جَاهِلٌ أنِّي مُغَالٍ	لِغيرِكُما مَحَالٌ أن يُوفَّى إذا أبدَيتُهُ فَالكَفُّ أكْفَى[6]

الذريَّة: هنا يُعذرُ إنْ لَكِنَ اللسان، وقصُر البيان، ولا يسعني سوى القولُ أنها (عليها السلام) أنجبت خيرَ من خلقَ الله تعالى، وصفوةَ من أوجد، لولا جدُّهم وأبوهم وأمُّهم، أحدَ عشرَ إمامًا، بهم عُرف الله، وعليهم دارت رحى رضاه، وإليهم يتوجُه من ابتغى لقاه، وعنهم يصدر هديُهُ وهُداه، صلوات الله عليهم أجمعين.

المهمة الأخيرة: ما كانت العناية الإلهية -التي رافقت سيِّدة النساء (عليها السلام) في كل أدوار وجودها- لتتخلى عنها في الفصل الأخير من قصة حياتها، بل أولَتها أعلى مستويات الرعاية والعناية، فكانت مهمَّتها الأخيرة تقديم كلِّ كيانها قربانًا لله، لتمضي شهيدةَ الوفاء لخط النبوة، والفداء لنهج الإمامة، فأسدت للدين والمتديِّنين خدمةً لا يُقدِّرُ ثمنَها إلا الذي لا إله إلا هو سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قلتُ:

لا تعجبنْ لعظيمِ ما خُصَّت به	أمُّ الخلودِ من المقام الأمجدِ
جُلْ في رياضِ التضحياتِ لكي ترى	أنَّ الذي ضحَّت به لم يُعهدِ
ضحَّتْ بكلِّ وجودِها لإلهها	بجَنانها بالقولِ حتَّى باليَدِ
أتظُنُّها مذ طالبت بحقوقِها	طَمِعت بمالٍ؟! ذلكَ الظنُّ الردي
ما طالبت إلا لتثبتَ واقعًا	أنَّ الذي غصبَ الخلافةَ معتدي
ويُقالُ كسرُ الضِّلعِ أمرٌ عابرٌ	حدَثٌ مضى! كلا وربِّ المسجدِ
سأقولُ قولاً لا يروقُ لناصبٍ	الدِّينُ لولا ضلعُها لم يصمُدِ[7]

إلى غير ذلك من العنايات الإلهية الخاصَّة بها، والتي تضيق القراطيس بتسطير إجمالها فضلاً عن تفصيلها.

المحورية الفاطمية

إطلالة سريعة على التراث المقدس من القرآن والعترة تكفي لزرع اليقين في القلوب السليمة بأن الزهراء (عليها السلام) كانت محورًا ربَّانيًا في أكثر من بُعد من أبعاد حياتها، بل في كلِّ أبعاد حياتها.

وها نحن نشير إشارات سريعة لجملة من هذه الأبعاد المحورية، بحسب ما يقتضيه المقام من الإيجاز والاختصار.

الأول: المحورية في رضا الله تعالى وغضبه، فلقد اتفق المسلمون جميعًا، على رواية الحديث الصحيح عند الكلّ، وهو قول النبي (صلى الله عليه وآله): [إنَّ الربَّ يغضبُ لغضب فاطمة ويرضى لرضاها][8].

الثاني: المحورية في قيام القرون الأولى، وقد أشار إلى هذا البعد بل نصَّ عليه قول الصادق (عليه السلام): [...وعلى معرفتها دارت القرون الأولى][9].

وإليه أشرتُ بقولي:

شدَّ العلى نحو المدينة ركبَهُ	وسرى حثيثًا نحو منزل أحمدِ
أوليسَ (لولاها لما خُلِقَ الورى)	شأنٌ لها يرضاه كلُّ موَحِّدِ
لا غرو إن (دارت على عرفانها	أولى القرونِ) ففيه كل المقصدِ
من يعرِفِ الزهراءَ يعرفْ ربَّهُ	قلها ولا تعبأ بعذلِ الملحِدِ[10]

الثالث: المحورية في كون إيذائها مستوجبًا للعنة الإلهية في الدنيا والآخرة، فلقد تسالمت كلمات علماء المسلمين، وفقًا للروايات الكثيرة الصحيحة، على أن من آذى فاطمة (عليها السلام) فقد آذى رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ومن آذى رسول الله (صلى الله عليه وآله) فقد آذى الله تعالى، ولقد قال الله في محكم كتابه: {إن الذين يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَهُ لَعَنَهُم اللهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذابًا مُهينًا}[11].

وفي هذا المعنى أقول:

يا لائمَ الشِّيعيِّ في لَعنِ الأُلى	قد جرَّعوا الزَّهراءَ كأسَ أسَاها
أتقُولُ بالتَّحريفِ في القُرآنِ أَمْ	لا تفقَهُ الآياتِ مَا معناهَا؟!
أوَمَا قرأتَ بِسورةِ الأحزابِ أنَّ	اللهَ يلعَنُ مَنْ يُؤاذِي طَهَ؟!
أوَلَمْ يَرِدْ بصحاحِكُم قَولُ النَّبيِّ	لِفاطِمٍ يؤذيهِ مَنْ آذاهَا
مَنْ يُغضِبِ الزَّهراءَ يُغضِبْ أحمَدًا	الكُلُّ حتَّى النَّاصبيُّ رَوَاها
مَا بالُكُم؟ هلْ دِينُكُم قَولٌ بِلا	عَمَلٍ؟ ألا تخشَوْنَ يَومَ جَزَاها[12]

الرابع: محوريتها في كونها هي والأربعة من أهل الكساء العلةَ الغائيَّة من خلق الخلائق أجمعين، وعلى ذلك الروايات القطعية الصدور، ويكفي شاهدًا في المقام حكمُ صدوق الطائفة (رحمه الله) في كتاب الإعتقادات بوجوب الاعتقاد بأنَّه: [لولاهم لما خلق الله السماء والأرض، ولا الجنّة ولا النار، ولا آدم ولا حواء، ولا الملائكة ولا شيئًا مما خلق، صلوات الله عليهم أجمعين][13].

دفعُ توهُّم

توهَّمَ بعضهم أو حاول إيهام الآخرين بأنَّ حديث الكساء غير معتبر، رفضًا منه لمضمونه الذي لا يتناسب مع خلفيَّاته التقصيرية في درك مقامات أولياء الله تعالى.

وقد انقسمت هذه الشرذمة إلى طائفتين، طائفة أنكرت متن الحديث متذرِّعةً بضعف السند، وأسخفُ هؤلاء من نسب الضعف إلى السَّند بناءًا على عدم ذكر السَّند في مفاتيح الجنان!! كاشفًا بذلك عن سذاجة فهمه وخبث سريرته، فمتى كان عدم ذكرِ السند كاشفًا عن عدم وجوده؟! خصوصًا وأنَّ الكتاب لعالمٍ معاصرٍ، جمع كتابه ليكون منهاجًا للمؤمنين في الأعمال العبادية التي يتقرب بها إلى الله تعالى، مما يقتضي حذف الأسانيد كما لا يخفى.

وطائفة صرَّحت بأن مضمون الحديث لا يتوافق مع اعتقاداتها فكشفت عن مكنون أفكارها، لتعيدَ للذاكرة أخبار أقوامٍ مردوا على الشقاق.

ولسنا في صدد توسيع البحث حول هذه المسألة، ولكن نشير سريعًا إلى سرابيَّة هذه الدعاوي ووهنها.

الطائفة الأولى:

فالكلام فيها يقع في جهتين (تارة من حيث اتصال السند وصحته، وأخرى من حيث القطع بصدوره):

الجهة الأولى: أن حديث الكساء مروي بسند صحيح متصل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري، ذكره المحدِّث الثقة الشيخ عبد الله البحراني رضوان الله عليه في حاشية كتابه عوالم العلوم ج2 ص930، وسلسلة السند مشايخ أجلاَّء، ومحدِّثون فقهاء، فليراجع كلامه.

الجهة الثانية: إنَّ عدَّ الاعتقاد بمضمون حديث الكساء من اعتقادات الإمامية، بل وجوب الاعتقاد بذلك كما نصَّ عليه الشيخ الصدوق رضوان الله عليه، يكشف كشفًا يقينيًّا عن صدوره عن لسان الوحي، كما لا يخفى على أهل الفهم والمعرفة.

فمن يتكلف -بعد ذلك- البحث عن سند هذا المضمون محاولاً التشكيك في صدوره إنَّما ينادي بمناهضته لخطِّ آل محمَّدٍ صلوات الله عليهم، ومخالفته لاعتقادات الإمامية أعلى الله كلمتهم.

الطائفة الثانية:

وأما المنكرون لمعنى الحديث، الطاعنون في مضمونه، بغض النظر عن سنده، مدَّعين أنَّ الاعتقاد بعليَّةِ أهل الكساء الغائية لوجود المخلوقات ضربٌ من الغلو!!

فإمَّا أن يلتزموا بالسفسطة والتحكُّم، لأنَّه لا شبهة لدى أي عاقلٍ أن خلق الخلق كان لغاية ومصلحة، وأنَّ هذه الغاية والمصلحة لا تعود على الله تعالى لكونه الغنيّ المطلق، فأي محذورٍ لديهم أن تكون الغايةُ هي المخلوق الأكمل والتجلي الأتمّ الذي تدور عليه رحى الكمال والجمال؟!

وإمَّا أن يعلنوا للملأ عن خفايا نفوسهم وخبايا صدورهم من حسدٍ للناس الذين شرَّف الله تعالى بهم جميع مخلوقاته، {أَمْ يَحْسِدون النَّاسَ عَلَى ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ}[14].

ومن كان حاله كحال هؤلاء، يلائمه قولي في قصيدة (آفة التَّجديد):

يا سيِّدي! أشكو إليْكَ زمانَنَا	أنتَ العليمُ بكلِّ أمرٍ جَارِ
زمنًا بِهِ المعروفُ أصبحَ منكرًا	واستُبدِلَ الأخيارُ بالأشرارِ
زمنًا بهِ التَّجديدُ أضحى سِلعةً	راجَتْ بسُوقِ تجارةِ الأفكارِ
أفٌّ لتجديدٍ رَضوْهُ فَلَم ينَلْ	غيرَ الذي قدْ صحَّ في الأخبَارِ
أعني مناقِبَ آلِ بيتِ محمَّدٍ	ومثالبَ الأوثانِ أهْلِ النَّار[15]

الخامس: محوريتها في مذهب أهل البيت عليها وعليهم السلام، وهو ما يحتاج لعقد بحث مستقلٍ لبيانه، وكشف الغطاء عن أسراره ومعانيه، علمًا بأنني لم أرَ فيما رأيت من تصانيف علمائنا مَن تعرَّض لهذا المقام من مقاماتها روحي فداها، ولعلَّه لوضوح معناه عندهم، غير أنَّنا اليوم في أمسِّ الحاجة للوقوف على حقيقة هذا المحور، والتدبُّر في عظمته، وجلالة دلالاته.

وهذا ما أتركه لبحث مستقلٍّ، لكي يعطى الموضوع حقَّه، ونكتفي بهذا المقدار، ونترك الغوص في بحور المعاني واستخراج أسرارها لأهلها، ويعجبني أن يكون مسك الختام روضةٌ من رباعيات المديح لهذه السيدة العظيمة صلوات الله عليها، مُقرًّا بأنَّ المدحَ ممدوحٌ بمدحهم!!

حِرْتُ بِمَعْنَاكِ

لَمَّا رأتْ حُبَّ البتولِ شِعاري	فاحَتْ بِمِسكِ عبيرِها أشعاري

* * *

هيَ فاطِمٌ وَصِفاتُها تأبى العِدادْ عِرْفانُها مِنْ دونِهِ خَرْطُ القتادْ	العقلُ طافَ بِها وَبِالإقْرارِ عادْ هي سِرُّ نورٍ لُفَّ بالأسرارِ

* * *

يا بنتَ طه حِرْتُ في معناكِ أنا لا أُبالي ما اسمُ مَنْ آذاكِ	وَعَلِمتُ أنَّ العقلَ دونَ عُلاكِ لَكِنْ عليهِ لعنَةُ القهَّارِ

* * *

قلبي لِمَنْ والاكِ كانَ مُوَالِيَا سَيَظَلُّ في مَرِّ الزَّمانِ ندائِيَا	وَلِمَنْ جَفَاكِ مَدَى الدُّهورِ مُجَافِيا كُسِرتْ أضالِعُ بَضْعةِ المُختارِ

* * *

يَكْفيكِ فَخْرًا مُشرِقًا يَكْفيكِ سُمِّيتِ تَشريفًا بِأُمِّ أبيكِ	اللهُ يَرضى كُلَّ ما يُرضيكِ صلَّتْ عليكِ ملائِكُ الأسحارِ

* * *

طوبى لعبدٍ نال صكَّ رضاها كالطَّير تلتقطُ الذي والاها	سيرى بيوم الحشرِ فضلَ عُلاها وتسيرُ يتبعُها لنعم الدّارِ

* * *

يا من أتى عن حبِّها ينهاني سأراكَ في يومِ الجزا وتراني	حبُّ البتولِ غدًا صراطُ أمانِ من في الجنان؟ ومن وَقودُ النَّارِ[16]

الهوامش

1 فبالرغم من كونِ أفضليَّته (ص) على جميع الخلق أمرًا ضروريًّا من ضروريّات الدين، نجدُ أن بعض المسلمين قد أنكر هذه الأفضليَّة، مدّعيًا أنَّ الملائكة أفضل منه (ص) -راجع تفسير الرازي ج2 ص216-، وقد وفَّى علماؤنا البحث حقَّه في ردِّ هذه الدعوى وغيرها، أمثال الشريف المرتضى في شافيه وشيخ الطائفة في تلخيصه وغيرهما رضوان الله عليهم أجمعين. وآخر نسبَ إلى النبيِّ (ص) أنه قال: (ولا أقول إنّ أحدًا أفضل من يونس بن متى) المسمى: صحيح البخاري ج4 ص 133، وفيه أيضًا: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) ج5 ص185!! فاقرأ وتعجَّب!! وانظر إلى شرَّاحه كيف تخبَّطوا في محاولات تبرئته من هذه الكبوة المشينة.

2 أمالي الشيخ الصدوق ص467 ح622/1، الاعتقادات في دين الإمامية ص105، دلائل الامامة للطبري ص146 ح53/53، وغيرها من مصادر الخاصَّة. والمستدرك للحاكم النيسابوري ج3 ص154، منصِّصًا على صحته، وراجع غيره من مصادر العامة.

3 ديوان مرآة الشعور ص119 من قصيدة: قطب الوجود.

4 دلائل الامامة للطبري الشيعي ص448، ومقتضب الأثر لابن عياش ص6، وغيرهما.

5 علل الشرائع للشيخ الصدوق ج1 ص184، ومناقب الإمام أمير المؤمنين (ع) للكوفي ج2 ص206، وغيرها الكثير من مصادر الخاصة. والمستدرك للحاكم النيسابوري ج3 ص156، ومجمع الزوائد للهيثمي ج9 ص202، وغيرها من مصادر العامة.

6 ديوان مرآة الشعور ص71 من قصيدة: شممتُ هواك...

7 من قصيدة: أمّ العلى، نظمتُها ليلةَ ميلادها (ع) 20 جمادى الآخرة 1432 هجرية، بجوار سَمِيَّتها أختِ الرِّضا (ع).

8 مرَّ تخريجه.

9 الأمالي للشيخ الطوسي ص668 حديث1399/6.

10 من قصيدة: أمُّ العلى، نظمتُها بعد طباعة الدِّيوان.

11 الأحزاب 57.

12 ديوان مرآة الشُّعور ص122 من قصيدة: قطب الوجود.

13 الاعتقادات في دين الإمامية للشيخ الصدوق ص93.

14 النساء من الآية 54.

15 ديوان مرآة الشُّعور ص328.

16 ديوان مرآة الشُّعور ص124.

هل كانت ليلى أم علي الأكبر (ع) في كربلاء

الشيخ حسين عبد الله

هل كانت السيدة ليلى زوجة الحسين (ع) في كربلاء؟

الشيخ حسين عبد الله عبد الله

تمهيد

كثر الحديث في الآونة الأخيرة حول الكثير من وقائع نهضة كربلاء مع اشتهارها وتناقلها، فأنكر البعض الكثير منها، ووضعها في صف المجعولات التي لا أساس لها مع ما في ذلك من اتّهام للناقلين لتلك الأحداث بالاختلاق والوضع دون مراعاة لقواعد البحث العلمي في رفضه لها، وكان إنكاره ذلك مستندًا إلى عدم وجدان ما يشير إليها في كتب التاريخ حسب ما بحثه وحققه هو بنفسه..

ونلاحظ على هذه الدعوى عدة أمور:

أولاً: إن العبرة عند هؤلاء البعض هو ما قرأه بنفسه، مع أنه لا يمكن لأحد أن يدّعي الغوص في كتب التاريخ والاطلاع على كل مضامينها وإشاراتها، فكأن هذا البعض قد أسّس قاعدة تخالف بديهيات العقل مفادها أن عدم الوجدان "منه" يدل على عدم الوجود، مع أن العقل يحكم بأن عدم الوجدان منه أو من غيره لا يدل على عدم الوجود، إذ لعل من نقلها قد وجدها في كتاب لم يصل إلينا، أو وصل ولكن لم يقرأه ذلك المنكر، أو لم يلتفت إلى إشارة فيه تدل على ذلك، فلرُبّ باحث عن عين ماء في مكان ولا يجدها مع أنه يقطع بوجودها في ذلك المكان.

وثانيًا: إن الكثير من الكتب التاريخية قد ضاعت علينا كما حدث في مكتبة بغداد أو مكتبة بعلبك أو مكتبة بني عمار في طرابلس أو مكتبات العامليين التي نهبها الجزار وغير ذلك من مكتبات كانت تضم نفائس الكتب، والتي كانت تشتمل على الكثير من الأحداث التاريخية التي خفيت علينا حتى صرنا نعتمد في نقلها على الكتب التي نقلت عنها.

ثالثًا: إن كثرة وجودها وتناقلها في كتب المتأخرين والمقاتل قد يكون كاشفًا عن أخذها من مصادر تاريخية معتمدة خفيت علينا، فهي أقرب ما تكون إلى القضايا المقبولة (التي يُعتقد بها نتيجة لأخذها من الغير الموثوق بقوله، نتيجة لحسن الظن بهم من أفاضل السلف والعلماء حسب تصنيف علماء المنطق)، وعليه فعلى من ينكر حادثة تاريخية بضرس قاطع أن يكون لديه الدليل القاطع على إنكاره، ولا يكفي عدم اقتناعه ما لم يستند إلى الدليل النافي.

ومن جملة هذه الوقائع والأحداث التي كثر الحديث عنها، قضية حضور السيدة ليلى أمّ علي الأكبر (عليه السلام) في كربلاء، فقد شكك بعضهم في ذلك مدعيًا أنها توفيت قبل حادثة كربلاء، وبناء على هذه النتيجة طعن بكل من يذكر حضورها في كربلاء بأنه إنما يذكر ذلك من أجل إثارة العاطفة عند الناس وإدرار الدمعة على الحسين (عليه السلام) وعيالاته، لأنه يفتقد لعامل التأثير، والناس قد كُررت عليها مصيبة علي الأكبر ولم تعد تتأثر بها فيحتاج الأمر إلى شيء جديد.

وتنحل هذه الدعوى إلى ثلاث دعاوى، وهي:

الأولى: أن أمّ علي الأكبر لم تحضر كربلاء ولا يوجد مصدر تاريخي يذكر ذلك.

الثانية: أنها توفيت قبل واقعة كربلاء.

الثالثة: أن قضية حضورها اخترعت من أساسها من أجل إدرار الدمعة.

ونحن سنناقش الأمور الثلاثة من الثالث إلى الأول تباعًا.

أما الأمر الأول: دعوى أن قضية حضورها في كربلاء مخترعة:

فيرد عليه:

أولاً: إن واقعة كربلاء لم تؤثر في النفوس فقط لكونها حادثة مؤلمة ووقائعها محزنة، ويلاحظ ذلك من خلال عرض وقائع أخرى تاريخية مؤلمة فنراها لا تأخذ المأخذ الذي نراه لكربلاء.

فليست الفاجعة وحدها هي سبب الحزن والدمعة، ويلاحظ أيضًا هذا المعنى في حال لو مات عزيز وكان الألم عليه كبيرًا جدًا، فإنه يُذكر عامًا أو اثنين أو خمسة، ولكن لا يعود ذلك الألم كما كان بل يصغر ليخفّ تدريجيًا.

فالسرّ في كربلاء هو سرّ إلهي لأننا نبكي على كلمة [يا حسين] أو على حادثة ولادته (عليه السلام) كأننا نعيش الأحداث في حاضرنا، فالسرّ هو تلك الحرارة التي أودعت فيها [إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبدًا] [1] فهل نحتاج بعدها لاختراع ألم جديد مع هذه الحرارة؟!.

ثانيًا: نلاحظ أننا كلما كُررت علينا السيرة الحسينية وما جرى في كربلاء كان لها أثر مغاير في النفس عن باقي السنين، حتى أن الفرد منا يشعر وكأنه لم يسمع هذه السيرة من قبل ويزداد الألم ولا يقلّ حتى نحتاج إلى اختراعٍ لتأجيج العواطف.

ثالثًا: لو كانت هناك حاجة للاختراع لأن الناس قد كُرر عليها ذكر الواقعة وحفظتها ونتيجة لذلك لم تعد تتأثر بها، لاحتاج الأمر إلى اختراعات مرة بعد أخرى، لأن الاختراع الجديد سوف يفقد تأثيره العاطفي بمرور الزمان -حسب دعواه-.

رابعًا: هل خصوص مأساة علي الأكبر (عليه السلام) تحتاج إلى اختراع؟

نلاحظ أن في واقعة علي الأكبر (عليه السلام) الكثير من الأحداث والمواقف التي تملأ بطون كتب التاريخ، والتي يكفي تصويرها لتتأثر النفس أكثر من الكثير من الوقائع العاشورائية، نذكر بعض هذه الأحداث فقط لإلفات النظر:

1- موقف الاستئذان من أبيه الحسين (عليه السلام)، ونظر الحسين (عليه السلام) له نظرة آيسٍ منه وإرخائه عينيه وبكائه[2].

2- دعاء الحسين (عليه السلام) على عمر بن سعد [يا ابن سعد قطع الله رحمك كما قطعت رحمي][3].

3- لما برز علي الأكبر أرخى الحسين عينيه بالدموع وقال: [اللهم كن أنت الشهيد عليهم...]، فجعل يشدّ ويرجع ويقول: [يا أبه العطش]، فيقول له الحسين (عليه السلام): [اصبر حبيبي، فإنك لا تُمسي حتى يسقيك رسول الله بكأسه][4].

4- طلبه الماء من الحسين (عليه السلام)[5].

5- اعتوار الناس له وتقطيعه بأسيافهم، وطعن مرة بن منقذ العبدي له في ظهره[6]، وسلامه على الحسين (عليه السلام) بعد ذلك[7].

6- رميه بسهم أصاب حلقه فخرقه[8].

7- لما رأى الحسين (عليه السلام) ولده الشهيد قال: [يا ثمرة فؤاداه ويا قرة عيناه][9].

8- رميه بنفسه على ولده ووضع خده على خدّ ولده[10].

9- أخذ الحسين له وضمه إليه، وهو يقول: [يا أبه، هذا رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول لي: [عجل القدوم علينا]، ولم يزل كذلك على صدره حتى مات، فلما نظر إليه (عليه السلام) ميتًا قال: [ولدي علي على الدنيا بعدك العفا][11].

10- نداء الحسين (عليه السلام): [قتل الله قومًا قتلوك يا بني، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول]، ثم قال: [على الدنيا بعدك العفا][12].

11- ما ورد من أن الحسين (عليه السلام) وضع ولده في حجره، وجعل يمسح الدم عن ثناياه وجعل يلثمه ويقول: [يا ولدي أما أنت فقد استرحت من هم الدنيا وغمها...][13].

12- عندما جاء إليه صاح (عليه السلام) بأعلى صوته بعدما فرَّق القوم عنه فتصارخت النساء[14].

13-... وأهملت عيناه (أي الحسين عند مقتل ولده علي) (عليهما السلام) بالدموع وصرخن النساء، فسكتهن وقال لهن: [اسكتن فإن البكاء أمامكن][15].

14- خروج زينب (عليها السلام)، ورميها بجسدها على علي الأكبر، وإرجاع الحسين (عليه السلام) لها[16].

ونكتفي بهذا العدد المبارك لأنه عدد المعصومين الأربعة عشر (عليهم السلام).

إلى غيرها من المواقف التي يكفي تصويرها فقط وتقريب الحدث للأذهان بلغة قريبة من الناس ومألوفة لديهم.. فأين الحاجة والداعي للاختراع!!

الأمر الثاني: هل توفيت السيدة ليلى قبل واقعة كربلاء؟

أولاً: لم نعثر على نصٍّ تأريخي واحد -لا نحن ولا من أدعى- يشير إلى أنها توفيت قبل واقعة كربلاء.

وثانيًا: هناك نصّ تأريخي يثبت حياة السيدة ليلى بعد واقعة كربلاء، وهو في كامل الزيارات لابن قولويه المتوفى سنة 367هـ في باب نَوح الجن على الحسين (عليه السلام) (ص192) يقول: [حدثني حكيم بن داود عن سلمة قال: حدثني أيوب بن سليمان بن أيوب الفزاري عن علي بن الحزور، قال: سمعت ليلى وهي تقول: سمعت نوح الجن على الحسين بن علي (عليه السلام) وهي تقول:

يا عين جودي بالدموعِ فإنما	يبكي الحزينُ بحرقةٍ وتفجعِ
يا عين ألهاك الرقاد بطيبه	من ذكرِ آل محمد وتوجعِ
باتت ثلاثًا بالصعيد جسومهم	بين الوحوش وكلهم في مصرعِ

الأمر الثالث: هل حضرت السيدة ليلى كربلاء؟ وهل يوجد نص تأريخي في ذلك؟

أولاً: هناك نصوص عامّة تشير إلى أن الحسين (عليه السلام) عندما خرج من المدينة أو مكة أخرج معه جميع عيالاته وأطفاله ونسائه، ولم يترك في المدينة إلا فردًا أو فردين منهم، ولم يُذكر أنه ترك السيدة ليلى أُمّ علي الأكبر (عليه السلام) في مكة أو المدينة، والمفروض بعد القول بحياتها أنه لا داعي للتوقف في أنها خرجت معه أو لم تخرج.

ثانيًا: ما ورد في مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب المتوفى سنة 588هـ في معرض حديثه عن بروز علي الأكبر [فطعنه مرّة بن منقذ العبدي على ظهره غدرًا فضربوه بالسيوف فقال الحسين (عليه السلام): [على الدنيا بعدك العفا] وضمّه على صدره، وأتى به إلى باب الفسطاط، فصارت أمه شهربانويه ولهى تنظر إليه ولا تتكلم][17].

وقد توقف البعض عند هذا النص نظرًا إلى أنه يذكر أن اسم أمه هي "شهربانويه" وأن هذا هو اسم أم الإمام زين العابدين (عليه السلام). فذهب إلى أن الذي برز هو الإمام زين العابدين (عليه السلام) وجرح في المعركة وهذه المرأة هي أمه وليست ليلى.

ولنا عليه أمور:

أ- أن النص صريح في أن الخارج هو علي الأكبر، ويوافق المشهور من أن (الأكبر) لقب للمقتول في كربلاء، ولا نريد الخوض في تفاصيل اللقب هنا مراعاة للاختصار.

ب- أن مرّة بن منقذ هو الذي طعن عليًا المقتول بكربلاء والناس قد احتوشته بالسيوف.

ج- نداء الحسين (عليه السلام) [على الدنيا بعدك العفا] هو على ابنه علي المقتول يوم كربلاء.

د- وهو الأهم أنه من أعجب الأمور أن يقول القائل بموت السيدة ليلى قبل كربلاء، ويتمسك بحياة أم الإمام زين العابدين "شهربانويه" وحضورها في كربلاء، وذلك للنص على أن "شهربانويه" قد توفيت وهي نفساء بالإمام زين العابدين (عليه السلام)، أي قبل واقعة كربلاء بسنين، وقد ورد ذلك في كتاب عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (رحمه الله) المتوفى سنة 381هـ، قال: حدثنا الحاكم أبو علي الحسين بن أحمد البيهقي، قال حدثني محمد بن يحيى الصولي، قال حدثنا عون بن الكندي، قال حدثنا سهل بن القاسم التوشجاني، قال: قال لي الرضا(عليه السلام) بخراسان: أن بيننا وبينكم نسبًا. قلت: وما هو أيها الأمير؟ قال: إن عبد الله بن عامر بن كريز لما افتتح خراسان أصاب ابنتين ليزدجرد بن شهريار ملك الأعاجم فبعث بهما إلى عثمان بن عفان فوهب إحداهما للحسن والأخرى للحسين (عليهما السلام)، فماتتا عندهما نفساوين وكانت صاحبة الحسين (عليه السلام) نفست بعلي بن الحسين (عليهما السلام)، فكفل عليًا (عليه السلام) بعضُ أمهات ولد أبيه، فنشأ وهو لا يعرف أمًا غيرها، ثم علم أنها كانت مولاته فكان الناس إلخ...][18].

وهذا نص صريح في أنها توفيت قبل كربلاء، فلا داعي لحمل النص على أم الإمام زين العابدين (عليه السلام)، بل يتضح أنه يوجد سهو قلم أو اشتباه من الراوي في ذكر هذا الاسم.

ثالثًا: ما ذكره صاحب كتاب نور العين في مشهد الحسين (عليه السلام) للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني المتوفى سنة 418هـ في معرض ذكر علي الأكبر (عليه السلام) قال: [قال: -يعني الحسين (عليه السلام)- [يا بني يعزّ عليّ فراقك]، وحمله عند القتلى، وصارت أمه سهرانة ولهانة، وهي تنظر إليه وتبكي، وزينب (عليها السلام) تنادي:

[واحبيباه وابن أخاه]، ثم أخذهما الحسين (عليه السلام) وردهما إلى الخيمة][19].

وأعتقد أنه لا حاجة للتأمل فيه كثيرًا، بل هو نص تأريخي قديم موجود بين أيدينا، ولا أعتقد أنه لو نقله الناقل وتعرض إليه سوف يكون مخترعًا أو مؤلفًا لأمر غير موجود، ولا يكون ذلك من باب الافتراء والكذب.

ونؤكد ذلك بسؤال وُجّه إلى السيد الخوئي (قدس سره): هل يجوز للخطيب الحسيني أن ينقل القضايا التي لم يثبت وقوعها بعنوان أنها واقعة، كزواج القاسم بن الحسن عليه السلام من سكينة بنت الحسين عليهما السلام أم لا بد من التثبت في نقل ما أثبته العلماء وطرح ما طرحوه؟

فأجاب (قدس سره): لا يجوز النقل بعنوان الورود وأما بعنوان الحكاية عن كتاب أو شخص فلا بأس به[20].

وعلى ضوء ذلك النص التاريخي المتقدم يمكن التوفيق بين نصوص أخرى كانت محل تأمل عند الكثيرين في كيفية الجمع بينها، مثل ما ذكر في كتب عديدة، منها مقتل الخوارزمي والبحار: [قال حميد بن مسلم: فكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة، تنادي بالويل والثبور وتقول: [يا حبيباه يا ثمرة فؤاداه يا نور عيناه][21].

وما ذكر في كتاب منتخب الطريحي المتوفى قبل صاحب البحار: [قال من شهد الوقعة: كأني أنظر إلى امرأة خرجت من فسطاط الحسين وهي كالشمس الزاهرة تنادي: [واولداه واقرّة عيناه] فقلت: من هذه؟ قال: زينب بن علي][22].

مع ملاحظة أنه من القريب جدًا أن لا يكون المسؤول بأعرف من السائل، إذ من الذي كان يعرف السيدة زينب (عليها السلام) بشخصها قبل السبي حتى يُسأل فيجيب بأنها هي؟!، فاحتمال وقوع الخطأ في كون هذه المرأة هي السيدة زينب (عليها السلام) أو السيدة ليلى كبيرٌ جدًا.

ويوجد في النصين كلمات تحتاج إلى تأمل في نسبتها إلى مولاتنا زينب (عليها السلام) [واثمرة فؤاداه، واقرّة عيناه، واولداه، يا نور عيناه] فكيف يمكن الجمع بين هذين النصين وأشباههما وبين النص الآتي وأشباهه.

ما ورد في مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356هـ [قال حميد بن مسلم: وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة تنادي: [يا حبيباه يا ابن أخاه]، فسألت عنها فقالوا: هذه زينب بنت علي (عليهما السلام) ثم جاءت حتى انكبت عليه فجاءها الحسين فأخذها بيدها إلى الفسطاط، وأقبل إلى ابنه وأقبل فتيانه إليه، فقال: [احملوا أخاكم]، فحملوه من مصرعه ذلك، ثم جاء به حتى وضعه بين يدي فسطاطه][23].

فيمكن أن يقال في عملية الجمع بينهما أن التي خرجت ليست امرأة واحدة بل امرأتان إحداهما زينب (عليها السلام) والأخرى هي أمه، وكلٌّ منهما لها نداء خاص بها، وهذا يدل على وجودها في كربلاء. وأيضًا ما ورد في نصّ نور العين من كون الحسين (عليه السلام) ردّهما إلى الخيمة.

ويصلح هذا النص أيضًا ليكون ردًا على نسبة الافتراء التي ألصقها البعض بالخطباء الذين يقولون [بأن ليلى احتضنت ولدها في ساح الوغى]. حيث إن النص المتقدم دلّ على وجودها بمكان قريب من ساح الوغى وعند القتلى، فهل نحتاج بعد ذلك إلى نص يصرح بأنها رمت بنفسها عليه؟ (أم نكتفي بأنها نظرت إليه وعادت وكأن شيئًا لم يكن؟!!!)، وقد يجد الباحث في كتب التاريخ ما يدل عليه صريحًا.

ونلاحظ أيضًا أن النصوص هنا ذكرت بأن الحسين (عليه السلام) نقل ولده عليًا عند فسطاطه، ويمكن الإلفات إلى الكثير من الفوائد التي يمكن اكتسابها من هذه النصوص، منها: احتمال كون علي الأكبر نُقل أولاً عند القتلى، ثم نُقل ثانيًا إلى فسطاط الحسين (عليه السلام) لأجل أن تودعه أمه وزينب ونساء الحسين.

وهذا أيضًا ما يستفاد من نص نور العين مع ما ذكره ابن كثير في البداية والنهاية من أنه خرجت جارية تنادي يا أخياه ويا ابن أخاه، فإذا هي زينب، يقول: [فجاء الحسين ((عليه السلام)) فأخذ بيدها فأدخلها الفسطاط، وأمر به الحسين فحوِّل من هناك إلى بين يديه عند فسطاطه][24].

كلمة أخيرة: إن هذه المقالة إنما نتجت عن المطالعة التي تمّت لنزر يسير من الكتب المطبوعة التي بين أيدينا، ولو أردنا أن نستقصي جميع الكتب المطبوعة والمخطوطة التي تملأ المكتبات فلربما نكتشف الكثير؟؟!!

وبناءً على كل ما تقدّم يمكن القول بأنه يصح للخطيب الحسيني أن يعتمد على مثل هذه النصوص ولكن من دون الجزم بحصول هذا الأمر، بل هو مجرد ناقل، ولا يجوز لأحد أن يعترض عليه ويتهمه بالاختراع أو الوضع، وقد مرّ في طيات البحث جوابُ استفتاء للسيد الخوئي (قدس سره) صريحٌ في جواز ذلك.

الهوامش

1 مستدرك الوسائل، الميرزا النووي ج10 ص318 باب استحباب البكاء على الحسين (ع) ح13.

2 اللهوف في قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس ص67.

3 اللهوف في قتلى الطفوف ص67. وفي بحار الأنوار ج45 ص43.

4 مقاتل الطالبيين، أبو الفرج الأصفهاني (ت356هـ)، ص77

5 بحار الأنوار ج45 ص43.

6 راجع مقاتل الطالبيين ص76، وغيره.

7 مقاتل الطالبيين، الأصفهاني ص77، قال: (حتى رمي بسهم فوقع في حلقه وأقبل ينقلب في دمه ثم نادى: يا أبتاه عليك السلام هذا جدي.. الخ).

8 مقاتل الطالبيين ص77، وشرح الأخبار ج3 (ت363هـ) ج3 ص153.

9 موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص558 عن ناسخ التواريخ ج2 ص355.

10 اللهوف في قتلى الطفوف ص68.

11 شرح الأخبار للقاضي النعمان ج3 ص153.

12 مقاتل الطالبيين ص76.

13 موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع) ص558 عن البهبهاني عن أبي مخنف.

14 منتخب الطريحي ج2 ص 213.

15 ينابيع المودة ج3 ص78، ناسخ التواريخ ج2 ص355، ومنتخب الطريحي ج2 ص 213.

16 قال حميد بن مسلم: [وكأني أنظر إلى امرأة خرجت مسرعة كأنها الشمس الطالعة، تنادي: يا حبيباه، يا ابن أخاه، فسألت عنها فقالوا: هذه زينب بنت علي بن أبي طالب]. راجع: مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ص77، مثير الأحزان لابن نما الحلي ص 51، واللهوف في قتلى الطفوف لابن طاووس ص68.

17 مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب ج3 ص257.

18 عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (ره) ج1 ص136.

19 نور العين في مشهد الحسين (ع) لأبي إسحاق الإسفراييني ص44.

20 صراط النجاة، فتاوى السيد الخوئي والميرزا جواد التبريزي قدس سرهما، ج1 ص440 سؤال رقم 1211.

21 مقتل الحسين للخوارزمي ص35.

22 منتخب الطريحي ج2 ص213.

23 مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني ص77.

24 راجع البداية والنهاية لابن كثير ص201.

التربية بين الأسرة والمدرسة

الأستاذ حسن جابر

الأستاذ حسن جابر

توطئة

للتربية التي نخوض غمارَ سبقها، والولوج في مطاوي علومها، نرصفُ اللبنات الأولى، لميولٍ ومداركَ تحقق أغراضها وغاية وجودها.

ولأنه الإنسان سمة الوجود، وعلّة التشريع، وسبيل التقرّب إلى الله تعالى، الذي كان بعضَ إبداعه وخليفته لإعمار كونه.

ولأجل توطئةٍ مُثلى، على طريق ذات الشوكة، في تربةٍ مباركةٍ تُعِدُّ لمجتمعٍ طيب، يصقل المواهب الخيّرة، ليكون دافع الإنسان نحو إنسانيته، ليرقى متقدّمًا على ما عداه وسواه، وتلك كانت أهداف الرسالات وساحة عمل الأنبياء (عليهم السلام)، حيث أنتجت صفوة النُّخب في فجر انطلاقتها بقوةٍ واقتدار، وعزمٍ في الأداء لا يلين... وبذات القوة، ومن أجل تثبيت النهج التربوي الرسالي الهادف ولكل من نصّب نفسه إمامًا للناس يقتدون به ويقتفون أثره للنّهل من معين عطائه الزاكي بصبرٍ وأناة:

الله الله في تزكية النفس وتطهيرها من دنس الكِبَر والغرور والأحقاد.

الله الله في قلوبكم... عرش الله، ولْتبقَ معمورة بالعطف والحنان، وبالمشاعر الممتلئة حبًا لناشِئتنا، لتغدوَ على صورة المَثَلَ الذي أراده الله أن يُحتذى.

فبالتربية نبني ونقوّم.. ونعطي الحياة معناها الأسمى، بصورتها الأنقى، ونضع البذرة في أرضٍ خصبةٍ تؤتي أكلها بإذن ربها {... وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ}[1]، ولأجل هذا كان بحثنا التربوي -المتواضع هذا- المتمّم لبحثنا السابق الذي أوردناه في العدد السابع عشر لمجلتنا المباركة تحت عنوان (التربية بين التقليد والتجديد)، من أجل دراسةٍ موجزة عن المتغيرات التربوية، وكيفية محاكاتها للثقافة المجتمعيّة بأبعادها الثلاثة (العموميات - الخصوصيات - المتغيرات)، ثم لإفراد عناوين دور كلٍّ من الأسرة والمدرسة، والتناغم الآيل لتربية إيمانية قويمة، تكمل فيه المدرسة الدور، وتملأ فراغًا قد يطرأ، عبر معلّمٍ مختص يؤدي الرسالة، ويؤتمن على الأفراد، تمامًا كما فعل الأنبياء (عليهم السلام) والصالحون، في سبيل النهضة التربوية الرائدة لبناء الشخصيّة الملتزمة الواعية المؤمنة، كوافدة على المستقبل تحملُ مشعلَ الخلاص للأمة بقوة واقتدار.

1- التربية والتغيير

لعبت التربية -ولا زالت- دورًا رائدًا على مسرح المجتمعات البشرية، ولازمت المتغيرات التي طاولت النظام الاجتماعي برمّته.

وقد برزت بلحاظ تلك المتغيرات الثقافية التربوية كلاعبٍ رئيسٍ في إدراك الواقع والظروف المحيطة، ولتُحَدَّدَ على أثرها المواقف ولتصاغ صورة المجتمعات على ضوء نتائج الديناميكيا التربوية الجديدة لحراك مقصود.

وعلى عكس هذا فإن مبدأ الحشو وإكساب الخبرات، بعيدًا عن المطابقة الحيّة لواقع الحياة، قد جعلت همَّ المدارس في إنجاز المقررات والمناهج، وبالمقابل كان همُّ التلامذة التفوّق للحصول على النتائج الأفضل، والترفّع إلى مرحلة جديدة.

وتجدر الملاحظة هنا إلى أن معظم من تفوّق في ميدان الدراسة قد فشل في الميدان الاجتماعي في أول امتحان له، لغياب التربية الهادفة، الملازمة للتحصيل العلمي في سنيّ الدراسة.

فالمتعلم لم يَعُدْ تلك الوجهة الصالحة المقصودة في بني قومه، ولا ذاك المتكيّف بذوقه وعواطفه وسلوكه بحسب الواقعية المتوخّاة.

وأدهى من كل هذا ترى من يقود عملية التربية مسكونًا بآراء غربيّة، في المنهج والفكر والاقتصاد والفلسفة، ويعمل على بثّها بين ناشئتنا وأجيالنا من حيث يدري أو لا يدري، لإشاعة أفكار غربية هدّامة تنفذ إلى مجتمعاتنا تحت مسمّى العلم والنهضة لمحاربة التقوقع والتزمّت.

ومؤدّى ذلك هو حمل المتعلمين على الانبهار بالمستعمر والاندماج بأفكاره.

وقد صرّح بهذه الظاهرة الكاتب الإنجليزي -ميكالي- عندما كان رئيسًا للجنة التعليمية عام 1835م التي قرّرت جعل اللغة الإنجليزية أداة لتعليم الهنود بدلاً من لغتهم، فقال:

[... يجب أن ننشئ جماعة تكون ترجمانًا بيننا وبين الملايين من رعيّتنا، وستكون هذه الجماعة هنديّة في اللون والدم، إنجليزية في الذوق والرأي واللغة والتفكير...] [2].

إن آراء ميكالي وأمثاله يجب أن تدفعنا وتحفّزنا على مجابهة تلك الأفكار الوافدة بهدف إقصائنا عن مسرح التأثير في الحياة، لخلق جيلٍ واعٍ يستنير بنور الإسلام، ويتبنّى عقيدته ونظامه ومنهاجه، باعتباره دينًا وثّابًا له أيديولوجيته الفطرية والإنسانية ودستورًا متكاملاً في كل شيء.

2- الثقافة والتربية في المجتمع

تتأثّر التربية لدى الأطفال بعدة عوامل بيئية، تعمل على تلقين مفرداتها للناشئة.

فمن الثقافة التي تُبنى من خلال الطبيعة ومظاهرها، إلى ثقافة مكتسبة من الناس والجماعات، حيث يُعتبران معًا مجموعة الظروف المحيطة بالفرد والتي تكسبه طابعه الخاص وتؤثر فيه. فالطفل يولد في أسرته، التي تعتبر مؤسسته الاجتماعية الأولى، وتليها المدرسة، ثم المجتمع الأكبر، حيث تشترك جميعها في العمل على أنسنة هذا المخلوق.

كيف لا؟ فالثقافة التربوية لديها إمكانية الاكتساب، والانتقال من جيل لآخَر عبر كفاح الإنسان ونشاطه، ولهذا اعتبرت التربية عاملاً رئيسًا من عوامل الثقافة المجتمعية، وقديمًا قيل: [لا ثقافة بدون تربية، ولا تربية بدون ثقافة].

وبناءً عليه، فقد بُنيَ موقف التربية من الثقافة وفق مستوياتٍ ثلاثة:

أ - على مستوى العموميات:

ونعني بها [... جميع العناصر الثقافية التي يشترك فيها جميع أفراد المجتمع، كالأفكار والعادات والتقاليد وأنماط السلوك واللغة][3]. وبدورها تعمل على شدّ أواصر المجتمع، وبنائه مستقرًّا متضامنًا.

وقد أكسبت التربية هذه المفاهيم القيم والسلوك السويين، وصولاً للمحتوى الأخلاقي الذي يبدأ بإلزاميةِ مجانيةِ التعليم، لتتقارب مستويات المجتمع وتردم الهوّة القائمة بين طبقاته.

ب - على مستوى الخصوصيات

ونقصد بها طرائق التفكير، والعادات والمصطلحات والمعتقدات التي تحكم سلوك الأفراد، وهنا يأتي دور التربية ليهذّب تلكم الطرائق والعادات لتتحوّل العقيدة الإيمانية إلى سلوك جماعي، كمثل الجسد الواحد ويمثّل الإنسان فيه بعدًا أرضيًا للإيمان بالله والتقرّب إليه، (أحبهم إليه أنفعهم لعياله)[4].

ج- على مستوى المتغيّرات

حيث يمارس الفرد هنا قناعاته، في خضم عالم متغيّر، يُثري عاداته بإضافات جديدة، له حق الاختيار فيها.

وهنا تبرز عقدة اصطدام تلك المتغيرات بما أَلِفَه الإنسان واعتاد عليه، ليأتي دور التربية الموجّه لحسن الاختيار القويم، حيث المصلحة العليا للفرد والمجتمع والأمة، حتى تغدو تلك المفردات الجديدة جزءًا من ثقافة ذاك المجتمع، أو قل ربّما تحلّ محل عناصر قديمة، وتصبح جزءًا من ثقافة الأمة.

وهنا لا بد من الإشارة إلى خطورة ما تُحدثه تلك الثقافات الدخيلة -وفي أغلب الأحيان- من هزّة واضطراب، وصراع بين الأجيال، فتختلّ العلاقات الاجتماعية ويضطرب السلوك.

والحاجة هنا ماسّة لإعادة التكامل والتوازن، وهضم المتغيّرات بما ينسجم مع أعراف وتقاليد المجتمع.

مثال على ذلك: رفض فكرة التلفزيون لأول مرّة، وما يتضّمنه من ممارسات غير مقبولة ومخالفةٍ لثقافة المجتمع، مما يحتّم تدخّل التربية في تهذيب ذاك الطارئ على المجتمع بإيجابيةِ وجه الانتفاع به.

3- دورُ كلٌّ من الأسرة والمجتمع في تربية الطفل

أ- دور الأسرة:

قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه"[5].

عن الإمام علي (عليه السلام): "حُسْنُ الأخلاق برهان كرم الأعراق"[6].

وعن دور الأب: ".. أبتاه كان عليك أن تقول لي لا أحيانًا لتأديبي وتدريبي، حتى لو كنتَ مستطيعًا، كان يجب في بعض المرّات أن تحرمني لأعتاد على واقع الحياة..."[7].

وعن تأثير الأم في الولد، فعن النبي (صلى الله عليه وآله) قال: ".. أطعموا المرأة في شهرها الذي تلد فيه التمر، فإن ولدها يكون حليمًا تقيًا"[8].

ب-طهارة المولد:

((إن القرآن الكريم يعبّر عن رجلين من هؤلاء العظماء بطهارة المولد والسلام يوم الولادة، وهما يحيى بن زكريا، وعيسى بن مريم.

يقول في حق يحيى (عليه السلام): {سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ}[9]. ويقول على لسان المسيح (عليه السلام): {وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ}[10]، والسلام هنا بمعنى: عموم العافية، أي الطهارة الكاملة للبدن والروح. وهذه الحقيقة -أي طهارة المولد- متساوية في جميع الرسل والأنبياء. والنكتة الأخرى التي يجب التنبّه لها هي: أن القرآن عبّر عن السلامة في دور الرحم بسلامة يوم الولادة، وذلك لأن السلامة في تمام ذلك الدور لا تعرف إلا بعد ولادة الطفل سالمًا، واجتيازه تلك المراحل كلها بنجاح حيث تنقطع صلته تمامًا برحم أمه... ولا ريب فلسلامة المولد قيمتها باعتبارها السبب الأول في نشوء جيل مستوٍ وخلقِ مجتمع فاضل تنتشر فيه روح السعادة والإنسانية والصفاء))[11].

... وهذا لقمان الحكيم (عليه السلام) يرشد ولده ويقوّم سلوكه كدليل على دور الأب الريادي في ميدان الإعداد والتوجيه، وقد خلّد القرآن الكريم هذه الإرشادات "الوصايا" لما لها من عظيم الشأن، وبالغ الأثر على النفس الإنسانية، قال (عليه السلام):

{يَا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ * وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[12].

وقد دلّت الآيات الكريمة على لسان لقمان الحكيم (عليه السلام)، على الدور التربوي الذي يجب أن يضطلع به الأب لرعاية ولده والقيام بتربيته لضمان سعادته في الدارين "الدنيا والآخرة".

فأراد تجنيبه لأعظم المعاصي، وإحدى أهم الكبائر "الشرك بالله" وحثّه على شكر الوالدين كمقدمة لشكر المولى عز وجلّ، وذلك من خلال تقدير فضل الأم في حمله وتربيته ورضاعته، مُنذرًا إياه بأن المرجع إلى الله تعالى، وعليك التهيؤ للحساب.

وبعد، فقد أنكر عليه طاعة الوالدين عند إلحاحهما عليه بالشرك بالله، وزوّده بأسلوب تربوي فريد عند رفضه لهذا النوع من الأوامر، وذلك من خلال الرفق واللين دون جفاء أو خشونة، وذكّره بأن الأعمال معروضة على الله يوم القيامة، ثم دعاه لإقام الصلاة والأمر بالمعروف، إلى أن نهاه عن التكبّر، وعدم الإعراض عن الناس بتصعير الخدّ، وألزمه التواضع في المشي وعدم المبالغة برفع الصوت التي هي من صنيع الحمير.

هذه هي مدرسة القرآن، ومنهج السماء في عملية الإعداد والتربية لأنصار الرسالة وأتباعها ليكونوا طلائع السير بين الناس إلى الله... يصدعون بالحق كروّاد، ودعاة أمر حكيم، وعمالقة أخلاق وجمال أسلوب.

ج - دور المدرسة في التربية

وهناك اتجاه يقول بأن تُتْرَك مهمة التربية للمدرسة، وآخر يقول أن المدرسة يبدأ عملها بعد عمل الأسرة.

ونقول: مما لا شك فيه أن التناغم الكبير والمحاكاة المطلوبة في عملية البناء التربوي تفرض التكامل بينهما، بحيث يتوجّب على الأهلين القيام بالإشراف المباشر على تربية الطفل، والقيام بما يصلحه، من أجل مستقبل أفضل.

والمدرسة هي الأخرى متممة لدور الأهل، ومن خلال المتابعة البنّاءة بينهما لشؤون الطفل وشجونه إذ لا يجب الفصل بين الدورين "الأسرة والمدرسة" باعتبارهما مسرح تواجد الطفل في سنيه الأولى، ومرتع انفعالاته ومواهبه واستخراج إبداعاته وقدراته بشكل إيجابي مدروس.

نعم قد يتمّيز دور المدرسة استثنائيًا حال تفكّك بعض الأسر، مما يعوق قيامها بوظيفتها التربوية، ولا يخفى ما لدور مجالس الأهل والمعلمين في تلك المتابعة التي يجب أن تتّسم بالفاعلية، باعتبارها مسؤولية مشتركة متعاونة للوصول إلى تنشئة صحيحة وسليمة، حيث تسهم -وإلى حدّ كبير- في فهم عالم الطفل ونموّه ومتطلباته المشتركة.

لكن الخطر المحدق يبرز عند خروج المرأة للعمل، فتفقد أصالة دورها التربوي باعتبارها العمود الفقري للتربية، فيجعلها على خلاف ذلك. وظروف العمل هذه تنعكس بالسلب على طريقة تربية الأم لأبنائها، فلا تجد ما يخفّف عنها أعباء دورها كزوجة، وأم راعية.

4 - خصائص وميزات المعلم الناجح

وبما أن الحديث عن المدرسة التي قوامها حسن اختيار المعلم، والمرشد، والموجّه في آن، والمؤتمن على فلذات أكبادنا، فلا بد -والحال هذه- من انتقاء المعلم الأنجح، والمربي المميّز، بحيث يستحق أن يكون رسول محبة وخير، ويجب أن يكون:

- مؤمنًا ملتزمًا بتعاليم الدين القويم، وأمينًا على إيصالها إلى الناشئة.

- ذا تقوى عالية، يشعر بالرقابة الإلهية عند أدائه لدوره.

- متفقّهًا بأحكام الدين الحنيف، ليتمكّن من القيام بدوره كآمرٍ بالمعروف وناهٍ عن المنكر.

ولذا يجب عليه:

- إيقاظ الشعور الديني في نفوس تلامذته.

- التركيز على الشخصيات الرسالية التي لعبت دورًا بارزًا في تاريخ الإسلام، ليتحقق لهم حسن القدوة والأسوة.

- حيازة مؤهلات علمية متميّزة في مجال اختصاصه وعطائه.

- الخضوع وبشكل دوري لإعادة تأهيل وتدريب في الاختصاص من ناحية، والإحاطة بعالم الولد من ناحية أخرى في ظل متغيرات متسارعة.

- الإخلاص في العطاء، والرغبة في أداء دوره كرسالي لا كموظف.

- الإحاطة بعادات وتقاليد مجتمعه.

- الهدوء، والصبر وسعة الصدر، والقدرة على تجاوز الأخطاء، وحلّ المشكلات.

- المحافظة على كرامة التلميذ، وتجنّب التقريع وأسلوب السخرية.

- تجنّب المساءلة والمبالغة بها، وخاصة بما لا يعنيه، تجنبًا لخدش كرامة الناس مهما قلّت.

- عدم التقدّم لمكان أو على قوم فيهم مَن هم أفضل منه.

- المداومة على المطالعة والكتابة، والتواصل الاجتماعي.

- التمتع بدقة الملاحظة وسرعة البديهة، والقدرة على أخذ الموقف المناسب بالسرعة الممكنة ودون تسرّع.

- تجنب الصراخ ورفع الصوت، والمحافظة على رباطة الجأش، وعدم إظهار العصبية، وأن لا يجري على لسانه أيّ استهزاء اتجاه الولد.

جِراحاتُ السنانِ لها التئامُ	ولا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ

- فتح آفاق الطلاب على خطط المستعمرين، وأساليبهم، وتحصينهم بالأساليب والقدرات الفكرية الكفيلة لمواجهتها، وتنبيههم دائمًا على الأخطار المحدقة بأمتهم.

- الإقدام على محاسبة نفسه يوميًا، ما إذا كان راضيًا عمّا قدّمه لتلامذته، وهل قام بدوره كاملاً وكأنه يربي ويشرف، ويدرس ولده وفلذة كبده.

5 - الخاتمة

وبعد، فإن الحديث عن التربية شاق وطويل، والولوج في مطاوي أهدافه، أو مكامن أبعاده في إطار متكامل نحو مشروع لنهضة الأمة ليس بالأمر السهل، والمتصدي للعمل التربوي يستثير الواقع بإلحاح وقوّة بصيرة، لقيادة عملية اجتياز تفاعلية للبيئة المحلية والأممية أيضًا، بعيدًا عن دوامة التداخل الثقافي المستجدة، لصياغة الشخصية الرسالية، وفق ممر إلزامي يتوّج العلاقة بين الأسرة والمدرسة والمجتمع.

وهنا تتناغم قدرات كل مرحلة، ومهارات الطفل المكتسبة لاحقًا لتتحوّل وفق منطق تطويري تدريجي، لمعارف صاغتها التجربة ثم راجت كنتائج فاعلة، ضمن استراتيجية آيلة لمستلزمات النهوض.

من هنا كانت المقاربة لمراحل التربية الثلاث "الأسرة -المدرسة- المجتمع" وتفعيل آلياتها، لكي تصل إلى حالة اندماج تربوي رائد يرقى بالفرد، مرورًا بالمجتمع، وصولاً لأمة تأخذ موقعها تحت الشمس بقوة الحق السليم، الناتج عن تطبيق برامج السماء، ومناهج الله لعباده.

ولا يمكن لذلك أن يتم أو يحصل إلا بالمعلّم المخلص، العالم بقضايا أمّته، المرتبط بقيم الشريعة السمحاء، وواقع الحياة، ومتغيراتها، وأن لا يحيد عن سبيل الحق كعالم ربّاني مداده أفضل من دماء الشهداء.

الهوامش

1 الأعراف: 58.

2 باقر شريف القرشي، النظام التربوي في الإسلام، ص133، دار التعارف للمطبوعات، 1983.

3 أبو طالب محمد سعيد ود. رشراش عبد الخالق، عوامل التربية (2)، ص62 دار النهضة العربية، ط1، 2001.

4 قرب الإسناد، الحميري القمي، ص120 ح421.

5 بحار الأنوار، ج3 ص281، ط2، 1983، مؤسسة الوفاء، بيروت-لبنان.

6 غرر الحكم ودرر الكلم،الآمدي، ص167، دار الثقافة في النجف الأشرف.

7 أبتاه، سامي خضرا، ص18، دار الهادي، 1997م.

8 مكارم الأخلاق ص86.

9 مريم: 15.

10 مريم: 33.

11 الطفل بين الوراثة والتربية، محمد تقي فلسفي، ص90-91، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

12 لقمان: 13-19.

الهجرة الحادة والمهاجرون بين الماضي والحاضر

د. حسن جعفر نور الدين

أسباب ونتائج

د. حسن جعفر نور الدين

مضى على الناس زمن وهم يهاجرون، يتركون أوطانهم وتاريخهم وعوائلهم ويرحلون، لا حبًا بالهجرة، إذ ليست -في الإطار الذي نقصده من الهجرة- فرصة للاستجمام والسياحة في جانب منها، وليست للراحة والتنزه والبحبوحة، إنما هي هجرة للجسد أكثر منها هجرة للروح، وهجرة للمستقبل لا من الماضي أو تنكرًا له وهروبًا منه. في الهجرة القسرية التي أعنيها في حديثي، تبقى الذكريات سِفرًا يتصفَّحه المهاجر باستمرار، فيقرأ فيه ذكرياته مع الأهل والأصدقاء، مع الحجر والمدر، يتلمّس فيه عبق أصابعه وهي تلامس التراب فيحيي فيه الحياة.

لو جمعت الدموع التي أهرقها المهاجرون منذ نهايات القرن التاسع عشر وحتى اليوم على سلالم البواخر ونوافذ القطارات وكوى الطائرات لبلغت بحورًا، دموع الصدق التي تهاجر من الأحداق، لتنزرع في الأرض التي يغادرون صكوك محبة وعهد بالعودة الظافرة.

إنهم يغادرون وفي قلوبهم أمل العودة إلى دم الوطن، يهاجرون ليبنوه ويصنعوه من هناك، من الأقاصي النائية وراء البحار، بعد أن تعذّر عليهم البقاء فيه وخدمته وبنائه بحريّة ومحبة دون إرهاب وتنكيل.

ذهبوا يفتشون عن الحرية التي افتقدوها، والخبز الذي حرموه، والكرامة التي ديست بأعقاب بنادق المحتلين، وسياط زبانيتهم وأعوانهم الذين باعوا ضمائرهم خدمة للمستعمرين.

ذهبوا لينتشلوا عوائلهم من العَوَز الذي نهش ضلوعهم، والفقر الذي أدمى مشاعرهم وأعدم أطفالهم، فَأَنِفوا من التسوّل، وعزّ عليهم أن يتركوا أرضهم دون حراثة، أن يتركوا الغيوم في سمائهم دون أن يستدرّوا منها المطر الحنون، والشمس فوق دورهم دون أن ينعموا بإشعاعاتها الذهبية، ذهبوا تاركين نسيم السفوح العليل وثلج الجبال البلوري ليسيل دون أن تتلقفه أيديهم الحانية، وثغورهم الداعية، وقلوبهم الآملة بعودة ميمونة، وهم يحملون إلى الأرض التي ربتهم والتي شهدوا أول نور على ترابها النفيس، يحملون ميلاد وطن جديد، عَرِقوا لأجله، وجهدوا في سبيل سعادته، وحفوا وعروا ليلبسوا فيه ثياب العافية، ومات بعضهم هناك ليحيا هو بما أسلفوه وما أرسلوه وبذلوه.

لبسوا المسوح البالية ليلبسوا في وطنهم ثياب العزّ والمجد، وشربوا الماء العكر، لينهلوا في وطنهم ماء القوة والعنفوان، وشراب الحياة.

لقد عمرت بهم بلاد المهاجر، وذاع صيتهم في كل مكان.

حملوا (الكشّة) -وهي صندوق مليء بالأزرار والأمشاط والدبابيس والأقمشة- رمز النضال والكفاح حتى عرفوا بها، ونعتوا بكلمات مسيئة كـ"الجياع" و"اللاجئين" و"توركو" (نسبة إلى الأتراك الذين كانوا يحكمون بلادنا) وسمّوا أيضًا بـ"كلّو بعشرين" وهو نداء باعة (الكشة) المتجولّين، أو لقب "أكلة الحشيش" إشارة إلى اعتيادهم أكل الخضار في بيئة طعامها اللحوم، ولم تتبدّل هذه الألقاب وتُمْحَ إلا عندما ظهرت مواهب العرب عامة واللبنانيين خاصة في الشعر والمعرفة والفن.

لقد أفلح كثيرون، فانتقلوا من حَمَلة (الكشة) إلى رؤساء جمهوريات، أو وزراء أو نواب أو أعضاء في مجالس الشيوخ، هناك في أميركا الشمالية والجنوبية، وفي أوروبا وإفريقيا، فاللبناني جريء مغامر لا يهاب الصعاب ويتحمّل في سبيل أحلامه الأهوال والمشقات.

لقد انتشر اللبنانيون في فجاج الأرض حاملين معهم فقرهم وجوعهم وتشرّدهم وشوقهم، وأغلالاً من الظلم والقهر التي زرعها المستعمرون الأتراك والفرنسيون والإنكليز، حاملين معهم أيضًا عبقريتهم وأدبهم المرهف، على حد قول الشاعر المهجري جورج صيدح:

نحن الحفاة السائرون على الحصى	نحدو السراة الراكبين خيولا
للمجد نحملهم على أكتافنا	ولربما حمل الخفيف ثقيلا
حتى إذا عثر الأديب تفرقوا	عنه فلا يجد الأديب مقيلا
طرقوا المَهاجر فاتحين وليتهم	فتحوا قلوبًا مثلنا وعقولا

نعم، حملوا (الكشة)، ومنها صنعوا وطنهم المؤقت الجديد، ولم يخجلوا بصغائر الأعمال ليقينهم أنهم أصحاب نفوس كبار، تصنع من الضعف قوة ومن القليل الكثير ومن الصمود والصبر النصر والنجاح.

كان بينهم وبين الوطن سلك دقيق لكن متين لا ينفصم، هو سلك المحبة والحنان والإخلاص، وتعصف بهم اللهفة إلى العودة التي خذلت البعض لأنهم ماتوا حيث كانوا، أو يئسوا من تحسّن الحال، فعزّ عليهم أن يعودوا إلى الوطن منكسرين خاليي الوفاض، وهم وعدوه أن يجعلوا فيه التراب ذهبًا، والماء عسلاً، والصحارى جنائن مزهرة، أو لأن بعضهم كما قلنا وصل إلى سدة المسؤولية في دولة ليست في الأساس وطنًا طبيعيًا لهم، إلا أنهم من خلال ما هم فيه خدموا وطنهم ودعموه في المحافل الدولية والمراكز الأممية.

ذهبوا إلى المهاجر، فساهموا في إحياء مواتها وازدهار عمرانها ونشاط حركتها، تشهد لهم تلك الدول بذيوع الصيت والشهرة والعبقرية والعطاء.

ومات الكثير منهم، ليحيوا هناك بأولادهم بعدهم، وارثي الهم والمعاناة والحاجة، أو وارثي الثروة والشهرة، يتابعون مسيرة الحياة التي فرضت عليهم واختاروها مُكرَهين.

إن وطننا لبنان مدين لهم اليوم وقبل اليوم وغدًا وبعد غد، بما قدّموه وفعلوه لنا في أوقات الشدة والمخاض، ربما كانوا يعطشون لنشرب، ويعرون لنلبس، ويتعبون لنرتاح، ويتحمّلون شظف العيش وغبار المصانع ودخان المعامل، وينامون على الخشن، لنحيا في بحبوحة من العيش ورخاء وسعادة.

غادروا بعد أن سُدّت في وجوههم أبواب الرزق الحلال، وبعد أن عانوا ويلات الجوع والعوز، بعد أن عزّ عليهم أن يجدوا أطفالهم أسيري المرض والفاقة، يموتون جوعًا، والاستعمار الغاشم ينقضّ عليهم فلا يترك لهم بابًا من أبواب الرزق إلا سدّه، إذ إنهم ذاقوا ويلات الحكم العثماني الغاشم، والاستعمار الفرنسي البغيض والإنكليزي الجشع، وعانوا من العملاء المحليين الذين باعوا ضمائرهم إلى الشيطان، فعُلّقت أعواد المشانق، وصودرت غلال البيادر، ومحاصيل الحقول، وسلبت الحقوق والمكتسبات، وأقفلت المطابع وصودرت الصحف، وأحرقت المكاتب ودور العبادة، وشُنق من شنق، وسجن من سجن، وهاجر معظم من بقي من الرجال والشباب هائمين على وجوههم، ممتطين البواخر والزوارق والقطارات، هاربين من جحيم لم ترحمهم نارها، ولم يخمد أوارها، منذ أكثر من مائة وعشرين عامًا وقوافل المهاجرين لم تتوقف يومًا من الأيام.

إن لبنان ذا الخمسة ملايين نسمة، يُقدر سكانه في المهاجر بعشرين مليون إنسان منتشرين وراء البحار وفي شتى دول العالم، إنه لبنان المغترب المسافر المهاجر في عيون الغمام وأذرعة السحب.

كانت الهجرة وما زالت ذات حدين، يكمل أحدهما الآخر، أناس هاجروا من أجسادهم وملذاتهم وباعوا أنفسهم لله وللوطن، مؤثرين الدفاع عنه والنضال في سبيله، ليستعيد حريته وأرضه المغتصبة، هاجروا من المنازل إلى الكهوف والمغاور والجبال والهضاب، هاجرت عيونهم من أحداقها لترصد الدخيل والمحتل، وتبقى له بالمرصاد، وتلك لعمري من أعظم الهجرات.

ومهاجرون إلى خارج الوطن، مغامرون يبنون بسواعدهم ما عجزوا عن القيام به في الوطن الأم للأسباب التي ذكرناها، والذين لازموا الوطن، رجال صنعوا الوطن على قدر ظروفهم وإمكاناتهم، متحمّلين أذى المحتل الغاصب، وسمّ الغلاء ومرارة الفقر والحرمان، محافظين على التواصل مع مهاجرينا في الخارج، ليكتمل العقد، عقد حلف النضال بينهما.

إنّ حديثي عن الهجرات الحادة، ليس له علاقة بالهجرات الأخرى الداخلية والخارجية، والتي تختلف ظروفها كليًا عن تلك التي أتحدث عنها، وسنفرد لها حديثًا مستقلاً إن شاء الله.

بين الماضي والحاضر

بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، مساحة زمنية لافتة، أكثر من مائة وثلاثين عامًا تفصل بين طرفي المرحلتين، وفيهما حصلت تطورات واختراعات واكتشافات وتحوّلات مختلفة، انعكست على الهجرة الحادة وطورّت من أطرها ووسائلها وغيّرت من أساليبها، فما كان سنة 1880م مثلاً لم يعد موجودًا على الأغلب في القرن الحادي والعشرين، إذ تطورت الحضارة الإنسانية بشكل سريع، وانفتحت الحياة على آفاق جديدة طبعت المجتمعات بسمات جديدة، فأصبحت وسائل العيش أكثر يسرًا مما عزّز من وتيرة السفر، فاقتربت المسافات البعيدة، وتحققت إنجازات هائلة على صعيد التكنولوجيا ووسائل الاتصال المختلفة، إذ بعد أن كانت الرسائل تنتظر أشهرًا لتصل إلى المحبّين من المغترب وإليه، أصبحت الآن تصل في أيام أو ساعات أو حتى دقائق، فلم يعد المهاجر يشعر بلوعة البعد ومرارة الفراق اللتين كانتا تصيبانه، بل أصبح بفعل التكنولوجيا الحديثة وأنظمة الانترنت والكمبيوتر والفاكس والبرقيات السريعة أكثر اطمئنانًا وأقلّ مرارة ووحشة، فالأهل يستطيعون مشاهدة أبنائهم في أية لحظة وهم قابعون في أماكنهم، فيرونهم ويحادثونهم ويطمئنون إلى أحوالهم، مما ينعكس إيجابًا على نفسية المغتربين وأقربائهم في الوطن ويهدّئ من لوعة الفراق والشوق، وهذا الهدوء النفسي ينعكس هدوءًا وراحة ونموًّا على عمل المغتربين ونتاجهم المادي والمعنوي والأدبي والفكري، على عكس ما كان يعانيه مهاجرونا الأوائل في بلاد الاغتراب.

ورغم مشقات السفر ومتاعبه وألم الهجرة التي ازدادت في الوقت الراهن نتيجة الغلاء الفاحش، وندرة وسائل العمل، وأولاً وقبل كل شيء نتيجة الاعتداءات الصهيونية المتكررة منذ أربعين عامًا وحتى اليوم، حتى أصبحت مدينة كبنت جبيل تحديدًا تعدّ الآن ستة آلاف نسمة بعد أن كانت تحصي ستةً وثلاثين ألف مواطن، رغم كل ما ذكرنا فإن متاعب السفر في عصرنا الحالي لا توازي ما كان يعانيه أجدادنا وآباؤنا في الماضي، وسأورد بعض الأمثلة الحية دليلاً على ما أشرت إليه.

في مرحلة الحكم العثماني كانت الهجرة اشدّ مرارة من البقاء في الوطن، علمًا أنها كانت محظورة رسميًا ومباحة بواسطة المهربين.

كانت تضج في أعماق الفقراء والمسحوقين نزعتان: الوطن أو الهجرة، وفي كلتيهما كأنهم يتجرّعون السم الزعاف.

كان المهاجرون يُعاملون كصعاليك منبوذين مخلوعين، وكانت البواخر الصغيرة حالما ترابط في ميناء بيروت، يوفد سماسرة من ذوي الحناجر القوية إلى أسواق المدن والقرى لإذاعة نبأ وصولها وموعد سفرها، فيهرع القرويون إلى استدانة المال للسفر من المرابين، بِرهنِ كل ما يملكون من عقار وأثاث، وتبدأ عملية التهريب، السمسار يسلّم المهاجر إلى العسكري المتولّي مراقبة الشواطئ، والعسكري يصعد به من وراء الجمرك إلى ماعونة محمّلة بالبضائع، وقائد الماعونة يدخله في الباخرة بصفة حمال، وفي الباخرة يتسلّمه القهوجي ويضعه في أحد

المستودعات، وبهذا الوضع يصل المسافر إلى مرسيليا في فرنسا ومنها يتسلمه سمسار جديد وينزله في خان قذر، ولا يحمله إلى باخرة تنقله إلى أميركا، إلا حينما يفرغ جيبه من الفلس الأخير، هناك في الباخرة يلتقي بأمثاله المهاجرين، ويعيش معهم عيشة القطيع الذي تطارده الذئاب، إن صعدوا إلى ظهر الباخرة تعرّضوا للحر والبرد والأمطار والرياح، وإن احتشدوا في الطوابق السفلى كادوا يختنقون، وكم من مرة سلّط عليهم البحارة أنابيب الماء الساخن لمنعهم من الاحتجاج على سوء المعاملة، وكم من مرة حملتهم الباخرة إلى حيث لا يقصدون، وأنزلتهم البلد الذي يوافق مصلحتها. السعيد منهم من يجد على المرفأ إنسانًا في انتظاره، أو يعرف عنوانًا لنسيب أو صديق، أو من يحمل كتاب توصية يؤمّن الطعام والمأوى في الليلة الأولى.

هكذا تبدأ حياة الأديب أو أيّ مهاجر إلى الغربة، تبدأ بالتفتيش عن لقمة العيش في غربة قاسية لا يعرف فيها المهاجر أحدًا.

مغامرات قاسية خاضها المهاجرون الأوائل، يذكر الشاعر إلياس فرحات شيئًا منها من معاناته هو، حيث تنقَّل في أعمال لم تُجدِه نفعًا، فمن تربية الماشية، إلى التنضيد في مطبعة، إلى تربية الحملان في مزرعة حيوانات، إلى التجوّل لبيع (مساطر) المحلات التجارية، وهو يختم قصيدة له تحكي عن هذه المعاناة ببيت يحمل فيه كل المعاني:

أغرّب خلف الرزق وهو مشرّق	وأقسم لو شرّقت راح يغرّب

وتذكّرني معاناة فرحات بما قرأته عن معاناة زميله وصديقه في الشعر والهجرة، الشاعر القروي رشيد سليم الخوري، الذي لم يرتقِ في دنياه من شاعر متجوّل إلى صاحب متجر مقيم، يقول في قصيدة تنضح أسىً ويأسًا وخيبة قاتلة:

حنانيك ربي حنانيك ربي	لقد قصمت ظهري القاصمة
بعيد المزار غريب الديار	وحيد وها أنا في عاصمة
أيا ربي فاتحتي هكذا	فهل لك أن تحسن الخاتمة

ويذكر سليمان البستاني مترجم الإلياذة شيئًا من هذا في كتابه "عبرة وذكرى" إذ يقول: [كان المهاجر يتعرّض للاستغلال على أيدي السماسرة في مرفأ بيروت، وأنه لو حوكم ولاة بيروت على ما كانوا يؤلمون به أولئك المهاجرين البؤساء وما يبتزونه من أموال يوم سفرهم أو يوم عودتهم، لحكم عليهم بالسجن المؤبد].

وقد روت جريدة البشير أن المهاجرين عند نزولهم من الباخرة في مرسيليا كانوا يقادون كالأغنام لمحل وجد للسلب والنهب ومن امتنع عن الانقياد عولج بالضرب والتهديد، وأشارت إلى أن من رأى العائد إلى بيروت على الباخرة "برنسلين" انفطر قلبه حسرة وانتفض لاعنًا مسببي الهجرة، كما كانت الحكومة الفرنسية تقوم بطرد

المهاجرين الفقراء المتوجهين إلى أميركا عبر أراضيها.

هذا قليل من كثير مما كان يحصل للمهاجرين المتعبين من قهر وإهانة وظلم.

هذه نبذ عن حياة المهاجرين في بلاد الاغتراب، وسيكون لنا بإذن الله أبحاث أخرى تكشف عن حقائق وأسرار الحياة المهجرية والأدب المهجري في الماضي والحاضر.

مصادر البحث ومراجعه

- محمد عبد المنعم خفاجي: قصة الأدب المهجري، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
- جورج صيدح: أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، مكتبة السائح، طرابلس.
- هيثم جمعة: الهجرة اللبنانية - واقع وآفاق، دون دار نشر.
- حسن جعفر نور الدين: الصعلكة والشعراء الصعاليك، ج1، دار رشاد برس، بيروت.

رسالة النجف — العدد العشرون

جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية · http://127.0.0.1:8000

جميع الحقوق محفوظة